

الدكتور هولو هودت فرج

البرامكة

سليّاتهم وإيجابياتهم

دار الفكر اللبناني
بيروت

البرامكة
سليّاتهم وإجابتهم

دار الفكر للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ١٩٩٠

كود المبيعات: ٨٦٣٣٩٣ - ٣١١٥٧٨

ملاحظات: ١٤/٥٤٩٠ أو ٤٦٩٩

تأليف: DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٠

الاهدا.

إلى الذي أبداني بأفوله . .

وأكدني بتلاشيه ،

إلى والدي

أهدي هذا الكتاب

هولو جودت فرج

١٩٨٩/١/١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

يجري الزمان نهراً سرمدياً وإذا بكل آتٍ حاضر فماضي . عندما تنتفخ جعبة الماضي يطيب للمرء نبشها واستعراض ما فيها، فإن اكتفى بالانفعال فهو مجرد متذكر، وأما إذا رتب وقارن وميز العلل من النتائج وعلم أن العلة هي نتيجة أيضاً حتى تستقيم لديه سلسلة ترابط حلقاتها بالضرورة فهو مؤرخ يتهياً لأن يستنبط من الأمس آتياً.

وكثيرون هم الذين تفرغوا لاستعراض ماضي الأمم متلذذين وهم يحسبون جهودهم من صلب علم التاريخ غافلين أنهم مجرد متذكرين وأن أعمالهم قد يصح اعتبارها خامات للتاريخ لكنها ليست من صميمه كعلم يحلل ويعلل مسهماً في كشف درب المسيرة الكبرى على ضوء قوانين مسيرة الماضي .

لنأخذ ما أسمى تاريخاً للأمة العربية مثلاً، فماذا نجد؟ نجد عشرات البؤر الحالكة المستعصية على الفهم والاستيعاب، نجدها تقف عائقاً في وجه التحليل العلمي وكأنها مجموعة من الأعراض حدثت اتفاقاً وكان بالإمكان أن لا تحدث وليشرب التفكير العلمي البحر . كل ذلك بفضل من تصدّوا لكتابة تاريخنا بحافز الذكرى وليس بحافز التاريخ .

لنأخذ قضية البرامكة، وهي واحدة من عشرات القضايا، فماذا نرى؟ نرى أنها لا تزال مشكلة شائكة برغم مئات الأسفار الضخمة التي تعرضت لحلها قديماً، وبرغم مئات البحوث التي تناولتها بالترويض في العصر الحديث . لماذا؟ لأن الذين

كتبوا عنها قديماً وحديثاً كانوا منفعلين ولم يكونوا فاعلين ففاتهم أن معاصر الحدث غالباً ما يكون جزءاً من الحدث والأحداث لا تدرس نفسها. فاتهم أن يميزوا بين الرشيد الإنسان الذي قد يندم على ظلمه أباه في التربية فيؤخذ عليه ندمه؛ وبين الرشيد رجل الدولة الذي لا يهتم أن يكون مخلوقاً على الصعيد الفردي بقدر ما يهتم بقاء أسس دولة الخلافة نامية الرسوخ، فاتهم أنه لا تناقض بين أن يكون البرامكة جزءاً من الحضارة العربية بعدما نُكبوا، وبين أن يكونوا خطراً عليها فيما لو لم يُنكبوا وكانت لهم تلك المآرب التي تحدّث عنها المتوجسون.

من هنا جاءت هذه المحاولة المتواضعة التي قد تكون يراعاً ضئيلاً في وجه ظلام دامس، ولكنها على كل حال من جنس النور، ولا أزعم لنفسي الفضل الأول باختيار البرامكة موضوعاً، فالفضل في غالبته عائد إلى أستاذي الباحث الكبير، الأب الدكتور ج. م. فييه، الذي تفضّل برعاية عملي وتسديد خطاي الرخصة في طريق البحث التاريخي الأصيل.

الكاتب

مقدّمته

أصل البرامكة

إن أصل الأسرة البرمكية^(١) من المواضيع التي حيكت حولها الروايات التي تميّزت بطابع شبه أسطوري، فقد ذكر أن هذه الأسرة كانت من «بيوتات بلخ»، وكان جدهم برمك^(٢) من مجوس بلخ (في الأفغان اليوم)، وكان يخدم النوبهار. واشترك برمك وبنوه بسدانتة، وكان برمك عظيم المقدار عندهم^(٣).

والنوبهار، كما ذكر ابن خلكان^(٤)، معبد كان للمجوس بمدينة بلخ تُوقد فيه النيران. وروي المسعودي^(٥) أن النوبهار بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سدانتة تعظّمه الملوك في ذلك الصقع وتنقاد إلى أمره وترجع إلى حكمه وتُحمّل إليه الأموال وكانت عليه وقوف، وكان الموكل بسدانتة يُدعى البرمك وهذا سمة عامة لكل من وليّ سدانتة. ومن أجل ذلك سُميت البرامكة لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت، وكان بنيان هذا

(١) لا بد من التطرّق إلى أصل البرامكة بصورة موجزة، لأن أصلهم خارج موضوع البحث الأساسي، علماً بأن هناك دراسات كثيرة تعرّضت لهذا الموضوع.

(٢) ذكر ابن الطقطقي، أن خالداً هو جد البرامكة: ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٦.

(٣) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢١٩؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٣٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢١٩.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٣٨١ - ٣٨٢.

البيت من أعلى البنيان تشييداً، وكانت تُنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر، طول الشقة مائة ذراع فما دونها. وقد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح ما عليها من الحرير. فيقال - والله أعلم - إنَّ الريح خطفت يوماً بعض تلك الشقاق ورمت به فأصيب على مسافة خمسين فرسخاً، وقيل أكثر من تلك المسافة، وذلك يدل على ذهابه في الجو وتشيد بنيانه وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالاً لم نذكره، إذ كان أمر ذلك مشهوراً من وصف علو السور وعرضه.

أما ياقوت^(١)، فقد ذكر في كتابه «معجم البلدان»، عن لسان عمر بن الأزرق الكرمانى، أنه قال: كانت البرامكة أهل شرف على وجه الدهر يبلغ مثل ملوك الطوائف، وكان دينهم عبادة الأوثان فوصفت لهم مكة وحال الكعبة بها وما كانت قريش ومن والاهما من العرب يأتون إليها ويعظمونها فاتخذوا بيت النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام، ونصبوا حوله الأصنام وزينوه بالديباج والحرير وعلّقوا عليه الجواهر النفيسة.

وتفسير النوبهار: البهار الجديد، لأن نو الجديد وكانت ستهم إذا بنوا بناءً حسناً أو عقدوا باباً جديداً أو طاقاً شريفاً كلّوه بالريحان وتوخّوا لذلك أول ريحان يطلع في ذلك الوقت، فلمّا بنوا ذلك البيت جعلوا عليه أول ما يظهر من الريحان وكان البهار فسمي نوبهار لذلك.

وكانت الفرس تعظمه وتحجّ إليه وتهدي له وتلبسه أنواع الثياب وتنصب على أعلى قُبته الأعلام، وكانوا يسمون قبته (الأوستن)، وكانت مائة ذراع في مثلها وارتفاعها فوق مائة ذراع بأروقة مستديرة حولها، وكان حول البيت ثلثمائة وستون مقصورة يسكنها خدّامه وقوامه وسدنته، وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود إلى الخدمة حولاً كاملاً، ويقال إنَّ الريح ربما حملت الحرير من العَلَم الذي فوق القبة فتلقّيه بترمز وبينهما اثنا عشر فرسخاً، وكانوا يسمون السادن الأكبر برمك لتشبيههم البيت بمكة يسمون سادنه برمكه، فكان كل

(١) ياقوت: معجم البلدان م ٥ ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

من وُلِّي منهم السدانة برمكاً، وكانت ملوك الهند والصين وكابل شاه وغيرهم من الملوك تدين بذلك الدين وتحجج إلى هذا البيت وكانت سُبَّتْهم إذا هم وافوه أن يسجدوا للصنم الأكبر ويقبلوا يد برمك. وجعلوا للبرمك ما حول النوبهار من الأرضين سبعة فراسخ في مثلها وجميع أهل ذلك الرستاق عبيد له يحكم فيهم بما يريد، وصيَّروا للبيت وقوفاً كثيرة وضياعاً عظيمة سوى ما يحمل إليه من الهدايا التي تتجاوز الحد، وكل ذلك يصل إلى برمك^(١) الذي يكون عليه، فلم يزل يليه برمك بعد برمك إلى أن افتتحت خراسان في أيام عثمان بن عفان وانتهت السدانة إلى برمك، فسار إلى عثمان مع رهائن كانوا ضمنوا مالا عن البلد، ثم إنه رغب في الإسلام فأسلم وسُمِّي عبد الله ورجع إلى أهله وولده وبلده فأنكروا إسلامه، وجعلوا بعض ولده مكانه برمكاً فكتب إليه نيزك طرخان^(٢)، أحد الملوك، يعظم ما أتاه من الإسلام ويدعوه إلى الرجوع إلى دين آبائه، فأجابه برمك: إني إنما دخلت في هذا الدين اختياراً وعلماً بفضل من غير رهبة ولم أكن لأرجع إلى دين بادي العوار مهتك الأستار.

فغضب نيزك وزحف إلى برمك في جمع كثير، فكتب إليه برمك: قد عرفت حبي للسلامة وإني قد استنجدت الملوك فأنجدوني، فاصرف عني أعنة خيلك وإلا حملتني على لقائك، فانصرف عنه ثم استغفره وبيته فقتله وعشرة بنين له، فلم يبق له سوى طفل، وهو برمك أبو خالد، فإن أمه هربت به وكان صغيراً إلى بلاد القشмир من بلاد الهند، فنشأ هناك وتعلَّم علم الطب والنجوم وأنواعاً من الحكمة وهو على دين آبائه ثم إن أهل بلاده أصابهم طاعون ووباء فقتلوا بمفارقة دينهم ودخولهم في الإسلام، فكتبوا إلى برمك حتى قدم عليهم، فأجلسوه في مكان

(١) يقول ياقوت في حديثه عن «راون»: إنها بليدة من نواحي طخازستان شرقي بلخ، ليست بالكبيرة، كانت ليحيى بن خالد بن برمك، كثيرة الخير؛ ياقوت: معجم البلدان ج ٣ ص ٢٠.

(٢) ذكر الطبري في حوادث سنة ٩٠هـ (٧٠٩م) أن نيزك صلى في النوبهار وتبرك به: الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٤٦.

آبائه وتولّى النوبهار، ثم تزوج برمك بنت ملك الصغانيان فولدت له الحسن وبه كان يُكنّى، وخالداً وعمراً وأختاً يقال لها أم خالد، وسليمان بن برمك أمه امرأة من أهل بخارى، وكان ابن برمك وأم القاسم من امرأة أخرى بخارية أيضاً. ولما فتح عبد الله بن عامر بن كرز خراسان أنفذ قيس بن الهيثم حتى قدم مدينة بلخ وقدم بين يديه عطاء ابن السائب فدخل بلخ وخرّب النوبهار^(١)، وقال بعض الشعراء بذكر نوبهار

أوحش النوبهار من بعد جعفر ولقد كان بالبرامك يعمر
قل ليحيى: أين الكهانة والسحر ر وأين النجوم عن قتل جعفر
أنسيت المقدار أم زاغت الشم س عن الوقت حين قمت تقدر
ويضيف الحموي عن لسان أبو بكر الصولي، فيقول: كان برمك يعمر
النوبهار ويقوم به، وهو اسم لبيت النار الذي كان ببلخ يعظم قدره بذلك، فصار
ابنه خالد بن برمك بعده، فقال أبو الهول الحميري يمدح الفضل بن الربيع ويهجو
الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي:

فضلان ضمهما اسم	وشتت الأخبار
آثار فضل الربيع	مساجد ومنار
وفضل يحيى ببلخ	آثاره النوبهار
وما سواه إذا ما	أثيرت الآثار
بيت يوحد فيه	ويعبد السجبار
وبيت شرك وكفر	به تعظم نار

ويرد القزويني^(٢) باختصار ما ذكره الحموي، مشيراً إلى أن النوبهار هو أعظم بيت من بيوت الأصنام. ويوجز الحميري ما رواه المسعودي، واصفاً النوبهار بأنه بيت نار بناه منوشر الهندي بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وأن على بابه

(١) هذا ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان ص ٥٧٥ - ٥٧٦.

(٢) القزويني: آثار البلاد ص ٣٣١.

«كتابة بالفارسية: قال بيوراسف: أبواب الملوك تحتاج إلى خصال: عقل وصبر ومال، وتحت هذه الكتابة مكتوب بالعربية: كذب بيوراسف، الواجب على الحر إذا كان معه واحدة من هذه الخصال ألا يلزم باب السلطان»^(١).

وبينما يقول المقدسي إن البرامكة كانوا «ممن يقولون البهار وبيت النار»^(٢)، فإن ابن الفقيه يقول: «إن نوبهار تعبد فيه الأوثان وليس بيتاً من بيوت النار»^(٣).

نرى مما تقدّم أن المقدسي والمسعودي وابن خلكان والحميري يجعلون من معبد النوبهار بيتاً من بيوت النار، وأن ابن الفقيه والقزويني يجعلان منه أحد بيوت الأصنام، بينما ذكر ياقوت أن النوبهار بيت من بيوت الأصنام والنار في آن واحد.

وفي هذا الصدد يقول سوردال^(٤) (Sourdel): إن ما جاء في وصف النوبهار عند الجغرافيين العرب^(٥)، لا يطابق ما هو معروف عن هيكل الفار، بل على العكس فإنه يذكر بالصفات المميزة لمعبد بوذي كالذي يشير إليه البلاذري^(٦) في المسند.

وفي القرن السابع لميلاد المسيح زار هذا المعبد حاج صيني يدعى هوان شانج (Hiuan-Tsange) ووصفه في كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية»^(٧)، فقال: إن كلمة نوبهار التي من المستبعد أن تكون كلمة فارسية تعني «الربيع الجديد» كما يزعم بعض الكتاب^(٨)، هي اسم مشتق من كلمتين

(١) الحميري: كتاب الروض المعطار ص ٥٨٤ – ٥٨٥.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٤.

(٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٣٢٢.

(٤) Sourdel: *Le Vizirat Abbaside* I. p. 130

(٥) أمثال: ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٠٧ – ٣٠٨؛ القزويني: آثار البلاد ص ٣٣١ وغيرهم.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص ٦١٧ – ٦١٨.

(٧) — *Mémoires sur les contrées occidentales*, trad. Stanislas Julien vol. I, p. 30 – 32.

(٨) يقصد بذلك ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٠٧.

سنسكريتيتين هما: «نفا» (Nuova) و«فهارا» (Vihari)، ومعناهما «المعبد الجديد»، إشارة إلى معبد بوذي. وهذا ما أشار إليه بارتولد (Barthold) في أحد أبحاثه عندما قال: «دون بذل عناء يظهر أن الأمر يتعلق، في الحقيقة بمعبد»^(١).

والأحاديث التي تناولت نسب هذه الأسرة لم تقف عند هذا الحد، بل تعدت إلى أن بعض المصادر القديمة ترجع خالد بن برمك إلى أصل عربي، مستندة في ذلك إلى ما رواه الطبري في حديثه عن حملة قتيبة بن مسلم على الخارجيين عن طاعته في بلخ عام ٧٠٥/٨٦، الذي جاء فيه: «وقد قيل إن قتيبة أقام قبل أن يقطع النهر في هذه السنة عن بلخ لأن بعضها كان منتقضاً عليه، وقد ناصب المسلمين، فحارب أهلها، فكان ممن سبى امرأة برمك أبي خالد بن برمك، وكان برمك على النوبهار، فصارت لعبد الله بن مسلم الذي يقال له الفقير أخي قتيبة بن مسلم، فوقع عليها وكان به شيء من الجذام. ثم إن أهل بلخ صالحوها من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة، فأمر قتيبة برد السبي، فقالت امرأة برمك لعبد الله بن مسلم: يا نازي إني علقت منك وحضرت عبد الله بن مسلم الوفاة فأوصى أن يلحق به ما في بطنها وردت إلى برمك»^(٢).

وقد انتقدت دائرة المعارف الإسلامية هذه الرواية، فقالت: إنها من وضع أبناء عبد الله بن قتيبة لتقريب البيت العربي من البرامكة أصحاب الحظوة عند الخلفاء.

وهذا التناقض في المصادر والمراجع لا يرشدنا إلى الجزم برأي محدّد حول نسب هذه الأسرة، ولكن مهما يكن من أمر فإننا نقول: إن البرامكة أسرة فارسية عريقة ذات شأن عظيم، ينسبون إلى جدّهم (برمك)، الذي كان رجلاً عالمياً في الطب والتنجيم ومتولياً سدانة النوبهار ببلخ، وقد حظي الكثير من رجالها بمنزلة عالية عند الخلفاء العباسيين.

— BARTHOLD, in EI⁹. S. *Baramakides*. (١)

(٢) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٢٤ - ٤٢٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٢٤.

وتدور الروايات العديدة حول تاريخ البرامكة في العهود الأولى للإسلام وحول اعتناقهم الدعوة وشهرتهم في العصر الأموي .

بعض الروايات لا تستطيع أن تجزم بإسلام برمك^(١)، والبعض منها تذكر أن البرامكة كانوا على دين المجوس، ثم أسلم منهم من أسلم وحسن إسلامهم^(٢). وحسب البعض كان خالد الأول، الذي اعتنق الإسلام وتبعه أخسواه الحسن وسليمان^(٣). وحسب البعض الآخر اعتنق برمك الدعوة منذ عهد الخليفة عثمان، وتعرض لعداوة طرخان ملك الترك^(٤)، وأنه (أي برمك) عالج الأمير مسلمة بن عبد الملك وشفاه من مرض ألمَّ به^(٥)، كما أنه كُلف من قبل والي أسد بن عبد الله بإعادة بناء مدينة بلخ التي كانت قد ضربت^(٦).

وعلى الرغم من ذلك، فإننا — حسب رأي ل. بوفّا (L. Bauvat) — لا نجرؤ على القول أن «برمك وابنه خالد، نظراً لمواهبهم ولغناهم، مارسا تأثيراً كبيراً في بلاط الخلفاء الأمويين»^(٧).

ويبدو أن خالد بن برمك، الذي ولد في أيام الدولة الأموية سنة ٧٠٩/٩٠^(٨)، وقد نشأ على الإسلام (يتبين ذلك من اسمه) حتى بلغ في الفصاحة مرحلة سامية، كما يبدو أنه كان في خدمة الدعوة العباسية^(٩).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢١٩.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٧.

(٣) بوفّا ص ٣٢ — ٣٣ عن Sourdel: *le Vizirat Abbaside I*, p. 132.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ج ٥ ص ٣٠٨.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ٤٢٦.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٧ ص ٤١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ١٣٨.

(٧) Sourdel: *Le Vizirat Abbaside I*, p. 132.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢.

(٩) فروخ: تجديد التاريخ ص ١٧١.

ويبدو أن اسم برمك قد أطلق على أناس عديدين لا ينتمون إلى الأسرة البرمكية، قد يكون بعضهم من عتقاء البرامكة أو مواليتهم، مثل: المغنيّة دنانير البرمكية، ومحمد بن الجهم البرمكي^(١) (المترجم المشهور من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية)، والمنجّم البرمكي الذي ذكره الطبري^(٢) (في أخبار سنة ١٦٣هـ)، وإبراهيم بن عمر البرمكي الذي ذكر بأن سلفه كانوا يسكنون قرية تُسمى البرمكية فنُسبوا إليها^(٣). وقد جاء في معجم البلدان^(٤) أن لقب (البرامكة) أطلق (على المحلة أو القرية) نسبة إلى آل برمك الوزراء ومنها كثير من الناس لا مجال لذكرهم هنا.

* * *

-
- (١) ابن النديم: الفهرست ص ٣٠٥.
(٢) الطبري: التاريخ ج ٨ ص ١٤٦ - ١٤٧.
(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٦ ص ١٣٩.
(٤) ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٣٦٧.

الفصل الأول
البرامكة في إيطارهم السياسي

١ - خالد بن برمك

٢ - يحيى بن خالد

٣ - أبناء يحيى

البرامكة في إطارهم السياسي

جاء الإسلام فساوى النبي ﷺ بين جميع المسلمين على اختلاف جنسياتهم. وبعد وفاته اقتدى به الخلفاء الراشدون الذين اشتهروا بالزهد والتقوى والعدل، ولكن ما إن قبض الأمويون على الخلافة حتى تسلطوا واستبدوا وتسلحوا بالكثير من الجاهلية التي حاول الإسلام تصفيتها، خصوصاً اعتمادهم على العصبية - إذ تعصبوا للعرب واحتقروا غير العرب من الموالي وأهل الذمة - وتعصبهم هذا حمل الموالي (كان أكثرهم من الفرس) على نصرة كل ناظم على دولة بني أمية، فما إن قام بنو العباس لطلب الخلافة حتى أيدهم الفرس ونصروهم في دعوتهم - التي ارتكزت على العداء للأمويين والموالاة لخط آل البيت - وسلموا إليهم أزمّة الخلافة بقيادة أبي مسلم الخراساني فأصبح الفرس أصحاب الدولة وحمايتها واستأثروا بشؤون الخلافة. . وأوصى الخلفاء بإكرامهم، وخير دليل على ذلك ما جاء في وصية المنصور لابنه المهدي، إذ خاطبه قائلاً: «وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم، فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك، وما أظنك تفعل. وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك، وأن لا تخرج محبتك من قلوبهم، وأن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مُسيئتهم وتكافئهم عما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده، وما أظنك تفعل»^(١). فاستخدم الخلفاء رجال الفرس في بلاطهم وقدّموهم في مناصب الدولة، منهم الوزراء والعمال والكتّاب وغير ذلك.

وترقى الفرس إلى أعلى المراتب عند العباسيين في أيام البرامكة، حيث تولوا الوزارة التي كانت تعتبر من أعلى المناصب. وأول من اتصل بالعباسيين من البرامكة هو خالد بن برمك، الذي نبغت الدولة البرمكية في أيامه وامتدت إلى أن انقضت في أيام الرشيد^(٢).

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩.

(٢) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ١٥٦.



خالد بن برمك

كان خالد بن برمك من رجال الدولة العباسية، فاضلاً جليلاً كريماً حازماً يقظاً^(١)، لمع اسمه عندما أظهر بسالة وبراعة حربية في قيادته لبعض الجيوش الخراسانية تحت لواء أبي مسلم^(٢)، ونظم الخراج وتقلد الغنائم وقسمها في جيش قحطبة بن شبيب قائد أبي مسلم الخراساني^(٣).

-
- (١) ابن الطقطقي: الفخر في الأدب السلطانية ص ١٥٦.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٧ ص ٣٨٩ - ٣٩٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٣٨٦.
(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتّاب ص ٨٧. ولم يكن خالد مع قحطبة يتولى الخراج ويقسم الغنائم بين الجند فحسب، ولكنه كان ذا رأي مطاع لخبرته وفطنته وذكائه. فقد روى الجاحظ أن خالد بن برمك بينما هو على سطح من سطوح القرى مع قحطبة وهم يتغدون وذلك في بعض منازلهم حين فصلوا من خراسان إلى الجبل. قال: وبين قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيامٍ وليالٍ، قال: فبينما خالد يتغذى معه وذلك حين نزلوا وبهم كلال المسير وحين علقوا على دوابهم ونصبوا قدورهم وقربوا سفرهم، قال: فنظر خالد إلى الصحراء فرأى أقاطيع الظباء قد أقبلت من جهة الصحارى، حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة أيها الأمير! نادِ في الناس: «يا خيل الله اركبي»، فإن العدو قد حثَّ إليك السير وغاية أصحابك أن يسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل. فقام قحطبة مذعوراً، فلما لم ير شيئاً يروعه ولم ير غباراً، قال لخالد: ما هذا الرأي؟ قال: أيها الأمير لا تشاغل بي وبكلامي، ونادِ في الناس. أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت فارقت مواضعها حتى خالطت الناس؟! إن وراءها جمعاً عظيماً! قال: فوالله ما ألجموا وأسرجوا حتى رأوا ساطع الغبار ولا تلمسوا وتسلحوا حتى رأوا الطليعة. فما التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته. لقد كان ذلك =

وأرسل مع المسيب بن زهير إلى دير قنّى لإدارة هذا الإقليم^(١)، ثم أمره الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح على ما كان يتقلد من الغنائم. وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند^(٢). ويظهر أن خالد كان على علاقة وثيقة بأبي العباس السفاح، فيُروى أنَّ أبو العباس قد دفع ابنته ريطة إلى خالد بن برمك حتى أرضعتها زوجته أم خالد بنت يزيد بلبان بنت لخالد تدعى أم يحيى، وأرضعت أم سلمة زوجة أبي العباس أم يحيى بنت خالد بلبان ابنتها ريطة^(٣).

وقد قال أبو العباس يوماً لخالد بن برمك: لم ترضَ بابن برمك حتى استعبدتني! فوجم من ذلك وقال: أنا عبد أمير المؤمنين. فقال له: كانت ريطة وأم يحيى في فراش واحد فتكشفتا فرددت عليهما اللحاف، فقبّل يده وشكر له^(٤). وبعد مقتل حفص بن سليمان أبو سلمة الخلال الملقب بوزير آل محمد، استوزر السفاح خالد بن برمك^(٥)، وقد حلّ محل الوزير^(٦)، وبذلك يكون خالد جد البرامكة^(٧) أول من وُزّر من آل برمك^(٨)، وكان له شقيقان: الحسن وسليمان، أبناء برمك، ولم يرد ذكر لهما في المصادر^(٩). وقيل إن كل من استوزر بعد أبي سلمة

= الجيش اصطلم. الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٤٢٣ - ٤٢٤؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٢ ص ١١٧؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٠.

- (١) الطبري: تاريخ ج ٧ ص ٤١٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٤٠٦.
- (٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٩.
- (٣) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٨؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٩.
- (٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٩؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ١٥٦ - ١٥٧.
- (٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٠؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٦؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٣٦.
- (٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٩.
- (٧) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٦.
- (٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢.
- (٩) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٥٦.

كان يتجنب أن يُسمى وزيراً تطيراً مما جرى على أبي سلمة، ولقول من قال:
 إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيراً^(١)
 واتصلت وزارة خالد في عهد المنصور حيث ولّاه على الري وطبرستان
 ودنباوند، فأقام بها سبع سنين وكان مقام خالد بطبرستان^(٢) فأحمد نيران ثورة هامة
 فيها، وذكر أن أهل طبرستان بعد هذا الانتصار نقشوا على دروعهم صورة خالد
 وسلاحه^(٣).

ثم ولّاه المنصور الموصل بعد أن أشار عليه بذلك المسيب بن زهير^(٤)،
 فأحسن خالد إلى الناس وقهر المفسدين وكفّهم، وهابه أهل البلد هيبة شديدة مع
 إحسانه إليهم^(٥). وقد ذكر عن أحمد بن محمد بن سوار الموصلي أنه قال: «ما هبنا
 قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى فيه جبرية ولكن هيبة
 كانت له في صدورنا»^(٦).

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٦، وقد ذكر اليعقوبي في «تاريخه» بأن
 سليمان بن مهاجر قال هذا البيت لما قتل أبو سلمة: اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٣٥٢ -
 ٣٥٣.

وقد صور التنوخي هذه الحالة، (أي تجنب اسم الوزير) في كتابه «نشوار المحاضرة» عندما
 ذكر عن ابن عياش أنه «رأى في شارع الخلد قرداً معلماً يجتمع عليه، فيقول له القرد:
 تشتهي أن تكون بزازاً؟ فيقول: نعم، ويومي برأسه فيقول: تشتهي أن تكون عطاراً؟
 فيقول: نعم برأسه، فيعدد الصنائع عليه، فيومي برأسه، فيقول له في آخرها: تشتهي أن
 تكون وزيراً؟ فيومي برأسه - لا - ويصيح ويعدو من بين يدي القرد، فيضحك الناس:
 التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٣٦.

(٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ص ٣١٤.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٥٥؛ البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٣٢٥؛ ابن الأثير:
 الكامل ج ٦ ص ١٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٨٥ - ٥٨٦.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٥٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٦.

وكان لخالد البرمكي يد عظيمة على المنصور في خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ونقل البيعة للمهدي بن المنصور، فعندما عجز المنصور في عام ١٤٧هـ عن تنحية عيسى من ولاية العهد لمبايعة ابنه المهدي وجعله ولي عهد من بعده، استعان (أي المنصور) بخالد بن برمك لإقناع عيسى بالموافقة على البيعة. ويحدثنا الطبري عن ذلك في حوادث سنة سبع وأربعون ومائة، فيقول: أراد أبو جعفر أن يخلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ويقدم عليه المهدي، فأبى أن يجيبه إلى ذلك، وأعيا الأمر أبا جعفر فيه فبعث إلى خالد بن برمك فقال له: ظمّ يا خالد فقد ترى إقناعه من البيعة للمهدي وما قد تقدمنا به في أمره فهل عندك حيلة فيه قد أعيتنا وإياه الحيل، وضل عنا الرأي! فقال: نعم يا أمير المؤمنين تضم إليّ ثلاثين رجلاً من كبار الشيعة مما تختاره. قال: فركب خالد بن برمك وركبوا معه، فساروا إلى عيسى بن موسى وأعطوه رسالة أبي جعفر المنصور، فقال: ما كنت لأخلع نفسي وقد جعل الله عز وجل الأمر لي، فأداره خالد بكل وجه من وجوه الحذر والطمع، فأبى عليه، فخرج خالد عنه وخرجت الشيعة بعده فقال لهم خالد: ما عندكم في أمره؟ قالوا: نبلغ أمير المؤمنين رسالته ونخبره بما كان منا ومنه. قال: لا، ولكننا نخبر أمير المؤمنين أنه قد أجاب ونشهد عليه إن أنكره. قالوا له: إفعل، فإننا نفعل، فقال لهم: هذا هو الصواب، وأبلغ أمير المؤمنين فيما حاول وأراد.

فساروا إلى أبي جعفر وخالد معهم فأعلموه أنه قد أجاب فأخرج التوقيع بالبيعة للمهدي وكتب بذلك إلى الآفاق، قال: وأتى عيسى بن موسى لما بلغه الخبر أبا جعفر منكراً لما أدّعي عليه من الإجابة إلى تقديم المهدي على نفسه وذكره الله فيما قد همّ به فدعاهم أبو جعفر، فسألهم، فقالوا: نشهد عليه أنه قد أجاب وليس له أن يرجع، فامضى أبو جعفر الأمر وشكر لخالد ما كان منه، وكان المهدي يعرف ذلك له ويصف جزالة الرأي منه فيه^(١).

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٩ - ٢٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٨٠.

وقد أبلى خالد بلاءً حسناً وهو في شيخوخته حين استولى في سنة ١٦٣هـ على (سمالو)، وهو أحد حصون الروم، إذ أرسله المهدي مع الرشيد حين وجهه لغزو الروم. ويخبرنا الطبري عن هذه المعركة في حوادث سنة ثلاث وستين ومائة، فيقول:

وجّه المهدي خالد بن برمك مع الرشيد وهو ولي العهد حين وجهه لغزو الروم، وتوجه معه الحسن وسليمان ابنا برمك وتوجه معه على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره يحيى بن خالد - وكان أمر هارون كله إليه - وصير الربيع الحاجب مع هارون يغزو عن المهدي، وكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان يشاورهما ويعمل برأيهما ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة وأبلاهم في ذلك الوجه بلاءً جميلاً، وكان لخالد في ذلك بسمالو أثر جميل لم يكن لأحد وكان منجمهم يسمى البرمكي تبركاً به ونظراً إليه^(١)، وتوفي خالد في سنة ١٦٣هـ^(٢).

* * *

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٤٦ - ١٤٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٦٠ - ٦١.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢.

يحيى بن خالد

بعد وفاة خالد بن برمك ظهر ابنه يحيى الذي كان سديداً صائب الآراء، حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الأمور^(١). فقربه المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ) إليه، وأصبحت العلاقة وثيقة بينهما بدليل أنه حين وُلد الفضل بن يحيى^(٢) في سنة ١٤٨هـ قبل ولادة الخيزران للرشيد بسبعة أيام، أرضعت الخيزران الفضل من لبان ابنها فكان الفضل بن يحيى أخاً للرشيد من الرضاع^(٣)، وفي ذلك يقول سلم الخاسر:

أصبح الفضل والخليفة هارون رضيحي لبان خير النساء^(٤)

وقال مروان بن أبي حفصة:

-
- (١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٨.
 (٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٣٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٨٥، وقد ذكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٣٢؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٦ بأن ولادة الفضل بن يحيى كانت لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائة.
 (٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٣٦؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٣٤؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٨٥ - ٥٨٦.
 (٤) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٨٦.

كفى لك فخراً أن أفضل حرة غدتك بشدي والخليفة واحد^(١)

وفي السنة الثالثة من خلافته (أي في سنة ١٦١ هـ) عهد المهدي إلى يحيى البرمكي تربية ابنه هارون وتأديبه^(٢)، وفي سنة ١٦٣ هـ ولّى ابنه هارون المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل يحيى على ديوان رسائله^(٣).

وبعد وفاة المهدي تولّى الخلافة ابنه الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)، فأبقى يحيى على وظائفه السابقة^(٤). وخلال مدة حكمه القصيرة (حوالي السنة) حاول الهادي نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر لتبقى الخلافة في نسله، وتابعه على ذلك القوّاد، منهم يزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى ومن أشبههم، فخلعوا هارون وبايعوا لجعفر بن موسى ودسّوا إلى الشيعة، فتكلّموا في أمره وتنقّصوه (كذا) في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألاّ يسار قدام الرشيد بحربه فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه^(٥).

ولكن يحيى بن خالد لم يرضَ بهذه المبايعة، بل بقي على إخلاصه للرشيد وثبت في المحافظة على حقه في ولاية العهد. ولم يكتفِ بذلك، بل حرّض الرشيد على عدم التنازل عن هذا الحق، فأخبر بعضهم الهادي بأنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى وتهدّده بالقتل وآرمه بالكفر. فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد^(٦).

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٣٤؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٤٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٥٦.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٤٨؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٦١.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٨٨.

(٥) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٠٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٦.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٨.

وذكر أبو حفص الكرمانى أن محمد بن يحيى بن خالد حدثه، قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلاً، فأيس من نفسه، وودّع أهله، وتحنّط وجدّد ثيابه، ولم يشك أنه يقتله، فلما أدخل عليه قال: يا يحيى ما لي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته؟ قال: فلم تدخل بيني وبين أخي وتفسده عليّ! قال: يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيرني المهدي معه وأمرني القيام بأمره فقممت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فأنتهيت إلى أمرك. قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. قال: فسكن غضبه^(١).

وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع، فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء المريء، فهما يسعاني وأعيش مع ابنة عمي! وكان هارون يجد بأم هارون وجداً شديداً، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع، ومنعه من الإجابة^(٢).

وقد حدث الهادي يحيى البرمكي في خلع الرشيد وإحلال ابنه جعفر مكانه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. قال: صدقت ونصحت^(٣).

غير أن الهادي لم يقبل بهذه النصيحة، بل رجع ثانية إلى فكرة تنحية أخاه عن ولاية العهد والمبايعة لابنه جعفر، فأحضر يحيى البرمكي وحبسه وعزم على قتله. وفي هذا الصدد ذكر اليعقوبي^(٤) في «تاريخه»: أن موسى الهادي أخذ

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٨؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٦.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٨.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٦ - ٩٧؛ الجهشيارى:

الوزراء والكتاب ص ١٧٠، مع تغيير طفيف في النص.

(٤) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٠٦.

يحيى بن برمك فحبسه وأشرف عليه بالقتل عدة مرات . ويضيف اليعقوبي قائلاً: حدثني بعض المشايخ عن يحيى بن خالد، قال: حبسني موسى بسبب الرشيد، وتربيتي إياه ومكاني معه، وكان الرشيد دفع إلينا مولوداً في الخرق فغذته ثدي نساثن ورُبِّي في حجورنا، فقال: بلغني أنك ترضى هارون للخلافة ونفسك للوزارة، والله لآتين على نفسه ونفسك قبل ذلك! وحسني في بيت ضيق لا أقدر أن أمدُّ رجلي فيه، فأقمت أياماً، فأنا ليلة في حبسي على تلك الحال، إذ بالأبواب تُفتح، فقلت: تذكّرني فأراد قتلي! وسمعت كلام الخدم فارتعت لذلك، ففتح عليّ الباب وأنا أتشهد، فقل لي: هذه السيدة، يعنون الخيزران، فخرجت فإذا بها واقفة على الباب، فقالت: إن هذا الرجل قد خفت منذ الليلة وأحسبه قد قضى فتعال وانظروا! فازداد جزعي وطامتي، وقالت كما أقول، فجئت فوجدته محول الوجه إلى الحائط وقد قضى فمضيت إلى هارون حتى أخرجته من الموضع الذي كان فيه محبوساً فأصبح القواد فبايعوا وأصبحت أدبر الملك.

ويروي الطبري عن ذلك في أخبار سنة سبعين ومائة، فيقول: أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد على ما أراه عليه من خلع الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعة: إن عندي نصيحة. فدعا به، فقال: يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمر — أسأل ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم! قال: والله ما أظن ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليك أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك؟ فقال له: نبهتني يا يحيى — قال: وكان يقول: ما كلّمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى — قال له: لو أن الأمر لم يُعقد لأخيك لما كان ينبغي أن تعقده له، فكيف بأن تحله عنه، وقد عقده المهدي له! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر، وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده. قال: فقبل الهادي قوله ورأيه وأمر بإطلاقه^(١).

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٩ — ٢١٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٧.

ولكن الهادي عزم على خلع هارون، فضيَّق عليه وكاد أن يوفق في مسعاه لولا نصيحة يحيى البرمكي للرشيد بالخروج إلى الصيد تهرباً من ضغوط أخيه حيث غاب مدة أربعين يوماً^(١).

وجاء في الجهشيارى^(٢): أن الهادي بتحريض من قواد الجند - الذين طالبوه بخلع أخيه من ولاية العهد ويجعلها لابنه جعفر - دعا يحيى ذات ليلة وقال له: قد أفسدت على أخي، والله لأقتلنك: فقال إبراهيم بن ذكوان الحراني: يا أمير المؤمنين ليحيى عندي أياذ أحب أن أكافئه عليها، فأحب أن تهبه لي الليلة. فقال: وما الدرك في هذا وأنا على قتله؟ قال: فتهبه لي الليلة وتحبب فيه وأنت في غد أعلم. فأجابه إلى ذلك وأمر بحبسه، ولكن الأقدار شاءت أن يتوفى الهادي^(٣) في نفس تلك الليلة قبل تنفيذ مراده.

وجاء في الطبري^(٤)، في حوادث سنة سبعين ومائة، أنه لما اشتد مرض الهادي وثقل، اجتمع القوم الذين كانوا بايعوا لجعفر ابنه، فقالوا: إن صار الأمر إلى يحيى قتلنا ولم يستبقنا فتآمروا على أن يذهب بعضهم إلى يحيى بأمر الهادي فيضرب عنقه، ثم قالوا: لعل أمير المؤمنين يفيق من مرضه فما عذونا عنده! فأمسكوا. ثم بعث الخيزران إلى يحيى تعلمه أن الرجل لما به وتآمره بالاستعداد لما ينبغي وكانت المستولية على أمر الرشيد وتدير الخلافة إلى أن هلك فأحضر

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢١٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٧ - ٩٨؛ المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٩٢.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٣) عن سبب وفاة الهادي يقول الطبري: حدثني بعض الهاشميين أن سبب موت الهادي كان أنه لما جد في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران على هارون منه دسّت إليه من جواربهما لما مرض من قتله بالفم والجلوس على وجهه ووجهت إلى يحيى بن خالد: أن الرجل قد توفي فاجدد في أمرك ولا تقصّر: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢١٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٩٨ - ٩٩.

الكتاب وجمعوا في منزل الفضل بن يحيى فكتبوا ليلتهم كتباً من الرشيد إلى العمال ب وفاة الهادي وأنهم قد ولّاهم الرشيد ما كانوا يلون . فلما مات الهادي أنفذوها على البرد .

وبعد وفاة الهادي الذي لم يُطلّ عهده – إذ توفي بعد سنة واحدة من استلامه الحكم – تولّى أخوه الرشيد الخلافة من بعده ، وكان يحيى أول من بشره بها وسلّمه الخاتم وهونائم^(١) ، وكانت ليلة يموت فيها خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة ، وذلك في سنة سبعين ومائة^(٢) ، وقد هُنا الشاعر مروان بن أبي حفصة والدته الخيزران بالخلافة ، فقال :

يا خيزران هناك ثم هناك إن العباد يسوسهم إبنك^(٣)

مما تقدّم نرى أن الهادي لم يتمكن من تحقيق غايته في ولاية العهد ، ويرجع الفضل في ذلك – كما لاحظنا – إلى يحيى البرمكي ، الذي حاور الهادي مدافعاً عن حق الرشيد في ولاية العهد ، متحملاً في سبيل ذلك العذاب القاسي والإيذاء الشديد . وكان لذلك المسعى وقع حسن في نفس الرشيد ، إذ اعتبره من أعظم أيادي يحيى بن خالد عنده^(٤) . فالخليفة الجديد لم ينسَ جهود يحيى المضنية التي أوصلته إلى عرش الخلافة ، بل عرف له حقه وكان يعظّمه وإذا ذكره قال : «أبي» ، وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه^(٥) ، وقلّده الوزارة قائلاً : «يا أبت ، أنت

(١) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٠٦ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٧٥

(٢) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢١٢ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٧٥ ؛ الأتليدي : أعلام الناس ص ٧٨ .

(٣) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٢٣ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ ؛ المسعودي : مروج ج ٤ ص ١٨٦

(٤) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٩ .

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٢٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١ .

أجلستني في هذا المجلس بركتك ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلّدتك الأمر ودفع خاتمته إليه»^(١). وبتوليه الوزارة توصل عدد من أفراد أسرته إلى أسمى الدرجات: إنها فترة السلطة البرمكية^(٢).

وروى الطبري^(٣) في حوادث سنة سبعين ومائة أنه في هذه السنة قلّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارة وقال له: «قد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى.. ودفع إليّ خاتمته». ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم ترَ أن الشمس كانت سقيمة فلمّا ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها^(٤)
وفي سنة ١٧٨هـ فوّض الرشيد إلى يحيى البرمكي جميع أموره^(٥): يفعل ما يريد، كل الأمور بيده، يعزل ويعيّن، يجمع ويفرّق كما يشاء.

وبذلك أصبح الوزير يحيى وكأنه الحاكم الفعلي الذي يتمتع بصلاحيات

-
- (١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٩٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧، مع تغيير طفيف في النص.
- (٢) الأصبهاني: مقاتل الطالبين ص ٤١٢.
- (٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٧ - ١٠٨؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧، مع تغيير طفيف في النص.
- (٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١. وقد وردت هذه الأبيات في الأغاني على الشكل التالي:
- ألم ترَ أن الشمس كانت مريضة فلمّا ولي هارون أشرق نورها
فألّبت الدنيا جمالاً بوجهه فهارون واليها ويحيى وزيرها
- الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ٦٩؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ٧٨، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ.
- (٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٥٤.

مطلقةً، فقام بإدارة أمور الحكم خير قيام، وسدَّ الثغور وجبى الأموال وأظهر رونق الخلافة^(١)، فعظم شأنه وعمل برأيه. ففي تاريخ السيوطي قال: «رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلي الفرما، فقال له يحيى بن خالد البرمكي: كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام وتدخل مراكبهم إلى الحجاز فتركه»^(٢). وتوخَّى الناس عطفه ورضاه، فهذا الشاعر إبراهيم بن سيابة يكتب إليه مستعطفاً لينال رضاه، لأنه كان قد أنكر منه شيئاً، فيقول:

«للأصيل الجواد، والواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم الباذل، اللباب الحلاحل من المستكين المستجير، البائس الضرير، فلإني أحمد الله ذا العزة القدير إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة:

أما بعد: فاغنم واسلم، واعلم إن كنت تعلم أنه من يرحم يُرحم، ومن يحرم يُحرم، ومن يحسن يغنم، ومن يصنع المعروف لا يُعَدَم، وقد سبق إليّ، تغضبك عليّ، وأطراحك لي، وغفلتك عني، بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحي صحيح، ولا بميت مستريح، فررت بعد الله منك إليك، وتحملت بك عليك، ولذلك قلت:

أسرعت بي حثاً بك خطائي فأناخت بمذهب ذي رجاء
راغب راهب إليك يرجي منك عفواً عنه وفضل عطاء
ولعمري ما من أصرّ ومن ثا ب مقراً بذنبه بسواء

فإن رأيت — أراك الله ما تحب وأبقاك في خير — أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعي وتخشُّعي وتذلُّلي، وتخضُّعي، فإن ذلك ليس مني بنحيزة ولا طبيعة، ولا على وجه تصنع ولا تجذُّع، ولكنه تذلل وتخشع وتضرُّع من غير ضارع ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرُّع له عزّ ورفعة وشرف»^(٣).

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٨.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٨٦؛ الحميري: الروض المعطار ص ٢٥٨.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٩٣.

ولكن على الرغم من هذه المنزلة العظيمة التي وصل إليها يحيى، فإننا لا نستطيع أن نجزم عن المصادر التي بين أيدينا أن يحيى أشرف بنفسه على شؤون الدولة باعتباره وزيراً، وذلك لأن الرشيد خلال السنوات الأولى من حكمه ترك - في الواقع - ممارسة السلطة لأمه ولوصيه، إذ كان على يحيى أن يعرض شؤون الرعية على الخيزران أم الخليفة ويورد ويصدر عن أمرها^(١)، لذلك فإذا ما لاحظنا بعض النصوص^(٢) التي تشير إلى سلطة حكومية ليحيى موكلة بتفويض واضح من قبل الخليفة، فلا يبدو أن هذا التأكيد يطابق الحقيقة تماماً، وهذا القول يحملنا إلى التساؤل عن الصلاحيات التي كان يتمتع بها يحيى.

في الواقع منذ البداية كان ليحيى إدارة الدواوين كلها مع الوزارة سوى ديوان الخاتم^(٣). وإذا صدّقنا ما جاء في الطبري، فإن الختم كان موكلاً إلى جعفر بن محمد بن الأشعث^(٤)، ثم في بداية سنة ١٧١ هـ أخذه الرشيد منه ودفعه إلى أبي العباس بن سليمان الطوسي، العائد من خراسان^(٥)، ثم لم يلبث أبو العباس يسيراً حتى توفي فعادت هذه الوظيفة إلى يحيى بن خالد الذي جمع، كما جاء في الطبري «الوزارتين»^(٦).

وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرّخ باسم يحيى بن خالد، ولم تكن تنفذ من قبل إلا عن الخليفة^(٧).

ومنذ أن تقلّد يحيى بن خالد الوزارة ظهر ما سمّاه الفخري^(٨) بدولة

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٤؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٠٨.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٣، ٢٥٦؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٣٥.

(٥) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٣٥.

(٦) نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٣٥.

(٧) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٨.

(٨) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ١٩٧.

بني برمك، التي عرّفها بقوله: «إعلم أن هذه الدولة كانت غرّة في جبهة الدهر، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدّت إليها الرحال، ونيطت بها الآمال، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الأداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة. . وهم ملجأ اللهيّف، ومعتصم الطريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما نقدتم بني برمك من رائقين وعاد
وقد لازم يحيى الرشيد وقام بإنزاله بصحبة أولاده^(١)، ولا غلّو في ذلك طالما
أن الرشيد كان يطلب منه عدم مفارقتة حتى في أسفاره، إذ خاطبه مرة بقوله:
«يا أبت، لا تفجعني بك وكن معي في هذا الوجه لأنس بك، فعمد على الشخص
معه»^(٢).

وجاء في الطبري^(٣): أن يحيى قاد عملية احتواء ثورة عبدويه في أفريقيا سنة
١٧٨هـ، ونجح في جعل المتمرّد يقبل عهد الأمان بعد أن وجّه إليه يقطين بن
موسى ومنصور بن زياد كاتبه.

* * *

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٠٧.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساويء ص ١٩٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٦.



أبناء يحيى

مكث يحيى في الحكم مدة سبع عشرة سنة^(١)، يعاونه في تصريف شؤون الخلافة أبنائه الأربعة: الفضل، وجعفر، ومحمد وموسى. وقد وصفهم إبراهيم الموصلي، فقال: أما الفضل فيرضيك بفعله، وأما جعفر فيرضيك بقوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد، وأما موسى فيفعل ما لا يجد^(٢).

وذكر البيهقي أن ليحيى ابناً يدعى إبراهيم كان يُسمى دينار بني برمك لجماله وحسنه^(٣)، توفي وسنه تسع عشرة سنة، ووجد عليه يحيى واغتم به^(٤).

وإذا لم يُقدّر لولدي يحيى: محمد وموسى، أن يلعبا دوراً مهماً إذ كتب محمد لمحمد ابن الرشيد على الزمام^(٥)، وكان موسى قائداً عسكرياً مشهوراً بشجاعته^(٦)، فقد تبوأ ابنه الآخران: الفضل وجعفر، أعلى المناصب وأعظمها،

(١) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢٩؛ الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٥؛ أبو الفداء: المختصر ج ٣ ص ٢٤.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٨؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

(٣) البيهقي: المحاسن والمساوى ص ١٧؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٩.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٩.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٣.

(٦) ذكر الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين النزارية واليمانية، فولّى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام وضم إليه من القواد

إذ ولَّى الرشيد جعفرًا المغرب كله من الأنبار إلى أفريقية، في سنة ست وسبعين ومئة، وقلَّد الفضل المشرق كله، من النهروان إلى أقصى بلاد الترك^(١)، كما لوحظ أن لقب الوزير الذي كان يعني يحيى^(٢) كان ينطبق أيضاً على الفضل^(٣)، وجعفر^(٤).

والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة، فهرع إليها موسى وأقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥١.
وبالنسبة لوظائف موسى ابن يحيى بن خالد بن برمك وابنه عمران في خراسان والسند. راجع البلاذري: فتوح البلدان من صفحة ٦٢٤ إلى صفحة ٦٢٦، مع الإشارة إلى أن الطبري ذكر في حوادث سنة ١٩٦هـ أن عمران بن موسى دافع عن المدائن أمام جيش طاهر بن الحسين: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٤٣٧، كما أنه استعمل في سنة ٢١٦هـ نائباً لعامل السند: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٦٢٦.

- (١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٠.
- (٢) انظر شعر الموصلي المذكور سابقاً ص ١٨ وبيت عنان (وزير أمير المؤمنين) في كتاب طبقات الشعراء: ابن المعتز ص ٤٢١. وروايات عديدة في كتاب الجهشيارى: الوزراء والكتاب (أيها الوزير ص ١٨٧)، (وأصلح الله الوزير ص ٢٣٠)، وكذلك في كتاب الأغاني للأصبهاني (إلى باب الوزير يحيى بن خالد ج ٥ ص ٢٣)، (إلى الوزير ج ٥ ص ١٣٥)، ومن الملاحظ أن يحيى لا يحمل لقب وزير فقط، بل حمل أيضاً لقب أمير، وكان الأول الذي أمر من الوزراء الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧، (أصلح الله الأمير) البيهقي: المحاسن والمساوى ص ١٩٥.
- (٣) انظر كلام الأصمعي (أجب الوزير، أصلح الله الوزير وأعز الله الوزير): ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢١٣ - ٢١٥؛ (أيَّد الله الوزير): البيهقي: المحاسن والمساوى ص ٣٢٩. وفي بعض الروايات الأخرى كان يدعى غالباً بالأمير، انظر كتاب الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٣٧ - ٣٣٨؛ وكتاب البيهقي: المحاسن والمساوى ص ٢٠٠، (أصلح الله الأمير)، وصفحة ٤١٦ (أعز الله الأمير).
- (٤) شهادة مروان بن أبي حفصة (وزير) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٤٥؛ وشهادة أبيات أبو النّوّاس (ذاك الوزير): الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٥؛ وفي الأغاني (يرشد في الوزير): الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ٦٦.

(أ) الفضل بن يحيى :

وما لبث الفضل بن يحيى أن تقلّد الشرف كله (من النهر إلى أقصى بلاد الترك) في سنة ١٧٦هـ - وقد ذكرنا ذلك - حتى ظهر في هذه السنة^(١) يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن^(٢) بن علي بن أبي طالب في الديلم، فكثرت أنصاره واشتدت شوكته، فاغتمّ الرشيد لذلك ووجّه إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألفاً من جنوده. وبفضل جهود الفضل وإدارته الحكيمة، تمكّن من إخماد هذه الثورة باللين دون سفك دماء بعد أن اقتنع يحيى بقبول الصلح ووضع له من قبل الرشيد أماناً (حسب طلب يحيى)، كتبه الرشيد بخطه وبشهادة القضاة والفقهاء فسلم يحيى نفسه وحمله الفضل إلى الرشيد^(٣).

واختلفت الروايات حول مصير يحيى، فقد روى اليعقوبي في «تاريخه»^(٤): أن الرشيد أبقياه في السجن حتى وفاته، أو أن الموكل به منعه من الطعام أياماً فمات جوعاً. وأما الطبري^(٥)، فقد روى أنّ الرشيد اهتم به كثيراً وأمر له بالأموال الطائلة والأرزاق السنية. وكذلك الجهشيارى^(٦)، فقد روى بأن الرشيد لقيه بكل ما أحب وأسنى جائزته وأكثر بره وعطاءه وأنزله منزلاً سرياً. بينما ذكر الطقطقي^(٨) أن الرشيد لقيه في أول الأمر بكل ما أحب، ثم حبسه وأخيراً قتله بعد ظهور آية له عظيمة،

(١) يضع الجهشيارى سنة ١٧٢هـ كتاريخ لثورة يحيى في الديلم، الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩.

(٢) في كتاب الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩ (الحسين).

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩ - ١٩٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٢٥؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٤.

(٤) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٠٨.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٣.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٠.

(٧) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٠٢.

(٨) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ١٩٤.

وقال ابن الأثير^(١): إن الرشيد حبس يحيى إلى أن مات في الحبس. وكذلك قال ابن خلدون^(٢): إن الرشيد حبس يحيى إلى أن هلك في حبسه. . بينما قال آخرون^(٣): إن الرشيد حبسه في بغداد تحت إشراف البرامكة فأطلقوا سراحه دون استئذان الرشيد. وتصرفهم هذا كان من جملة الأسباب التي حملت الرشيد على التنكيل بالبرامكة فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فبعد نجاح هذه الخطة، استقبل الرشيد الفضل بن يحيى في بغداد وأكرمه إكراماً عظيماً^(٤). وتميّز الفضل بأخلاق جديّة صارمة وتمنع عن تعاطي المشروبات، وكان يقول: «لو علمت أن الماء ينقص من مروّتي لما شربته»^(٥). وقال الرشيد يوماً ليحيى: يا أبي! ما بال الناس يسمون الوزير الصغير جعفرأ بذلك؟ فقال يحيى: لأن الفضل يخلفني. وفي سنة ١٧٧ هـ سُمي الفضل والياً على خراسان^(٦)، فلما صار إليها أزال سيرة الجور وبنى الحياض والمساجد والعرباطات، وأحرق دفاتر البغايا، وزاد الجند والقوادر ووصل الزوار والكتاب^(٧)، فحسنت سيرته^(٨)، وأمر بهدم النوبهار فلم يقدر عليه لإحكام بنائه

-
- (١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٢٥.
(٢) ابن خلدون: تاريخ م ٣ ص ٢١٨.
(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٩؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥، ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٦.
(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٣؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٠؛ الأصبهاني: مقاتل الطالبين ص ٤٧١.
(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٣؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٤.
(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ٢٠٥.
(٧) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٤٠؛ ابن خلّكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٩؛ وكما أشرت سابقاً فإن الجهشيارى يشير إلى الفضل كوالد على «المشرق كله»، من النهروان إلى أقصى بلاد الترك: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٠.
(٨) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٤٥.
(٩) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٧.

فهدم منه قطعة وبنى فيها مسجداً^(١). وفي خراسان جُند الفضل جيشاً من العجم وأطلق عليه اسم العباسية بلغ عدده خمسمائة ألف رجل، أرسل عشرين ألفاً منهم إلى بغداد وظل الباقون في خراسان^(٢). ولما خالف أهل الطالقان افتتح الفضل بلادهم، وزحف صاحب الترك في خلق عظيم، ولقي عسكر الفضل والتحمت بينهما الحرب فضرب وجه صاحب الترك فاستنام واستباح الفضل عسكره، وغنم أمواله، وفيه يقول الشاعر:

للفضل يوم الطالقان وقبله يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا في غزوتين تواليا يومان^(٣)

وقد كلّف الفضل إبراهيم بن جبريل بفتح بلاد كابل، فافتتحها وغنم غنائم كثيرة^(٤)، وقاد حملة ضد مملكة أشروسنة وكان ممتنعاً^(٥).

غير أن الفضل لم يُكتب له النصر في حروبه في أرمينية، فقد جاء في اليعقوبي^(٦) أنه لما ولّى الرشيد الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أرمينية، سار إليها بنفسه، فلما قدم توجّه إلى ناحية الباب والأبواب فغزا قلعة حمزين، فهزمه أهل حمزين، فانصرف ما يلوي على شيء حتى أتى العراق واستخلف على البلد عمر بن أيوب الكناني.

وكان الرشيد قد جعل ولده محمداً في حجر الفضل بن يحيى والمأمون في حجر جعفر فاختص كل واحد منهما بمن في حجره^(٧). لذلك كان للفضل الدور

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٩.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٧.

(٣) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٠٧ - ٤٠٨.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٩؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٢.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٤٥.

(٦) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢٦.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان م ٤ ص ٢٨.

البارز في أخذ البيعة لمحمد بن الرشيد، إذ أنه لما صار إلى خراسان فرّق بين سكانها الأموال وأعطى الجند أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد فبايع الناس له وسمّاه الأمين^(١).

ولما انصرف الفضل من خراسان إلى العراق (في آخر سنة ١٧٩ هـ) بعد أن استخلف عمرو بن شرحبيل^(٢)، استقبله الرشيد استقبلاً حافلاً حدّثنا عنه الطبري^(٣)، فقال: لما قدم الفضل بن يحيى من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله، وتلقاه بنوهاشم والناس من القوّاد والكتّاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بالألف ألف وبالخمسائة ألف.

وأحب الرشيد تقليد جعفر الخاتم، وكان إلى الفضل، ورغّبه منه في عدم إعطاء قراره هذا طابع العزل وجد الصيغة التالية لإعلان الحدث إلى يحيى: «إن أمير المؤمنين رأى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك إلى شمالك»^(٤).

وصرف الرشيد الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلّدها أولاً، ثم ظهر من الرشيد في سنة ثلاث وثمانية ومئة سخط على الفضل بن يحيى، ونزع منه كل وظائفه^(٥)، وبقي فقط — كوصي على ولي العهد محمد الأمين الوظيفة التي

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٣، ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦١، في كتاب الجهشيارى: «عمر بن جميل»، الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩١.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٩.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٧؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٥ (حيث يحيى هو الذي كتب إلى ابنه الفضل: البيهقي المحاسن والمساوىء ص ٤٤٣، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢، ينسب هذه الرسالة إلى جعفر نفسه بأمر من الرشيد).

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٧. تظهر لنا إحدى الروايات أنه قد عزل من منصب أرمينيا ولكنه احتفظ بدون شك ببريد الموصل وديار بكر التي أراد الرشيد إعطاؤها إلى الفضل بن الربيع: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.

حصل عليها قبل أن يذهب إلى الري^(١).

(ب) جعفر بن يحيى :

وبينما كان يحيى بن خالد يميل إلى الفضل، كان الرشيد يميل إلى جعفر^(٢)، وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلال المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفراد بها ولم يشارك فيها^(٣). وقد رأينا كيف ولّاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية، وكيف نقل إليه الخاتم من أخيه الفضل.

كان جعفر سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وهذه الصفات قرّبت من نفس الرشيد فأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل^(٤)، ولم يكن له صبر عنه^(٥)، فأنزله بالخلد بالقرب من قصره وتباعد ما بين الفضل وجعفر، لأن الفضل كان يلتمس من جعفر أن يعطيه بعد اختصاص الرشيد إياه من نفسه، مثل ما كان يعطيه قبل ذلك، فخرجوا إلى أن صار أحدهما يسبغ الآخر^(٦). وقد ساعد جعفر الرشيد

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٤٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٣.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢، وقد روى القلقشندي أن الرشيد لقّب جعفر بن يحيى البرمكي في زمن وزارته له بالسلطان: القلقشندي: صبحي الأعشى ج ٨ ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٨.

(٥) ابن الطقطقي: الفخر في الآداب السلطانية ص ٢٠٥.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١٠ ص ٣٣٢، يبدو أن جعفرأ لم يفارق الخليفة - كما سئى - إلا في رحلة قصيرة إلى الشام عندما هاجت العصبية سنة ١٨٠ هـ، ومع هذا فإنه أعرب عن حزنه العميق لغاية هذه الفترة عن الخلفية إذ خاطبه بعد عودته قائلاً: والله يا أمير المؤمنين - ولا أعظم من اليمين بالله - لقد عانيت ما لو تعرض لي الدنيا كلها لاختبرت عليها قربك ولما رأيتها عوضاً من المقام معك، راجع الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٧) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩، وجاء في الأغاني: «كان الفضل بن يحيى ينافس أخاه جعفرأ وينافسه جعفر». الأصبهاني: الأغاني ج ٢١ ص ١٦٧.

في مهماته المختلفة^(١)، وكثيراً ما كان الرشيد يقول ليحيى: «أنت للفضل وأنا لجعفر»^(٢).

وكان جعفر متمكناً عند الرشيد غالباً على أمره واصلأ منه، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه^(٣)، حتى أن الرشيد اتخذ ثوباً له زيقان فكان يلبسه هو وجعفر جملة^(٤). وذكر المقدسي^(٥) أن هارون كان مختصاً بجعفر بن يحيى بن برمك حتى أمر فخيظ له قميص ذو جيبين يلبسه هارون وجعفر لثقتهم به واختصاصه به. وروى الجهشيارى^(٦) أن الرشيد كان يسمي جعفرأ «أخي»، ويدخله معه في ثوبه، وقلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز^(٧) في جميع الكور، كما أشركه معه في النظر في المظالم.

وفي سنة ١٧٦هـ كثر تظلم أهل مصر من موسى بن عيسى، فولى الرشيد جعفر بن يحيى على مصر، فولاها عمر بن مهران الذي أحيا القانون^(٨)، وعندما هاجت العصبية بالشام في سنة ثمانين ومائة وزاد خطرهما غضب الرشيد لذلك وعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا. فقال له

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٤.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٩.

(٣) لقد أحل الرشيد جعفرأ محلاً لم يحله أخوه ولا أبوه: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٢؛ اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٨.

(٥) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٤؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٣٦.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٤.

(٧) كان يساعد جعفر بن يحيى في إدارة الطرز الكاتب عيسى بن يزدانيروذ: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦، لكن الطبري يشير في سنة ١٨٧هـ كمسؤول عن الطرز - إلى شخص يسمى محمد بن نوح: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٣ الذي لا نملك عنه أية معلومات ومن الممكن أن يكون هو نفسه إبراهيم بن نوح بن أبي نوح الذي كان أثناء حكم المأمون كاتباً لإبراهيم بن المهدي في البصرة: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٣١٢.

(٨) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٢ - ٢٥٤؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٧ -

٢٢٠؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٢٦، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٦٩.

جعفر: بل أتيك بنفسي، وقصد جعفر الشام فأصلح بينهم وأحمد ثورتهم^(١)! ولما نجح جعفر في إطفاء نيران تلك الفتنة ولّى جعفر بن يحيى صالح بن سليمان البلقاء وما يليها، واستخلف على الشام عيسى بن العكي. وانصرف، فازداد الرشيد له إكراماً^(٢)، كما حصل لأخيه الفضل قبل ذلك بعدة سنوات (سنة ١٧٦هـ).

وفي نفس السنة (أي سنة ١٨٠هـ) ولّى الرشيد جعفر بن يحيى على خراسان وسجستان، واستعمل جعفر عليهما محمد بن الحسن بن قحطبة^(٣)، ولكن بعد عشرين يوماً عزله عن خراسان وولّاه الحرس^(٤).

وقد ذكر الصولي أنه: «لما عزل الرشيد جعفر بن يحيى عن خراسان، وقد كان سماها له وكتب كتبه وعقد له العقد وأمر ونهى ودبر مديدة ومدح بأشعار، فوجم لذلك جعفر إلى أن دخل أشجع، فأنشده:

أخطأها من جعفر المرتجى	أمست خراسان تعزى بما
ولّى عليها المشرق الأبلجا	كان الرشيد المعتلى أمره
أمسى إليه منهم أحوجا	ثم أراه رأييه أنه
من محصن أهلاً وكم زوجا	كم فرّق الدهر بأسبابه
في مدة تقصر قد فرّجا	وكم به الرحمن من كربة

فقال له جعفر: قمت والله بالعدو لأمر المؤمنين وأصبحت الحق وخففت نقل العزل فسل ما شئت. قال: قد كفاني جودك علي وتفقدك لي جذر المقال وذلّ

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٢؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٨، ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٣.

(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٦٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٥٢؛ الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٧٢ - ٧٣، والجهشيارى من جهته لا يذكر هذه الفترة ولا يشرح السبب.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٥٢.

السؤال^(١).

وفي سنة ١٨٢ هـ تمكن جعفر من الحصول على الوصاية على عبد الله المأمون بعد أن أخذت البيعة له كولي شأن للعهد^(٢) (بعد الأمين). وهكذا أصبح الفضل وجعفر وصيين على ولي العهد الاثنین (الأمين والمأمون) اللذين من خلالهما توقعاً أن تبقى السلطة طويلاً بين يدي آل برمك، ولكن الرشيد لم يسمح بذلك وأنزل بهم تلك النكبة العظمى التي ستحدث عنها في فصل قادم.

وفي عهد جعفر اشتدت قبضة البرامكة على أمور الحكم، وبلغت سلطتهم حداً بعيداً. فتنة الرشيد الكبيرة بجعفر جعلت له مكانة مرموقة وسلطة واسعة في الدولة، وأصبحت كلمته هي الكلمة النافذة، إذ لم يكن أحد يجسر على أن يردّ عليه قولاً ولا رأياً^(٣). وأبلغ دليل على ذلك حادثة الأمير عبد الملك بن صالح العباسي حين طلب إلى جعفر أن يساعده في تحقيق بعض الحوائج لدى الرشيد. وتفصيل هذه الحادثة، كما رواها الجهشيارى^(٤) في كتاب «الوزراء والكتاب»: أن جعفر بن يحيى خلا في منزله يوماً وحضر ندماءؤه، وكنت منهم، فتضمخ بالخلوق، ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك، وتقدم إلى الحاجب بحفظ الباب إلا من عبد الملك بن نجران كاتبه، فوقع في أذن الحاجب (عبد الملك)، ومضى

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٨٧.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٩، وجعفر هو الذي أشار على الرشيد بإعلان البيعة باسم عبد الله (المأمون) كوريث ثانٍ للخلافة بعد محمد (الأمين) وعاد بهذا المشروع من السرقه إلى بغداد؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٦١.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٧٤.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٢ - ٢١٤، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥ ص ٧٢ - ٧٣؛ الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ٢٢٨ - ٢٣٢؛ التنوخي: مستجدات ص ١٥٤ - ١٥٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣١، اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٦؛ الأتليدي: أعلام الناس ١٣٦ - ١٣٧.

صدر من النهار، وبلغ عبد الملك بن صالح مقام جعفر في منزله، فركب إليه، فوجه الحاجب إلى جعفر: قد حضر عبد الملك، فقال: يُؤذن له، وهو يظنه ابن نجران. فدخل عبد الملك بن صالح في سواده، ورهافيته. فلما رآه جعفر اسودَّ وجهه، ورآنا على حالنا، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه، لأنه كان يلتمس ندامة فيأبى عليه، فوقف عبد الملك على ما رأى من جعفر، فدعا غلامه، فناوله سواده وقلنسوته وأقبل حتى وقف على باب المجلس الذي نحن فيه، فسلم وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم. فدنا منه خادم فآلبسه حريرة وجاء فجلس، ودعا بطعام فأكل، ودعا بنبيذ، فأتوه برطل، فشربه وقال لجعفر: والله ما شربته قبل اليوم فليخفف عني، فدعا له برطلية جعلت بين يديه، وجعل كلما فعل من ذلك شيئاً سرى عن جعفر، فلما أراد الانصراف قال له جعفر: سل حاجتك، فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك، فقال: إن في قلب أمير المؤمنين هنة فتسأله الرضا عني. فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: وعليّ أربعة آلاف درهم تقضي عني. قال: إنها لعندي حاضرة، ولكن اجعلها من مال أمير المؤمنين، فإنها أنبل لك وأحب إليك. قال: وإبراهيم ابني أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة. قال: قد زوجه أمير المؤمنين الغالية. قال: وأحب أن يخفق لواء على رأسه. قال: قد ولّاه مصر.

وانصرف عبد الملك ونحن نتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان، وقلنا: لعله أن يُجاب إلى ما سأل من الحوائج، فكيف بالتزويج؟ هل يطلق لجعفر أن يغره؟ فلما كان من الغد، وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، وخرج إبراهيم وقد خلع عليه وزوج، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك وخرج جعفر، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله. فلما صرنا إليه، قال: تعلّقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك، أحببتم علم آخره، وإنني لما دخلت على أمير المؤمنين، فقامت بين يديه، ابتدأت القصة، كيف كانت من أولها إلى آخرها. فجعل يقول: أحسن والله! حتى إذا أتممت خبره، قال: ما صنعت به؟

فأخبرته بما سأل، فجعل يقول في ذلك: أحسنت! أحسنت! (انتهى كلام
الجهشياري).

ولم يزل البرامكة في عز وجاه وسلطان وفي ذروة المكانة عند الرشيد حتي
قيل: «إن أيامهم عرس وسرور دائم لا يزول»^(١).

* * *

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٤٦.

الفصل الثاني الانتصامات

- ١ - إتهامُ البرامكةِ بالميلِ إلى الفُرسِ
- ٢ - إتهامُ البرامكةِ بالشُعوبيةَ والزندقةَ والمجوسيةَ
- ٣ - إتهامُ البرامكةِ بالميلِ إلى العلويينَ
- ٤ - الغنى المفرط

الانتماءات

على الرغم من وصول البرامكة إلى هذه المرتبة العالية من النفوذ والسلطات، فإذا نظرنا إلى الجانب السلبي فيهم نرى بأنه قد نُسب إليهم اتهامات عديدة، من أبرزها:



إِتِّهَامُ الْبَرَامِكَةِ بِالْمَيْلِ إِلَى الْفُرسِ

روى الطبري^(١) أنَّ علي بن عيسى بن ماهان اتَّهم موسى بن يحيى البرمكي عند الرشيد في خراسان وأعلمه طاعة أهلها له ومحبتهم إياه، وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلاخ إليهم والثوب به معهم، فوَقَّر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه. وكان موسى أحد الفرسان الشجعان، فلَمَّا قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه، ثم ركب موسى دين واختفى عن غرمائه، فتوَهَّم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له، فلَمَّا صار إلى الحيرة في هذه الحجة وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد عند العباس بن موسى بالكوفة، فكان ذلك أول ثلثة ثلموا بها، فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن يردّها في شيء، فقال:

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢ - ٢٩٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٧.

يضمنه أبوه؟ فقد رفع إليّ فيه . فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه وخلع عليه .

وجاء في «الفهرست»^(١) أن البرامكة كانت تبغض محمد بن الليث، لأنه كان فيه «ميل على العجم»، ويقال إن الفضل بن يحيى البرمكي جند في خراسان جيشاً من العجم أطلق عليه اسم العباسية، بلغ عدده نصف مليون رجل^(٢) .

وقد تبنّى البرامكة في الولايات الشرقية سياسة متسامحة وعاملوا سكانها معاملةً حسنة، فتقرّبوا إليهم وأغدقوا عليهم العطايا الكثيرة، وذكر أن خالد بن برمك كان في عسكر قحطبة يتقلّد خراج كل ما افتتحه قحطبة من كور وتقلّد الغنائم وقسمها بين الجند، فكان يقال: إنه ما أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد وميعة، لأنه قسّط الخراج فأحسن فيه إلى أهله^(٣) .

ويروى أن المهدي أنفذ خالداً إلى فارس عاملاً عليها واستخلف خالد ابنه يحيى فقسّط الخراج على أهلها ووضع عنهم خراج الشجر وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً، وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس وخاصيتهم^(٤) .

في الحقيقة إن اتهام البرامكة بالميل إلى الفرس لا يبدو غريباً، وذلك لأنه من الطبيعي أن يحسن كل إنسان إلى موطنه الأول، وأن يتأثر بعاداته وتقاليده، وأن يتعلق بثقافته ولغته الأساسية . فكانوا (أي البرامكة) مثلاً يذكرون في مجالسهم بعض الأمثال باللغة الفارسية^(٥) .

ولكن لا بدّ من الإشارة إلى أن السياسة التي أظهر البرامكة أنهم يريدون

(١) النديم: الفهرست ص ١٣٤ .

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٨٧ .

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥١ .

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٣ .

تنفيذها كانت سياسية واقعية مجردة من الوسائس الحزبية ومهتمة بالخير العام . إذ لا يمكن التأكد أن البرامكة أعطوا الأولوية لسكان الولايات الشرقية على باقي سكان الإمبراطورية ، لأن يحيى اهتم برفاهية وسعادة السكان أمراً بتنفيذ الأشغال ذات المنفعة العامة : كحفر أقنية جديدة وغير ذلك . وقد عبّر عن اهتمامه بالمدن المقدسة في الجزيرة العربية عن طريق تمويلها ، إذ أمر بإجراء القمح على أهل الحرمين وتقدّم بحملة من مصر إليهم وأجرى على المهاجرين والأنصار وعلى وجوه أهل الأمصار وعلى أهل الدين والآداب والمروءات ، وأتخذ كتابيبي لليتامى^(١) . كما إنه تبنى موقفاً متسامحاً تجاه الجميع ، ونحكم على ذلك من خلال الجهد الذي بذله للدفاع عن العتابي المعتزلي الذي اضطهده الرشيد ، إذ كان العتابي يقول بالاعتزال ، فاتصل ذلك بالرشيد وكثر عليه في أمره ، فأمر فيه بأمر عظيم ، فهرب إلى اليمن ، فكان مقيماً بها فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخُطبه ، فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو؟ فقال : هذا للعتابي ، ولو حضر حتى يسمع منه الأمين والمأمون هذا الكلام ويصنع لهما خطباً لكان ذلك أصلح ، فأمر بإحضاره ، فأخذ الأمان له^(٢) .

وإن أبهة البرامكة وفخرهم مثلاً يذكرنا بعبادات الموالي لعمارة بن حمزة ، الذي يعتبره البرامكة قدوة في هذا المجال^(٣) ، ولكن ليس بدون التذكير في نفس الوقت بكرم العرب المشهور المعتبر دائماً كإحدى فضائلهم الوطنية ، وإن وصية يحيى لولده التي قال فيها : لا بدّ لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس فإن النعمة على الأشراف أبقى وهي بهم أحسن والمعروف عندهم أشهر والشكر منهم أكثر^(٤) . ليست إيرانية بالضبط ، لأنها تستحق المقارنة بقول المنصور – عن أحد الرجال – المأثور : «هورجل شريف وللشريف شكر ، فلا

(١) الجهشباري : الوزراء والكتاب ص ١٧٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٤) الجهشباري : الوزراء والكتاب ص ١٧٧ .

يسوءنكم مكانه»^(١).

وكذلك فإن نظرة إلى الميول الثقافية للبرامكة تحملنا إلى إبداء ملاحظات متشابهة، إذ لا يمكننا أن ننفي أن يحيى وأولاده قدّروا بصورة خاصة الأدب الإيراني أو على الأقل الهندو-إيراني، وشجّعوا على الاقتباس من الفارسية إلى العربية، ولكن سنتذكر أن يحيى شجّع أيضاً تفسير ونقل الكتب العلمية اليونانية، ككتاب المجسطي لبطليموس، مؤلفاً مكتبة هامة ستكون النواة الأولى لبيت الحكمة المشهور الذي أنشأه المأمون^(٢).

وإذا كان المقربون منهم وصنائعهم والشعراء^(٣) الذين رعوهم غالباً من الفرس — كما يقول بوقا^(٤) — وإذا عمل البرامكة على إدخال الزرادشتي الفضل بن سهل إلى البلاط وهولم يسلم بعد^(٥).

وإذا ارتبطوا بسهل بن هارون الممثل النشط للشعوبية، وشجّعوا الموسيقى الفارسي الأصل إبراهيم الموصلي، فإنهم اجتذبوا أيضاً أشخاصاً من أصل مسيحي: كبنّي وهب، أو منصور بن زياد، والسوري أحمد بن أبي خالد الذي استفاد أيضاً من حسن رعايتهم^(٦).

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه خلال مشاورات ولاية العهد لم يؤيد البرامكة

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ج ٣ ص ٢٦١.

(٢) القفطي: إنباه الرواة ص ٩٧ — ٩٨؛ النديم: الفهرست ص ١٠٥ و ٢٧٤.

(٣) منهم الرقاشي الذي كان منقطعاً إلى البرامكة بمدحهم؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٢٧، ومنهم أيضاً الشاعر أبان الحميد اللاهقي وكان شاعراً ظريفاً يمدح البرامكة وكان مخصوصاً من بينهم بجعفر لا يكاد يفارقه: ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٠٢، وقلده يحيى ديوان الشعر: الجهشيارى: الوزارة والكتاب ص ٢٨١ وغيرهم.

Sourdel: *Le Vizirat Abbaside*, I, p. 179.

(٤) بوقا ص ٤٧ — ٤٨ عن

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٠.

Sourdel: *Le Vizirat Abbaside*, I, p. 179.

(٦)

مثلاً ترشيح المأمون «ابن الفارسية»، فرغم تردّد الرشيد الذي رأى أن ابنه الثاني هو المؤهل للسلطة أكثر من الابن البكر، فإن يحيى أعلن موقفه أخيراً لصالح تسمية الأمين كولي أول للعهد.

هذا ما رواه المسعودي^(١) عن لسان الأصمعي، حيث قال: قال الأصمعي: بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً فكان يقعد مرة ويضطجع مرة أخرى ويبكي أخرى، ثم أنشأ يقول:

قلّد أمور عباد الله ذا ثقة موحد الرأي لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوي خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك منه علمت أنه يريد أمراً عظيماً، ثم قال لمسرور الخادم: «عليّ بيحيى». فما لبث أن أتاه، فقال: «يا أبا الفضل، إن رسول الله ﷺ مات عن غير وصية والإسلام جذع والإيمان جديد وكلمة العرب مجتمعة قد آمنها الله - عز وجل - بعد الخوف وأعزّها بعد الذل، فما لبث أن ارتدّ عامة العرب على أبي بكر، فكان من خبره ما قد علمت وأن أبا بكر صير الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته، ثم صيرها عمر شورى فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها، وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصويره إلى من أَرْضَى سيرته وأحمد طريقته وأثق بحسن سياسته وآمن وهنه وضعفه وهو عبد الله، وبنو هاشم مائلون بأهوائهم إلى محمد وفيه ما فيه عن الانقياد لهواه والتصرف مع طويته والتبذير لما حَوَتْه يده ومشاركته النساء والإماء في رأيه، وعبد الله المرضي الطريقة الأصيل الرأي الموثوق في الأمر العظيم. . فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية؛ فأشر عليّ في هذا الأمر برأيك مشورة يعمّ فضلها ونفعها فإنك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر». فقال: «يا أمير المؤمنين، إنّ كلّ زلة مستقالة، وكلّ أمر يتلافى ما خلا هذا العهد، فإن الخطأ فيه غير مأمون والزلة فيه لا تستدرك وللنظر فيه مجلس غير هذا».

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٣ - ٢١٤.

فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة، فأمرني بالتنحي، فقممت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما، فما زالا في مباحثة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد.

* * *

إِتِّهَامُ الْبَرَامِكَةِ بِالشُّعُوبِيَّةِ وَالزُّنْدَقَةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ

لقد رعى البرامكة الناطقين بلسان الشعوبية أمثال علان الشعوبية الفارسي وكان راوية عارفاً بالإنسان والمثالب والمنافرات منقطعاً إلى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون وللبرامكة عمل كتاب الميدان في المثالب، الذي هتك فيه العرب وأظهر مثالبها^(١). وممن كان يمعن في شعوبيته سهل بن هارون، أحد صنائع البرامكة، فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب، وله في ذلك كتب كثيرة ورسائل، وكان متحققاً بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له^(٢).

وهناك صلة وثيقة بين الزندقة والشعوبية، ذكرها الجاحظ^(٣) في رسالته في بني أمية، حيث قال عن الشعوبية: «إن أساسها العصبية التي لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية». ويؤيد ذلك ما ورد في الأغاني عن رجل أنه من «زندقة الشعوبية»^(٤). وقد لاحظ بعض الكتاب المحدثين هذا الارتباط بين الحركتين فأرجع الدكتور عبد الرحمن البدوي^(٥) في

(١) النديم: الفهرست ص ١١٨.

(٢) نفس المصدر ص ١٣٣.

(٣) رسالة الجاحظ في بني أمية ص ٢٩٩: المقرئ: النزاع والتخاصم ص ١٠١.

(٤) الأصبهاني: الأغاني ج ٦ ص ٨١.

(٥) عبد الرحمن البدوي: تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ٢٣ - ٢٤.

كتابه «تاريخ الإلحاد في الإسلام» حركة الزندقة كلها - أو معظمها - إلى الشعبية، وبذلك أصبحت الأولى مرادفة للثانية ومكملة لها.

وقد اتهم الرشيد البرامكة بالمجوسية والزندقة، فلما أمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم في هدم إيوان كسرى نهاه يحيى عن هدمه قائلاً: لا تهدم بناء دلاً على فخامة شأن بانيه الذي غلبته وأخذت ملكه. فأجابه الرشيد: «هذا من ميلك إلى المجوس، لا بد من هدمه»^(١). ولما كتب يحيى بن خالد من حبسه إلى الرشيد طالباً الرأفة به والعفو عنه، وصفه الرشيد بـ «المخادع الزنديق»^(٢).

واجتمع الدهاقنة يوماً إلى يحيى البرمكي وسألوه أن يؤخر النيروز نحو الشهرين، فعزم على ذلك، فتكلم أعداؤه فيه وقالوا: «إنه يتعصب للمجوسية، فأضرب عن ذلك»^(٣).

ويشير ابن قتيبة^(٤) إلى «أن البرامكة كانوا يُرمون بالزندقة إلا من عصم الله تعالى منهم، ويقول النديم»^(٥): «قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك، كانت زنادقة. وجعل بعض المؤرخين من الزندقة سبباً لنكبتهم، وهذا ما ذهب إليه المقدسي»^(٦)، إذ قال: «إنهم (أي البرامكة) أرادوا إظهار الزندقة وإفساد الملك ونقله إلى عثمان بن نهيك الفاسق، فقتلهم هارون.

وابن كثير^(٧) القائل: «كانوا يريدون إبطال الخلافة وإظهار الزندقة».

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٩، وذكر المسعودي في «مروجه» أن الرشيد قال لمن حوله: «في نفسه (أي يحيى) المجوسية والحنو عليها والمنع من إزالة أثارها: المسعودي: مروج ج ١ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) الطوطا: غرر الخصائص الواضحة ص ٤٠٦.

(٣) البيروني: الآثار الباقية ٣٢.

(٤) ابن قتيبة: المعارف ص ٣٨٢.

(٥) النديم: الفهرست ص ٤٠١.

(٦) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٤.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١ ص ١٨٩.

والدميري^(١) القائل أيضاً: «إن البرامكة أرادت إظهار الزندقة وفساد الملك فأوقع بهم وقتلهم».

وقد أورد الجاحظ^(٢) بيتين من الشعر في كتابه «البيان والتبيين» لشاعر مجهول^(٣)، قال فيهما:

إذا ذكر الشرك في مجلس أنارت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك
وقال شاعر آخر عن نفسه:

إن الفراغ دعائي إلى ابتناء المساجد
وإن رأيي فيها كرأي يحيى بن خالد^(٤)

ومن المحتمل أن تكون عامة الشعب قد اعتبرت البرامكة كلهم زنادقة، هذا ما أشار إليه الجهشيارى^(٥)، إذ قال: إن الفضل بن يحيى نقل من محبس كان فيه إلى محبس آخر فيوقف له بعض العامة، فدعا عليه وأنه اضطرب من ذلك اضطراباً لم ير مضطرباً قبله مثله في شيء من حوادث النكبة، وأنه قال لبعض من كان معه: أحب أن تلقى هذا الرجل وتسأله عما دعاه إلى ما كان منه؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا على غير علم منا، ظلم فتتلافى ما خلا؟ فصار رسوله إليه وسأله عما دعاه إلى ما كان منه وهل لحقه ما يوجبه؟ قال: فقال: لا، والله ما لحقني ما أوجب ذلك ولكن قيل لي إن هؤلاء كلهم زنادقة، فلما عاد الرسول إليه بذلك قال: قد والله

(١) الدميري: حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١١٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧.

(٣) لقد نسب ابن قتيبة في كتابه المعارف ص ٣٨٢ هذين البيتين من الشعر للأصمعي، وكذلك الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٦؛ والمقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٥ — ١٠٦.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٥١.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٨ — ٢٥٩.

سرّيت عني وفرّجت ما بي وأزلت ما لحقني ، ثم أنشد :

غير ما طالين ذحلاً ولكن مال دهر على أناس فمالسوا

وقد روى البغدادي^(١) أن البرامكة زيّنوا للرشيّد أن يتّخذ في جوف الكعبة معجرة يتبخّر عليها العود أبداً ، فعلم الرشيّد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار . ولكن حديث مسرور الكبير في أيام المتوكّل ينفي هذه الحادثة ، فعندما سأله عبيد الله بن يحيى بن خاقان عن سبب قتل الرشيّد لجعفر وإيقاعه بالبرامكة؟ أجابه : كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادّعوه من أمر المرأة وأمر المجامر التي اتّخذها للبخور في الكعبة؟ فقلت له : ما رأيت غيره ، فقال : لا والله ، ما لشيء من هذا أصل ، ولكنه من موالينا وحسدهم^(٢) .

وفيما خصّ هذه الاتهامات الموجهة ضد البرامكة ، علينا أن نتصوّر أنه من السهل ، نظراً لأصلهم ، اتهامهم باعتقادات ملحدة ، غير أنه علينا أيضاً أن نشير إلى أن هذه الاتهامات لا تعدو عن كونها إحدى الوسائل التي استخدمها الأعداء ضدّهم : «لقد تكلم أعداؤه فيه (يحيى البرمكي) وقالوا أنه يتعصب للمجوسية»^(٣) ، وأن الشخص (محمد بن الليث)^(٤) . الذي حسب «الطبري الفارسي»^(٥) ، أبلغ الرشيّد بإلحاد البرامكة قد اقتصر في الواقع ، إذا اعتقدنا بما قاله الطبري^(٦) نفسه على الشكوى من غطرسة يحيى كما أن بعض المؤرّخين^(٧) يذكر أن هذا الاتّهام (بالزندقة) بعيد لا يعتقد بصحته .

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٨٥ .

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٥٤ .

(٣) البيروني : الآثار الباقية ص ٣٢ .

(٤) يسميه الطبري محمد بن الليث ، الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٨٨ ، وليس محمد بن أبي الليث كما ورد في الطبري : الفارسي ج ٤ ص ٤٦٣ .

(٥) الطبري : زوتبرغ ٤ ص ٤٦٣ .

(٦) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٨٨ .

(٧) الدميري : حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١١٢ .

والى جانب عدم إجماع المؤرخين على صحّة هذه التهم، فإن للفضل بن يحيى موقفان يساعدان أيضاً على إنكارها وعلى عدم إثباتها:

أولهما: أنه لما ملك والفضل أمر خراسان عزم على هدم النوبهار، فلما لم يقدر عليه لإحكام بنائه، هدم ناحية منه وبنى فيها مسجداً^(١).

وثانيهما: أنه لما استحسن الفضل أبياتاً من الشعر لأبي النواس، قال: «أما والله لولا قالة الناس فيه ما فارقتني، ولكن إذا فكرت فيه وجدت الرجل ماجناً خليعاً متهتكاً ألوفاً لحانات الخمارين فأترك نفعه لضره»^(٢).

* * *

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٩.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢١٥ - ٢١٧.



إِتْهَامُ الْبِرَامِكَةِ بِالْمَيْلِ إِلَى الْعَلَوِيِّينَ

في الواقع هناك بعض الشواهد التي تدلّ على ميل البرامكة نحو العلويين، وقد اعتبر بعض المؤرخين هذا الميل من أهم الأسباب التي أدّت إلى نكبتهم^(١). فقد روي الطبري^(٢) أن أبو محمد اليزيدي — وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم — قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن (العلوي) فلا تصدّقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء في أمره، فأجابه إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرّض، أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً ولا أديت محدثاً. فرّق عليه وقال له: إذهب حيث شئت في بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأرُدَّ إليك أو إلى غيرك! فوجّه معه من أداه إلى مأمنه.

-
- (١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٩؛ الدميري: الحيوان ج ٢ ص ١١١.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٩؛ المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٥ — ١٧٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٣١٢؛ اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٠؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٣، وقد ذكر الأصبهاني أن الفضل هو الذي أطلق سراح العلوي: مقاتل الطالبين ص ٤٧١ — ٤٧٢، ولنلاحظ أن الجهشيارى لا يشير إلى إطلاق هذا العلوي لا من قبل الفضل ولا من قبل جعفر.

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه فعلا الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لا يعبأ بخبره . وقال : وما أنت وهذا لا أم لك ! فلعل ذلك عن أمري ، فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالغداء ، فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الطبق والأكبال . قال : بحياتي ! فأحجم جعفر - وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصحهم فكراً - وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره ، فقال : لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقه وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده . قال : نَعَمْ ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي . فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك !

فكان من أمره ما كان . وهذا ما ذهب إليه الدميري^(١) ، إذ قال : من قال أن الرشيد قتل جعفر بغير سبب يحيى بن عبد الله العلوي بن حسن فلا تصدقه .

ويذهب ابن خلدون إلى أن البرامكة «أفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القربة العطاء وطوّقوهم المنن كسبوا من بيوتات الأشراف (العلويين) المعدم وفكوا العاني»^(٢) .

وهذه التهمة يعوزها التأكيد لأن هناك براهين عديدة تشير إلى الجفاء الذي كان يسود العلاقات البرمكية - العلوية^(٣) ، حتى أن البرامكة كانوا يكيّدون بهم ويدبّرون المؤامرات للقضاء عليهم : فيحيى بن خالد هو الذي أغرى علي بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بالمال حتى سعى بعمه الإمام موسى بن جعفر إلى الرشيد ، وهذه السعاية كانت سبباً لإلقاء القبض على موسى بن جعفر وعلى قتله فيما بعد^(٤) .

(١) الدميري : حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١١١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦ .

(٣) مصطفى جواد : العدد ٢٧ من مجلة الرسالة الإسلامية السنة الثانية ٨ حزيران ١٩٣٤ م .

(٤) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٥٠٠ - ٥٠٤ .

ولما فرَّ إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز إلى المغرب الأقصى عبر مصر، ناجياً من موقعة فخ، وبايعته قبائل المغرب وآمنت بدعوته، شكى الرشيد ذلك إلى يحيى بن خالد، فقال له: «أنا أكفيك شره»^(١).

وأرسل إلى المغرب رجلاً عُرف بالمكر والدهاء، هو سليمان بن جرير الجزري، بعد أن رَغِبَه في الحال ووعدَه بمواعيد عظيمة على أن يحتال لإدريس حتى يقتله.

وما إن وصل إلى إدريس حتى تقرب منه وأوهمه أنه من أنصاره، فسرَّ إدريس منه واطمأنَّ له، وعلى حين غرة دسَّ السمَّ لسيدَه في الطعام، فسقط مغشياً عليه حتى مات.

وفي هذا المجال روى لنا الأصبهاني حادثان:

إحدهما أظهرت لنا جعفرًا مفرطاً في الحماس - بغير أمر الرشيد - لقتل العلوي عبد الله بن الحسن الذي أوكلت إليه حراسته. وكانت من بين الأسباب التي أثارت حقد الرشيد على البرامكة وحملته على الانتقام منهم. وتفصيل ذلك: أن الرشيد اتَّهم عبد الله بن الحسن بن علي بجمع الزيدية ودعوتهم إلى الخروج معه. ولَمَّا أنكر العلوي هذه التهمة أمر الرشيد بحبسه، فأنفذ إليه رقعة مختومة فيها كل كلام قبيح وكل شتم شنيع، فلَمَّا قرأها الرشيد طرحها وقال: قد ضاق صدر هذا الفتى فهو يتعرَّض للقتل، وما يحملني فعله ذلك على قتله. ثم دعا بجعفر بن يحيى فأمره أن يحوله إليه ويوسع عليه في محبسه.

فلَمَّا كان يوم غد، وهو يوم نيروز، قدمه جعفر بن يحيى فضرب عنقه، وغسل رأسه وجعله في منديل، وأهداه إليه الرشيد مع هدايا، فقبلها وقدمت إليه، فلَمَّا نظر إلى الرأس أفضعه، فقال له: ويحك، لِمَ فعلت هذا؟ قال: لإقدامه على

(١) الأصبهاني: مقاتل الطالبين ص ٤٨٩؛ الحميري: كتاب الروض المعطار ص ٦١٠.

ما كتب به إلى أمير المؤمنين وبسط يده ولسانه بما بسطهما . قال : ويحك ، فقتلك إياه بغير أمري أعظم من فعله . ثم أمر بغسله ودفنه .

فلما كان من أمره ما كان في أمر جعفر ، قال لمسرور : إذا أردت قتله فقل له : هذا بعبد الله بن الحسن بن مني الذي قتلته بغير أمري . فقالها مسرور عند قتله إياه^(١) .

وأما الحادثة الأخرى فقد قدمت لنا الفضل بن يحيى رافضاً أمر الرشيد القاضي بقتل الإمام موسى بن جعفر ، إذ دفع الرشيد الإمام موسى بن جعفر إلى الفضل بن يحيى وأراد منه أن يقتله ، فلم يقتله ، بل أبقاه عنده وأحسن إليه ، فغضب الرشيد وأرسل إلى السندي بن شاهك ببغداد أن يجلد الفضل (ضربه مائة سوط) ، وقال : أيها الناس ، إن الفضل بن يحيى قد عصاني وخالف طاعتي فرأيت أن ألعنه فالعنوه ، فلعنه الناس من كل ناحية حتى ارتج البيت والدار بلعنه^(٢) . هذا فضلاً عن الكرم الرائع الذي أظهره الفضل بن يحيى نحو محمد بن إبراهيم بعد أن أعلاه دين مبلغه ألف ألف درهم^(٣) .

هذه الوقائع جاءت لتُضاف إلى الخلافات التي أثارها المسألة العلوية بشكل دائم بين الخليفة والبرامكة هذه المسألة التي ركز الرشيد نفسه على طابعها في المحادثة التي جرت بينه وبين يحيى أثناء حبسه ، حيث لمّح من جهة إلى يحيى بن عبد الله ، ومن جهة أخرى إلى الزيدي أحمد بن عيسى . هذا ما رواه مسرور الكبير ، حيث قال : أخرج الرشيد يوماً يحيى بن خالد من سجنه يسرد عليه مجموعة من الشكاوى التي لم يستطع وزيره السابق أن يدافع عن نفسه عند

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٩٥ - ١٩٧ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

سماعها؛ الأولى : كانت دفع مبلغ مئتي ألف دينار بالديلم للعلوي يحيى بن عبد الله ليقويه ضد الخليفة فيقتله ، والثانية أنه أرسل إلى أحمد بن عيسى بن زيد بالبصرة مبلغ سبعين ألف دينار، والثالثة والأخيرة أنه رفض إعطاء عيال الرشيد مبلغ مليون درهم وأجبره على استعارة المال بينما هو (أي يحيى) فرّق إلى عماله مليون ونصف المليون درهم^(١).

* * *

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤٣.



الغنى المفرط

في الحقيقة، يبدو أن أموال البرامكة بلغت نسباً خيالية، وخير دليل على ذلك البذخ الفاحش الذي بُذل في إنشاءاتهم وأملاكهم.

فهذا جعفر البرمكي يصرف الأموال الهائلة لبيني قصرًا أثارَت ضخامته لدى إبراهيم بن المهدي قلقاً على مستقبل جعفر. وقد حدثنا الطبري^(٢) عن ذلك، فقال: ذكر يعقوب بن إسحاق أن إبراهيم بن المهدي حدثه، قال: أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها، فقال لي: أما تعجب من منصور بن زياد؟ قال: قلت: فبماذا؟ قال: سألته: هل ترى في داري عيباً؟ قال: نعم، ليس فيها لبنة ولا صنوبرة. قال إبراهيم: فقلت: الذي يعيها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال: هو يعلم أنه وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له. قال: قلت: إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول: يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف درهم فأين نفقاته...! وأين صلاته...! وأين النواشب التي تنوبه...! وما أظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك...! وهذه جملة سريعة إلى القلب والموقف على الحاصل منها صعب. قال: إن سمع مني قلت: إن لأمير

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩١.

المؤمنين نعماً على قوم كفروها بالستر لها أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي ، فوضعتها في رأس جبل ، ثم قلت للناس : تعالوا فانظروا . وهذا ما ذهب إليه ابن خلكان^(٣) ، إذ قال : إن جعفرأ بنى داراً عزم عليها عشرين ألف . . . ألف درهم ، فرفع ذلك في الرشيد ، وقيل : هذه غرامة في دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغير ذلك ؟ فاستعظمه .

وقد أشار شاعر مجهول إلى تلك الدار بقصيدة رُفعت إلى الرشيد ، قال فيها :

قل لأمين الله في أرضه	ومن إليه الحلّ والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مثلك ما بينكما حدّ
أمرك مردود إلى أمره	وأمره ليس له ردّ
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ	فرس لها مثلاً ولا الهند
والدرّ والياقوت حصباؤها	وتربها العنبر والسند
ونحن نخشى أنه دارت	ملكك إن غيبك اللحد
ومن يباهي العبد أربابه	إلا إذا ما بطر العبد ^(١)

ومن جهته يحيى الذي أقام في البداية في قصر باب الشماسية المُقام من قبل والده على إقطاع للمهدي^(٢) ، بنى لنفسه في نفس المحلة قصر التين ، وبالقرب منها بنى الفضل وجعفر مساكنهما الخاصة^(٣) .

ويروى أنه وجد لجعفر بن يحيى بركة في داره التي في سوقة جعفر ، فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مئة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من أحد جانبيه : واصفر من ضرب دار الملوكة يلوح على وجهه جعفر

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٤ .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٨٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩ .

ومن الجانب الآخر:

يزيد على مئة واحداً إذا ناله معسر بيسر^(١)

وكان الرشيد إذا سافر لم يمر بضیعة أو بستان إلا قیل هذا لجعفر^(٢)

وامتلك البرامكة الضیاع الجميلة وكان ضیاع الدولة ضیاعهم، وهذا الغنى الفاحش استرعى انتباه الرشيد ودفعه إلى القول لأحد أتباعه وهو ينظر ضیاع البرامكة: «... أنظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم، لا أعرف لأحد من أولادي ضیعة من ضیاع البرامكة على طريق واحد قرب هذه المدينة، فكيف بما هولهم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلاد؟» ثم أردف يقول: «ما عدَّ البرامكة بني هاشم إلا عبيدهم - وإنهم هم الدولة وأن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها»^(٣)

وجاء في العقد الفريد^(٤) أن الرشيد كان يقول: فضیاعهم (أي البرامكة) ليس لولدي مثلها وتطیب نفسي بذلك لهم.

وذكر المسعودي^(٥) في «مروجه» أن البرامكة احتجزوا الأموال دون الرشيد حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر.

وبلغ غنى البرامكة مرحلة دفعت أحد أعمام الرشيد إلى تحذير البرامكة من نظرات الخليفة الغیورة، هذا ما ذهب إليه المسعودي^(٦)، إذ قال: «حكى أن بعض عمومة الرشيد صار إلى يحيى بن خالد عند تغير الرشيد له، وقبل الإيقاع بهم»، فقال: «إن أمير المؤمنين قد أحب جمع الأموال وقد كثر ولده فهو يريد أن يعقد لهم

(١) نفس المصدر ص ٢٤١.

(٢) الدميري: الحيوان ج ٢ ص ١١٢.

(٣) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٢.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٦٦.

(٥) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٣.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٧.

الضياع وقد كثر عليك وعلى أصحابك عنده، فلو نظرت إلى ضياعهم وأموالهم فجعلتها لولد أمير المؤمنين وتقرّبت إليه بها لرجوت أن يكون ذلك سبب السلامة لك ورجوعه إلى ما عهدته»، فقال له يحيى: «والله لأن تزول النعمة عني أحبّ إليّ من أن أزيلها عن قوم كنت سببها إليهم».

وهذا الغنى المفرط دفع البرامكة إلى الاستمتاع بحياة مفعمة بالترف والرخاء، وإلى التألق في المظهر والملبس، فكان جعفر بن يحيى مثلاً يُحتذى في اتخاذ الأزياء، فذكر أنه كان أول من عرض الجربانات لطول عنقه^(١) وحشاها بالقطن وما زال الناس ينسبون لها إلى ابن برمك ويقولون: «جربانات برمكية»^(٢).

واعتنى النساء في زينتهن وأناقتهن، فيقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتجلى بعقد من الجواهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار^(٣). وكان قد أهداه إليها الرشيد. ويقال أن عريب^(٤) المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً^(٥). ويقال أيضاً أن قصور البرامكة غصت بالرقيق والجواري حتى يُروى أنه كان لعتابة أم جعفر بن يحيى مائة وصيفة لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الأخرى وحليها^(٦).

وامتد البذخ والإسراف إلى مجالس البرامكة، فكساها بالأثاث الفاخر والتحف النادرة، فلما دخل الأصمعي أحد مجالس الفضل بن يحيى وصفه قائلاً: ما رأيت أنجب من البرامكة رجالاً وأطفالاً ولا أشرف منهم أحوالاً، ما أعلم أنني حضرت يحيى والفضل ولا جعفر إلا أنصرفت عنهم ولإخواني بالحباء الجزيل.

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٩.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٥.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ١٦ ص ٢٧٣.

(٤) قيل إن غريب هي ابنة جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك: الأصبهاني: الأغاني ج ١٨ ص ٤١٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٤٤٠.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤١.

(٦) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢١٣ - ٢١٥.

ثم قال: طرب الفضل بن يحيى إلى مذاكرتي، فأتاني رسوله، وكان يوماً بارداً ذا صرٍّ وقرٍّ. فقال: أجب الوزير، فمضيت معه، فلما دخلت عليه إذا هو بهوله قد فرش بالسّمور وهو في دست منه وعلى ظهره دواج سمّور مبطن بخز، وبين يديه كانون فضّة فوقه أثفية ذهب في وسطها تمثال أسد رابض، في عينيه ياقوتتان تتوقدان، وفوق الصينية إبريق زجاج فرعوني وكأس كأنها جوهرة محفورة تسع رطلاً، ولا أظنها يفي بها مال كثير، وهو على سرير من عاج وأنا على ثياب قطن، فسلمت عليه، فردّ السلام وقال لي: يا أصمعي ليس هذا من ثياب هذا اليوم. قلت: أصلح الله الوزير، إنما يلبس الرجل ما يجد. فقال: يا غلام إلقِ عليه شيئاً من الوبر، فأتيت بمثل ما عليه فلبسته، حتى الجورب، ثم أتى بخوان لم أدر ما جنسه غير أنني تحيّرت في جنسه وبصفحة مشمسة فيها لون من مخّ الطير فتناولنا منها.

ثم تتابعت الألوان فأكلت من جميع ما حضر، ألا والذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة ما عرفت منها لوناً واحداً، إلا أنني لم آكل في الدنيا شيئاً يدينها قط لذة وطيباً عند خليفة ولا ملك، ثم رفع الخوان وأتينا بألوان من الطيب، فغسلنا أيدينا، وكنت كلّما استعملت منه لوناً ظننته أطيب ما في الدنيا من عطر فاخر حتى إذا استعملت غيره زاد عليه طيباً، فلما فرغنا من ذلك إذا غلام قد أقبل معه جام بلّور فيه غالية قد ازرقّت بكثرة العنبر، فتناولنا بملعقة من الذهب حتى نضحناه، فصرت كأني جمرة، ثم قال: اسقنا، فسقاه رطلاً وسقاني مثله، فما تجاوز والله لهائي حتى كدت أطيّر فرحاً وسروراً وصرت في مسلاخ ابن عشرين طرباً.

ولم يقتصر الإسراف على ذلك فقط، بل شمل أيضاً عطايا البرامكة، فهذا يحيى بن خالد يهب أحد الناس جميع ما عند وكلائه من مال، وقد روى لنا ذلك البيهقي^(١)، فقال: إن يحيى قال لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: كم عند

(١) البيهقي: المحاسن والمساويء ص ١٩٩.

وكلاثنا من المال؟ قال: سبع مائة ألف درهم. قال: فأقبضها إليك، فغدا إليه، فقبل يده ومنصور بن زياد عنده، فلما خرج الرجاء قال لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا وهبنا له هذا المال وإنما أمرنا بقبضه ليكون معنا في هذا الوجه. فقال منصور: فأنا أعلمه ذلك. قال: إذن يقول: فقل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً. وترك المال له.

ويحدثنا محمد بن علي بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن يزيد، أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلت: جعلت فداك! اشتر هذا الوجه الحسن من النار، فدعا بخمس مائة ألف درهم وقال: اشتر بها وجهي الساعة، فقلت: جعلت فداك! الوقت ضيق ولكن غداً إنشاء الله، فقال: لا والله إلا الساعة، فوجهت إلى القضاة في الجانبين بثلاثمائة ألف درهم وحملت إلى أبي محمد السمرقندي منها صديراً وأمرتهم عنه بتفريق وفرقت البقية بحضرتي، فلم تغب الشمس حتى فرق ذلك كله^(١).

ودفع أحد الناس إلى أبي النضير الشاعر رقعة ليوصلها إلى الفضل بن يحيى يسأله فيها الإذن له في ابتياع ضيعة بفارس، وكان مبلغ ما يوزن في ثمنها مائة ألف درهم، فأخذها الشاعر ودفعها إلى الفضل، فنظر فيها ووضعها. وفي اليوم التالي طلب خزان بيت المال الشاعر وقالوا له: أحضر من يحمل المائة الألف إلى صاحب الرقعة، فحملها إلى صاحبها^(٢).

ولما أقبلت خنفساء إلى أبي علقمة الثقفي — الذي كان عند جعفر بن يحيى في بعض لياليه التي يسمر فيها — قال: أليس يقال إن الخنفساء إذا أقبلت إلى رجل أصاب خيراً؟ قالوا: بلى؟ قال جعفر بن يحيى: يا غلام، أعطه ألف دينار. قال: فنحوها عنه فعادت إليه، فقال: يا غلام، أعطه ألف دينار. فأعطاه ألفي دينار^(٣).

(١) نفس المصدر ص ١٩٩ — ٢٠٠.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٠.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٣.

مما لا شك فيه أن هذه الوقائع تدلّ على الإسراف الذي نهجه البرامكة في حياتهم وأنّ هذا الكرم الزائد - إذا صحّ التعبير - المبالغ فيه، الذي لا يقرّه عقل، يعود إلى خصال البرامكة وطبائعهم، فكان يحيى مثلاً يقول: أسرف، فإن الشرف في السرف^(١)، وإلى بحبوحه العيش التي تنعموا بها في تلك الفترة.

والآن وبعد ذكر أهم الاتهامات التي وُجّهت إلى البرامكة، فالسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كانت هذه الاتهامات كافية لإثارة غيظ الخليفة للإيقاع بهم؟ أم أنها كانت سبباً إضافياً إلى أسباب نكبتهم؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه في الفصل التالي.

* * *

(١) البيهقي: المعاسن والمساوىء ص ١٩٩.

الفصل الثالث
نكبة البرامكة

١- أسباب النكبة

٢- مقتل جعفر



أسباب النكبة

عند التطرُّق إلى هذه الحادثة يتساءل القارئ: لماذا نكب الرشيد البرامكة بعد أن عظم نفوذهم وبعد أن ساهم هو في علو شأنهم وبلوغهم هذه المنزلة الرفيعة؟

للردّ على هذا السؤال لا بد من الإشارة إلى أنه على الرغم من اهتمام المؤرخين بمعالجة هذه الحادثة فإنهم اختلفوا اختلافاً كبيراً في تحليل الأسباب التي دفعت الرشيد إلى التنكيل بهم.

وقد أقر المؤرخون أنفسهم بهذا الخلاف. . فالطبري^(١) مثلاً يقول: «أما سبب غضبه عليه (أي على جعفر) الذي قتله عنده، فإنه مختلف فيه». ويقول المقدسي^(٢): «واختلفوا في السبب الذي حمّله ذلك». ويقول المسعودي^(٣): «واختلف الناس في سبب إيقاعه بهم». ويقول أبو الفداء^(٤): «وقد اختلف في سبب ذلك اختلافاً كثيراً».

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٧.

(٢) المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٤.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٣.

(٤) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٣.

ويقول ابن كثير^(١): «وقد اختلف في سبب ذلك». ويقول الياضي^(٢): «اختلف التاريخ في سبب تغير الرشيد عليهم». وكذلك يقول ابن خلكان^(٣): «وقد اختلف أهل التاريخ في سبب تغير الرشيد عليهم». وكذلك يقول ابن الطقطقي^(٤): «اختلف أصحاب السير والتواريخ في السبب في ذلك». وكذلك قال اليعقوبي^(٥): «إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بن خالد بغير أمر متقدم، وإن أكثر الناس في أسباب السخط عليهم مختلفون».

واعتراف المؤرخين بهذا الاختلاف أدى إلى إحاطة هذه النكبة بالغموض والتناقض، وبالتالي إلى فسح المجال أمام الأقوال الكثيرة.

حسب بعض الروايات أن البرامكة شعروا بنكبتهم عن طريق الفأل السيئ وعلامات الشؤم، فيحيى الذي كان عالماً بالتنجيم^(٦) توقع إيقاع الرشيد بهم قبل حدوثه فأخبر إسماعيل بن صبيح بذلك محدداً له تاريخ وقوع النكبة. هذا ما رواه إسماعيل بن صبيح، حيث قال إنه كان يوماً بين يدي يحيى بن خالد، فدخل عليه جعفر، فلما رآه أشاح بوجهه عنه وتكره رؤيته، فلما انصرف قال له: «أطال الله بقاءك! تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حالة لا يقوم عليه ولدأ ولا ولياً، فقال: «إليك عني أيها الرجل، فوالله لا يكون هلاك أهل هذا البيت إلا بسببه». فلما كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضاً جعفر وأنا بحضرته، ففعل به مثل فعله الأول، فأعدت عليه القول، فقال لي: ادن مني الدواة، فأدنيته، فكتب كلمات يسيرة في رقعة وختمها ودفعها إليّ وقال لي: لتكن عندك فإذا دخلت سنة سبع وثمانين ومضى المحرم فانظر فيها. فلما كان في صفر أوقع الرشيد بهم فنظرت فيها فكان

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٩.

(٢) الياضي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٣.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩.

(٥) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢٢.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.

الوقت الذي ذكره^(١).

ولما عزم جعفر على الانتقال إلى قصره الجديد في باب الشماسية في الوقت الذي اختاره له المنجم التقى في أحد الأسواق رجلاً ينشد:

تدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يريد

فاستوحش ووقف ودعا بالرجل، فقال له: أعد ما قلت، فأعاده، فقال له: «ما أردت بهذا؟» فقال: «والله ما أردت به معنى من المعاني ولكنه شيء عرض لي وجاء على لساني في هذا الوقت»، فأمر له بدنانير ومضى وقد تنغص عليه سروره^(٢).

وعندما قصد جعفر بن يحيى قصر السدير (من أشهر قصور الحيرة) وطاف حوله ونظر إلى بنائه، لفت نظره كتاب في أعلاه: «فأمر من صعد إلى الموقع فقراه فقال في نفسه: قد جعلته فالاً لما أخافه من الرشيد، فقرئ فإذا هو:

إن بني المنذر عام انقضوا بحيث شاء البيعة الراهب
أضحوا لا يرجوهم راغب يوماً ولا يرهبهم راهب
وأصبحوا أكلاً لدود الرضى وانقطع المطلوب والطالب

فحزن جعفر لذلك وصار ينشد الأبيات ويقول: ذهب والله أمرنا^(٣).

وقال سهل بن هارون: إني لأحصل أرزاق العامة بين يدي يحيى بن خالد في بناء خلاجه داخل سرادقة وهو مع الرشيد بالرقعة وهو يعقدها جملاً بكفه إذ غشيته سامة وأخذته سنة فغلبته عيناه، فقال: ويحك يا سهل! طرق النوم شفري وحلّت السنة جفني، فما ذاك؟ قلت: ضيف كريم إن قرّبه رَوْحك، وإن منعتك عنتك، وإن طردته طلبك، وإن أقصيته أدركك، وإن غالبته غلبك. قال: فنام أقل من فواق بكية

(١) نفس المصدر ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٧ كذلك ابن خلكان: وفيسات الأعيان ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٤٥؛

الأصبهاني: أدب الغرباء ص ٤٥ مع تغيير النص.

(٣) الشابشتي: الديارات ص ٢٣٨.

أو نزع من ركبة ثم انتبه مذعوراً، فقال: يا سهل لأمر ما كان والله قد ذهب مُلكنا وولّى عزنا وانقضت أيام دولتنا. قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ قال: كأن منشداً أنشدني:

كأن لم يكن بين الجحون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فأجبتة عن غير روية ولا إجابة فكرة:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوثر^(١)
وفي أحد الأيام سمع أحد الناس جعفر بن يحيى يقول: ليس لدارنا هذه عيب إلا أن صاحبها فيها قليل البقاء ويعني نفسه^(٢).

وحسب بعض الروايات الأخرى: شعر البرامكة بنكبتهم، لأنهم لاحظوا بأنفسهم - أو بواسطة أناس آخرين - عند الخليفة زوال حظوة وعدم رضى متزايدين.

فمن ذلك ما سعى به علي بن عيسى بن ماهان عند الرشيد في أمر خراسان وطاعة أهلها له وأنه يكاتبهم ويعمل على الوثوب به معهم، فحبسه الرشيد ثم أطلقه بعد تدخل أم الفضل بن يحيى في أمره، فكان ذلك أول ثلثة ثلموا بها^(٣).

ومن ذلك أيضاً ما ذكر عن بختيشوع بن جبريل، عن أبيه، أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد - وكان فيما مضى يدخل بلا إذن - فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً، فعلم

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٥٨ - ٥٩، وتوجد رواية معادلة لها: ذكرها الجهشيارى: الوزراء والكتاب مفادها أن يحيى روى عشية المحنة، إلى موسى بن نصير أنه رأى حلماً مزعجاً وسيئاً ولاحظ النجوم بعد ذلك دلّته على قرب النهاية: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢ - ٢٩٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٧.

يحيى أن أمرهم قد تغير. قال: ثم أقبل على الرشيد فقال: يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: ما بالنا يدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرداً حيناً وحيناً في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذا قد علمت فإنني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا. قال: وكان من أرق الخلفاء وجهاً - وعينه في الأرض ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره، لكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسبح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى^(١).

وذكر عن أحمد بن يوسف أن ثمامة بن أشرس، قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عبادته وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى أمور عبادك! أترأى تحتج بحجة يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع: فدعا الرشيد يحيى - وقد تقدّم إليه خبر الرسالة - فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأبي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر به فوضع في المطبق دهرأ، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه، فأحضر فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحنيني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: تقول هذا! قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال، وحلت بيني وبين العيال، بلا ذنب أتيت، ولا حدث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك! قال: صدقت.. وأمر بإطلاقه، ثم قال: يا محمد، أتحنيني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٧ - ٢٨٨؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٧.

قلبي، فأمر أن يُعطى مائة ألف درهم، فأحضرت. فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم قد أنعمت عليّ وأحسنْتَ إليّ. قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك فمن بعثني عليك؟ قال: فقال الناس في البرامكة فأكثرُوا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغيُّر حالهم^(١).

وهكذا رأينا كيف قبض الرشيد على محمد بن الليث وحبسه (نظراً لمكانة البرامكة عنده) لنصح له بوضع حد لسلطان البرامكة ونفوذهم، وكيف عاد عن رأيه (قبيل نكبة البرامكة) وأطلق سراحه معتذراً له. فهذا التصرف إن دلَّ على شيء فإنه يدلُّ على التحوُّل الذي بدأ ينال نفسية الرشيد تجاه البرامكة وقد ظهر هذا التحول أيضاً في تصرفات أخرى صدرت عن الرشيد، منها ما ذكره الطبري في حوادث سنة سبع وثمانين ومائة، إذ قال: دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار. قال: فدخل فلم يقم إليه أحد فأريد لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوا بها مراراً^(٢).

ومنها أيضاً اتهام الرشيد ليحيى البرمكي بالخيانة بمجرد أنه عاد على عقبه بعدما هم بالدخول عليه^(٣).

وقد جاء في كتاب شرح نهج البلاغة^(٤): يقال إن أول ما ظهر من تغيُّر الرشيد له (أي لجعفر) أنه كلَّم الفضل بن الربيع بشيء فردَّه عليه الفضل ولم تجر عاداته من قبل أن يفتح فاه في وجهه، فأنكر سليمان بن أبي جعفر ذلك على الفضل، فغضب الرشيد لإنكار سليمان وقال: ما دخولك بين أخي ومولاي كالراضي بما كان من الفضل.

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٨.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٨؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٧.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٧.

(٤) كتاب شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٧٤.

ومما يؤيد تغير الرشيد على البرامكة ما يحدثنا به أحد المعاصرين، وهو جبريل الطيب، إذ قال إنه دخل على الرشيد يوماً وهو جالس على بساط، على مشرعة خراسان فيما بين الخلد والفرات وأم جعفر من وراء ستر، فقال لي: قد وجدت أم جعفر شيئاً فأشر عليها بما تعمل به. قال: فبينما أنا أنظر في ذلك ارتفعت صيحة عظيمة، فسأل عنها ف قيل له: يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال: بارك الله عليه، وأحسن جزاءه فقد خفف عني وحمل الثقل دوني وناب منابي وذكره بجميل فعلته مثل ذلك أم جعفر ولم تدع شيئاً يذكره أحد من جميل إلا ذكرته به، فامتألت سروراً وقلت في ذلك ما أمكنني، وخرجت مبادراً إلى يحيى بن خالد فخبرت به بذلك فسر به، ومضت مدة، ثم جاءني رسول الرشيد يوماً فصرت إليه فوجدته جالساً في ذلك المجلس بعينه وأم جعفر من وراء الستر أيضاً والفضل بن الربيع بين يديه وقد وجدت أم جعفر شيئاً فأمرني بتأمل علتها والمشورة بما أراه عليها فإني لفي ذلك إذ ارتفعت ضجة شديدة، فقال الرشيد: ما هذا؟ ف قيل: يحيى بن خالد ينظر في أمور المتظلمين، فقال: فعل الله به وفعل! يذمه ويسبّه استبد بالأمور دوني وأمضاها على غير رأبي وعمل بما أحبه دون محبتي، وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه وثلبته أكثر ما يثلب به أحد... (١).

وقد لاحظ جعفر البرمكي بنفسه هذا التغير في موقف الخليفة وكلف - في أحد الأيام - خليفه إبراهيم بن المهدي بمراقبته وقال له: إني قد استربت بأمر هذا الرجل - يعني الرشيد - وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق في نفسي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فأرمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه (٢).

وبعد أن اطلع ابن المهدي على حقيقة موقف الرشيد من البرامكة قصد

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٥ - ٢٢٦؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٨، مع الإشارة إلى أن ابن الطقطقي قد نسب الحديث إلى بختيشوع الطيب مع تغيير في النص.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩١؛ الصولي: أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق ص ٤٦.

جعفر في نفس اليوم وقال له: «رأيتَه يجد إذا هزلت ويهزل إذا جدت وهذه نهاية التغيير فقال: صدقت والله يا خليلي ونحن نستكفي الله بواذره»^(١).

وقد نصح يحيى بن خالد ابنه جعفر بعدم دخوله مع الرشيد في كل شيء اتقاء للعاقبة، نذكر أن يحيى كتب إلى جعفر يوماً حين أعيته حيلته فيه: «إني إنما أهملت لك ليعثر الزمان بك عشرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا شوى لها. قال: وكان يحيى قد قال للرشيد: «يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخله جعفر معك، ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك عليّ منك، فلو أعفيتَه واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك، كان ذلك واقعاً بموافقتي وآمن لك علي. قال الرشيد: يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل»^(٢).

وقد أرجع بعض المؤرخين^(٣) سبب النكبة إلى غضب الرشيد على البرامكة، لأن جعفر البرمكي أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي دون استئذانه. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جعفر شجّع هروب العلوي (يحيى) إلى مأمنه، في الوقت الذي كان فيه الرشيد مشغولاً بالمعارضة الشيعية وفي البحث عن العلويين الذين يمكن تواجدهم في خراسان^(٤).

بينما أرجع مؤرخون^(٥) آخرون سبب النكبة إلى اتهام البرامكة بالزندقة وإفساد الملك.

وقيل: كان من الأسباب أن الأعداء (الذين حسدوا البرامكة على المرتبة العالية التي بلغوها) نجحوا في ستر المحاسن وإظهار القبايح^(٦)، وما زالوا يسعون

(١) الصولي: نفس المصدر السابق ص ٤٦.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩١.

(٣) راجع ص ٣٨ - ٣٩ فيما تقدم.

(٤) الأصبهاني: مقاتل الطالبين ص ٤٩٣، (بالنسبة لعبد الله بن الحسين بن علي).

(٥) راجع ص ٣٥ - ٣٦ فيما تقدم.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥.

بهم إلى الرشيد ويذكرون استبدادهم بالملك واحتجازهم للأموال حتى أوغروا صدر الرشيد فأوقع بهم^(١)، وكان الفضل بن الربيع^(٢) من أشهر هؤلاء الأعداء المنافسين للبرامكة، وقد قال عنه ابن خلكان^(٣): «كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بالبرامكة ومعارضتهم، ولم يكن له من القدرة ما يدرك به اللحاق بهم، فكان في نفسه منهم إحن وشحناء».

ولما شعر البرامكة بما يضرهم لهم الفضل من حقد وحسد ومن رغبة في القضاء عليهم بدأوا بمعاكسته ورفض طلباته، إذ يحكى أن الفضل بن الربيع دخل يوماً على يحيى بن خالد البرمكي وقد جلس لقضاء حوائج الناس وبين يديه ولده جعفر يوقع في القصر فعرض الفضل عليه عشر رقاع للناس فتعلل يحيى في كل رقعة بعلة ولم يوقع في شيء منها البتة، فجمع الفضل الرقاع، وقال: أرجعن خائبات خاسئات، ثم خرج وهو يقول:

عسى وعسى يثني الزمان عنانه بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف وتحديث من الأمور أمور

فسمعه يحيى وهو ينشد ذلك، فقال له: عزمت عليك يا أبا العباس ألا رجعت، فرجع فوق له في جميع الرقاع ثم ما كان إلا القليل حتى نُكبوا على يده وتولّى بعدهم وزارة الرشيد، وفي ذلك يقول أبو النواس، وقيل أبو حذرة:

(١) ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥؛

ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧، ومن الأدلة على ذلك ما رواه الأصبهاني حيث قال: في أحد المرات أنشد أبو العتاهية الفضل بن الربيع:

ولّى الشباب فما له من حيله وما ذؤابتى المشيب خمّارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا
فلما سمع (الفضل بن الربيع) ذكر البرامكة تغير لونه ورأيت الكراهية في وجهه فما رأيت منه خيراً بعد ذلك: الأصبهاني: الأغاني ج ٣ ص ٣٢٨.

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرأ لم يرعى عهداً ليحيى غير راع زمام آل الربيع^(١)

ولما طلب الرشيد من جعفر تسليم الفضل بن الربيع، نديمه الجديد، إدارة
بريد الموصل وديار ربيعة، الموكلة حينئذ لأحد البرامكة (الفضل)، عارض يحيى
ذلك، ولكن الفضل سيأثر من ذلك بتقديمه للرشيد، بمناسبة فصله، هدية
لم يسمع بمثلها مما زاد، بالمقابلة مع تغير البرامكة، رصيده عند الخليفة وسيعود
يحيى عن قراره ولكن بعد فوات الأوان^(٢).

ولم تقف العداوة عند هذا الحد، بل اشتدت وشاعت بين أنصارهم
وخاصتهم، فمن ذلك ما يحدثنا به حماد، حيث قال:

لقي الفضل بن يحيى أبي وهو خارج من عند الفضل بن الربيع - وكانا
متجاورين في الشماسية - فقال:

من أين يا أبا إسحاق؟ أمن عند الفضل بن الربيع؟

قلت: نعم، غير متعذر من ذلك.

فقال: خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى؟ هذان والله
أمران لا يجتمعان لك^(٣).

وقائع كهذه تؤكد الحكم الذي يعطيه عبید الله بن سليمان بن وهب، إذ قال:
إذا أراد الله تعالى هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً، فمن أسباب زوال
أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع وسعي الفضل بهم وتمكُّنه من المجالسة
مع الرشيد فأوغر قلبه عليهم ومالاه على ذلك كاتبهم إسماعيل بن صبيح حتى كان

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ١١ - ١٢.

ما كان^(١).

والسعي بالبرامكة لدى الرشيد لم يقتصر على الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح . . فما بلغ إليه البرامكة من الغنى والجاء ورفعة الشأن أوغر صدور أقرب المقرّبين إليهم وحملهم على محاربتهم والمكر بهم «حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أواصر القرابة»^(٢).

وما أن شعر جعفر بكثرة أقوال الوشاة الحساد حتى بات طلبه الوحيد من الرشيد هو أن يكون مثله (أي مثل جعفر) عدواً لدوداً لهؤلاء الوشاة النمامين . . هذا ما أخبرنا به المأمون حين قال: «شهدت جعفر بن يحيى وقد ودع الرشيد، فقال: سل حاجتك يا أبا الفضل، فقال: تجعل بيني وبينك بيت كُثير، حيث يقول: وكوني على الواشين لداء شعبة كما أنا للواشي الد شغوب وهذه الحاجة ما قدر أن تقضى»^(٣).

وقيل: إن احتجاج الأموال^(٤) كان من أسباب نكبتهم، وخير دليل على ذلك ما ذكره الطبري^(٥) في حوادث سنة تسع وعشرون ومائتين عن لسان عزون بن العزيز الأنصاري أنه قال: قال الواثق: مَنْ منكم يعلم السبب الذي به وثب جدي الرشيد على البرامكة فأزال نعمتهم؟ قال عزون: فقلت: أنا والله أحدثك يا أمير المؤمنين، كان سبب ذلك أن الرشيد ذكرت له جارية لعون الخياط، فأرسل إليها فاعترضها، فرضي جمالها وعقلها وحسن أدبها، فقال لعون: ما تقول في ثمنها؟ قال: يا أمير المؤمنين، أمر ثمنها واضح مشهور، حلفت بعتقها وعتق رقيقي

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ١٦.

(٣) الحميري: كتاب الروض المعطار ص ٣٥٨.

(٤) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٣٣.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٩ ص ١٢٦ - ١٢٧.

جميعاً وصدقة مالي الأيمان المغلظة التي لا مخرج منها لي، وأشهدت عليّ بذلك العدول ألا أنقص ثمنها عن مائة ألف دينار، ولا أحتال في ذلك بشيء من الحيل، هذه قضيتها. فقال أمير المؤمنين: قد أخذتها منك بمائة ألف دينار، ثم أرسل إلى يحيى بن خالد يخبره بخبر الجارية ويأمره أن يرسل إليه بمائة ألف دينار، فقال يحيى: هذا مفتاح سوء، إذا اجتراً في ثمن جارية واحدة على طلب مائة ألف دينار فهو أحرى أن يطلب المال على قدر ذلك، فأرسل يخبره أنه لا يقدر على ذلك، فغضب عليه الرشيد وقال: ليس في بيت مالي مائة ألف دينار، فأعاد إليه: لا بدّ منها فقال يحيى: اجعلوها دراهم ليراها فيستكثرها فلعله يردها، فأرسل بها دراهم وقال: هذه قيمة مائة ألف دينار، وأمر أن توضع في رواقه الذي يمر فيه إذا أراد المتوضّأ لصلاة الظهر. قال: فخرج الرشيد في ذلك الوقت، فإذا جبل من بدر، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثمن الجارية، لم تحضر دنانير، فأرسل قيمتها دراهم، فاستكثر الرشيد ذلك ودعا خادماً له فقال: اضمم هذه إليك واجعل لي بيت مال لأضم إليه ما أريده وسماء بيت مال العروس، وأمر برّد الجارية إلى عون، وأخذ في التفتيش عن المال، فوجد البرامكة قد استهلكوه، فأقبل يهّم بهم ويمسك، فكان يرسل إلى الصحابة وإلى قوم من أهل الأدب وغيرهم فيسأمرهم، ويتعشى معهم، فكان فيمن يحضر إنسان كان معروفاً بالأدب، وكان يُعرف بكنيته يقال له أبو العود، فحضر ليلة فيمن حضره فأعجبه حديثه، فأمر خادماً له أن يأتي يحيى بن خالد إذا أصبح، فيأمره أن يعطيه ثلاثين ألف درهم، ففعل، فقال يحيى لأبي العود: إفعل، وليس بحضرتنا اليوم مال يجيء المال، ونعطيك إن شاء الله. ثم دافعه حتى طالت به الأيام، فقال: فأقبل أبو العود يحتال أن يجد من الرشيد وقتاً يحرضه فيه على البرامكة - وقد كان شاع في الناس ما كان يهّم به الرشيد في أمرهم - فدخل عليه ليلة فتحدثوا، فلم يزل أبو العود يحتال للحديث حتى وصله بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبدّ

فقال الرشيد: أجل والله، إنما العاجز من لا يستبدّ، حتى انقضى المجلس، وكان يحيى قد اتخذ من خدم الرشيد خادماً يأتيه بأخباره، وأصبح يحيى غادياً على الرشيد، فلما رآه قال: قد أردت البارحة أن أرسل إليك بشعر أنشدنيه بعض من كان عندي، ثم كرهت أن أزعجك، فأنشده البيتين، فقال: ما أحسنهما يا أمير المؤمنين! وفطن لما أراد، فلما انصرف أرسل إلى ذلك الخادم، فسأله عن إنشاد ذلك الشعر، فقال: أبو العود أنشده، فدعا الوزير يحيى بأبي العود، فقال له: إنا كنا قد لويناك بمالك، وقد جئنا مال، ثم قال لبعض خدمه: إذهب فاعطه ثلاثين ألف درهم من بيت مال أمير المؤمنين، وأعطه من عندي عشرين ألف درهم لمطلنا إياه، واذهب إلى الفضل وجعفر فقلّ لهما: هذا رجل مستحق أن يبر، وقد كان أمير المؤمنين أمر له بمال فأطلت مطلبه، ثم حضر المال، فأمرت أن يعطى ووصلته من عندي صلة، وقد أحببت أن تصلاه، فسألا: بكم وصلة؟ قال: بعشرين ألف درهم، فوصله كل واحد منهما بعشرين ألف درهم، فانصرف بذلك المال كله إلى منزله. وجدّ الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم، وأزال نعمتهم، وقتل جعفرًا وصنع ما صنع.

وفي هذا المجال، كان للرشيد بعض المآخذ الأخرى على البرامكة، فيُروى أن الرشيد خاطب يحيى — بواسطة مسرور — بعد أن أحضره من السجن قائلاً له: أنت تعلم موقع عيالي مني، فطلب منك وأنا بالبصرة ألف ألف درهم وقد كان ورد من مال فارس ستة آلاف درهم، فقلت لي: إن أخذت منها درهماً واحداً لهذا الشأن ذهبت هيبتك فأمسكت فأخذت أنت منها ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ففرقتها في عمالك^(١).

وعندما طلب الرشيد من منصور بن زياد دفع عشرة آلاف درهم وأمره بإحضارها قبل مغيب الشمس وإلاّ ضرب عنقه، أنقذه يحيى بن خالد من الموت

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٣، علماً بأن جعفر بنى داراً أنفق عليها عشرين ألف ألف درهم، راجع ص ٤٠ فيما تقدم.

بعد أن دفع المبلغ المطلوب منه^(١).

ولما طلب الرشيد عشرة آلاف درهم من جعفر بن يحيى أعطاه خمسة آلاف، وقد حصل ذلك عندما عزم الرشيد على الفصد، فقال لجعفر: يا أخي، أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء فكم تبعث إليّ مما أهيته لهنّ؟ قال: ما شاء أمير المؤمنين. قال: عشرة آلاف درهم. قال: وأين المال؟ ولكن خمسة آلاف درهم. قال: هاتها. فبعث بها إليه^(٢).

وذكر أن الرشيد أمر مسروراً أن يضرب الفضل بن يحيى مائتي سوط لإخفائه الأموال عنه^(٣)، ولما بلغ الرشيد أن ليس لديهم شيئاً من المال والجواهر، قال: «وكيف وقد نهبوا مالي وذهبوا بخزائني»^(٤).

والآن، وبعد ذكر هذه النصوص أصبح من اليسير القول أن المال كان من بين الأسباب التي حملت الرشيد على التنكيل بالبرامكة لتصبح جميع أموال الخلافة تحت قبضته يتصرف بها دون مشاركة أحد.

ويروى أن الأمين لما حلف للرشيد بما حلف له به وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر بن يحيى وقال له: «إن غدرت بأخيك خذلك الله»، حتى فعل ذلك ثلاثاً في كلها يحلف له، ولهذا السبب اضطغنت (كذا) أم جعفر على جعفر بن يحيى فكانت إحدى من حرّض الرشيد على أمره وبعثه على ما نزل به^(٥).

وكانت زبيدة أم جعفر زوج الرشيد من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدّمها أحد من نظرائها، وكان يحيى بن خالد لا يزال يتفقّد أمر حرم الرشيد ويمنعهنّ من خدمة

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٥١٠ - ٥١١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٠.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٤؛ المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٨.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٢.

(٥) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢١٥؛ الحميري: الروض المعطار ص ١٦٧.

الخدم، فشكت ذلك زبيدة إلى الرشيد، فقال ليحيى: «يا أبت، ما بال أم جعفر تشكوك؟» فقال: «يا أمير المؤمنين أمتهم أنا في حرمك وتدبير قصرِكَ عندك، فقال: «لا والله»، قال: «فلا تقبل قولها في»، قال الرشيد: «فلست أعَاودك»، فازداد يحيى لها منعاً وعليها في ذلك غلظة، وكان يأمر بإقفال أبواب الحرم بالليل ويمضي بالمفاتيح إلى منزله.

فبلغ ذلك من أم جعفر كل مبلغ فدخلت ذات يوم على الرشيد، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما يحمل يحيى على ما لا يزال يفعل بي من منعه إياي من خدمي ووضعه إياي في غير موضعي؟» فقال لها الرشيد: «يحيى عندي غير متهم في حرمي»، فقالت: لو كان كذلك لحفظ ابنه ما ارتكبه»، قال: «وما ذاك؟» فخبرته بالخبر وقصّت عليه قصة العباسة مع جعفر^(١)، فسقط في يديه، وقال لها: «هل لك على ذلك من دليل أو شاهد؟» قالت: «وأي دليل أدلّ من الولد؟» قال: «وأي الولد؟» قالت: «قد كان ها هنا فلما خافت ظهور أمره وجهته إلى مكة»، قال: «أفيعلم ذلك أحد غيرك؟» قالت: ما في قصرِكَ جارية إلّا وقد علمت به»، فأمسك عن ذلك وطوى عليه كشحاً^(٣).

وعن مسألة العباسة التي قيل أيضاً بأنها كانت السبب في حدوث النكبة يقول الطبري^(٤): «حدثني أحمد بن زهير — أحسبه عن عمه زاهر بن حرب — أن سبب

(١) ذكر الأتليدي أنه كان «بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة. فلما تملك الحجة عليه بالعنت في المكر بهم واجتهدت في هلاكهم: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٤.

(٢) جاء في «أعلام الناس» أن أرجوان الخادم أخبر الرشيد أن أخته ولدت من جعفر ثلاث بنين: «أحدهم له ست سنين والآخر له خمس سنين والثالث عاش سنتين ومات قريباً، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ وهي حامل بالرابع»: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٤.

(٣) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٣ — ٣٣٤.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٤؛ المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٤٦؛ ابن خلكان: وفيات =

هلاک جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنهما، وقال لجعفر: أزوجهك ليحلّ لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي، وتقدّم إليه ألا يمسه، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوجه منه على ذلك، فكان يحضرها مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم من مجلسه ويخليهما، فيثملان من الشراب، وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلاماً، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريتها سر، فأنتهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه، ومع من هو من جواريتها، وما معه من الحلي الذي كانت زينته به أمة، فلما حجّ هارون هذه الحجة أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به، من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه، فلما أحضروا سأل اللواتي معهنّ الصبي، فأخبرته بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة،

= الأعيان ص ٣٣٢ - ٣٣٣؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢؛ الياضي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(١) لما علم الرشيد أن جعفرًا قد خانه في أخته نادی خادمه مسروراً وقال له: «يا مسرور إذا كان الليلة بعد العتمة فأنتي بعشرة من الفعلة أجلاً ومعهنّ خادمات، قال نعم، فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التي فيها أخته، فنظر إليها وهي حامل فلم يكلمها شيء ولم يعاتبها على ما فعلت، وأمر الخادمين بإدخالها في صندوق كبير في مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هي وقفل عليها وقد علمت أنها بعد قتل أرجوان لاحقة به، فلما علم أنه استوثق بها دعا بالفعلة ومعهنّ المعاول والزناويل، فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسي، ثم قال: حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه في تلك الحفرة، ثم قال: ردوا التراب عليه، ففعلوا وسووا الموضع كما كان، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه وجلس في موضعه والفعلة والخادمان بين يديه، ثم قال: يا مسرور يا مسرور خذ هؤلاء القوم واعطهم أجرتهم فأخذهم مسرور وجعلهم في جواليق وخط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في الدجلة: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٥.

فأراد - فيما زعم - قتل الصبي ثم تخوف من ذلك^(١). وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسفان فيقره إذا انصرف شاخصاً من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتل عليه الرشيد ولم يحضر طعامه ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار فكان عن أمره وأمر أبيه ما كان.

وروى المسعودي في «مروجه» أن العباسية هي التي أوصلت جعفر إلى النهاية المشؤومة بعد أن استمالت أمه بالهدايا والألطف ونفيس الجواهر وكثير الأموال، فاستجابت أم جعفر لها وجمعت بينها وبين ابنها على أنها إحدى الجواري. فلما قضى حاجته منها عرف جعفر حقيقة الأمر فأقبل على أمه، وقال: لقد بعثني بالثمن الخسيس وحملتني على المركب الوعر، فانظري إلى ما تؤول إليه حالي^(٢).

هذه الحادثة بحاجة إلى إثبات لأن أكثر من مؤرخ طعن بها، فابن خلدون^(٣) نفى هذه الحادثة في مقدمته وقال عن العباسية:

«فهي بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ ابنه خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قريبة عهد ببداوة

(١) روى «الأثليدي» أنه بعد قتل البرامكة أحضر الرشيد من مكة ولّذي جعفر من أخته «فلما رأهما أعجب بهما وكانا في نهاية من الحسن والجمال فاستنطقهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفي ألفاظهما عذوبة وبلاغة، فقال لكبيرهما ما اسمك يا قرّة عيني؟ فقال: الحسن، وقال للصغير ما اسمك يا حبيبي؟ قال: الحسين، فنظر إليهما وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: يعزّ علي حسنكما وجمالكما لا رحم الله من ظلمكما، ولم يدريا ما يراد بهما... ثم... ودعا مسروراً وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما: الأثليدي: أعلام الناس ص ١٤٨.

(٢) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ١٥.

العروبية وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا أفقدا من بيتها، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكه جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشرف قريش وغايته أن جذبت دولتهم بصيغة وصبغ أبيه واستخلصتهم ورقتهم إلى منازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد صحته وعظم آبائه ولونظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسية بآبنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجّ في تكذيبه، وأين قدر العباسية والرشيد منهم».

ويروي الجهشيارى^(١) في كتاب الوزراء والكتاب أن أحد الأدباء (عبيد الله بن يحيى ابن خاقان) سأل مسروراً عن سبب إيقاع الرشيد بالبرامكة، فأجابه مسرور: «كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟ فقال له: «ما أردت غيره»، فقال: «لا والله ما لشيء من هذا أصل ولكنه من ملل موالينا وحسدهم». وعن هذه القصة يقول ابن كثير^(٢): «ومن العلماء من أنكر ذلك».

ويؤيد ذلك ابن حزم^(٣)، الذي يقول: إن العباسية تزوّجها محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، ونقلها إلى البصرة، «وابن قتيبة^(٤) الذي يستدلّ من كلامه أن العباسية كانت متزوجة من هارون بن محمد بن سليمان وبعد وفاته تزوجت من إبراهيم بن صالح بن علي»، كما أننا نلاحظ أن كلاً من الأصبهاني في «الأغاني» واليعقوبي في «تاريخه» لا يأتیان على ذكر هذه الحادثة.

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٩.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٢٢.

(٤) ابن قتيبة: المعارف ص ٣٨٠.

وكان من الأسباب أيضاً ما ذكر عن موسى بن يحيى، إذ قال: خرج أبي إلى الطواف في السنة التي أصيب فيها وأنا معه من بين ولده، فجعل يتعلق بأستار الكعبة، ويردد الدعاء ويقول: اللهم ذنوبي جمّة عظيمة لا يحصيها غيرك، ولا يعرفها سواك، اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري، ومالي وولدي، حتى تبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة^(١). وسمع يقول أيضاً في ذلك المقام: اللهم إن كان رضاك في أن تسلبني نعمتك عندي فاسلبني، اللهم إلّا الفضل، قال: ثم ولّى ليمضي، فلما قرب من باب المسجد كرّ مسرعاً، ففعل مثل ذلك وجعل يقول: اللهم إنه سمج بمثلي أن يرغب إليك ثم يستثنى عليك... اللهم والفضل^(٢).

ويذكر ابن العماد في كتابه «شذرات الذهب»^(٣)، أن الرشيد نكب البرامكة لأنه رأى إقبال الناس عليهم وكثرة اتباعهم وأشياءهم مع الإدلال العظيم منهم»، وكذلك ذكر الفخري^(٤) «أن جعفرًا والفضل ظهر منهما من الإدلال ما لا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك»، كما أشار اليافعي^(٥) إلى خوف الرشيد منهم: «لأنه رأى أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم وآمالهم فيهم ونظرهم إليهم دونه».

ويحكى أنه حين رأى الرشيد اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب قصر جعفر، اغتم لذلك وقال لإسماعيل بن صبيح: انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب وأنا ما على باب داري أحد... أنظر إلى دوابهم

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٢٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٣١٢-٣١٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٦؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٩.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٣١٢.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٩.

(٥) اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥.

ألسـت ترى إعـجـازهم إلى قصـدي وتـروت بإـزائنا ونـحن ننـظر إليها واللـه هـذا هـو الاستـخفاف بعـينه واللـه لا أصـبر علـى ذلـك، ثم غضب غضباً شديداً وامتلأ غيظاً.

وفي أحد الأيام وبينما كان الرشيد في طريقه إلى الصيد نظر بعيداً فشاهد موكب جعفر الضخم، ولما غاب عنه هذا الموكب التفت إلى موكبه فإذا هو شزيمة سيرة فقال لأحد أتباعه: «ما رأنا [أي جعفر] أهلاً أن يزينا بموكبه ويحملنا بجيشه»^(١).

ومن شدة كراهيته لهم كان الرشيد يغضب إذا سبقت خيل جعفر خيله^(٢).

ومن المحتمل أن تكون المدة الطويلة التي حكمها البرامكة (سبعة عشر عاماً) قد أدت إلى ضجر الرشيد منهم وإلى ميله لإبدالهم فأوقع بهم، ويشير إلى ذلك ما ورد على لسان يحيى بن خالد عندما أبلغه جبريل ذم الرشيد له... عندما ارتفعت ضجة شديدة على بابه بعد مدحه له سابقاً. إذ قال: «إنه لم يكن مني في هذه الحال التي ذموني فيها شيء لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمدني فيه، ولكن المدة إذا آذنت بالانقضاء جعلت المحاسن مساوية، ومن أراد أن يتجنى قدر نسأله حسن الاختيار»^(٣).

ولمّا سئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد، قال: «والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان، رضي الله

(١) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٢.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٦.

عنه، حتى قتلوهما»^(١).

وقد علّل ابن خلدون^(٢) أسباب النكبة بكلمة ذكرها في مقدمته، فقال:

«إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاناتهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم، وعمرؤا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم. يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة، حتى شب في حجره ودرج من عشه، وغلبه على أمره، وكان يدعوه يا أبت، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء، وطوقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلوات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك حتى أسفوا البطانة وأحققوا الخاصة، وأغصوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من الحسد، عواطف الرحم، ولا وزعتهم أواصر القراية، وقارن ذلك عند مخدومهم نواشىء الغيرة، والاستنكاف من الحجر والأنفة

(١) اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص ٤١٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص ١٥ - ١٦.

وكان الحقوق التي بحثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كباثر المخالفة». (انتهى كلام ابن خلدون).

قد تكون نكبة البرامكة نتيجة لسبب بعينه من هذه الأسباب التي ذكرها المؤرخون وربما كانت نتيجة لتضافر هذه الأسباب مجتمعة، ولكننا لا نعلم علم اليقين السبب العميق لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة، لأن الرشيد لم يفصح عنه لأي إنسان. ويخبرنا اليعقوبي^(١) عن تكتم الرشيد في هذا الأمر، فيروي أن الرشيد كان يقول: «لو علمت يميني بالسبب الذي له فعلت هذا لقطعته». . وكذلك الطبري^(٢) الذي ذكر أن الرشيد خاطب السندي قائلاً: «قد بعثت إليك في أمر لو علم به زر قميصي رميت به في الفرات». . وكذلك ابن خلكان^(٣) القائل: «حكى ابن بدرون أن عليّة بنت المهدي قالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: يا سيدي، ما رأيت لك يوم سرور تام منذ قتلت جعفرًا، فلأي سبب قتلته؟ فقال لها: «يا حياتي، لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لمزقته».

لذلك أصبحت مهمة المؤرخ صعبة في كشف حقيقة الأمر الذي ربما يرجع إلى عدم رغبة الخليفة في أن تنشأ إلى جانب سلطته سلطة أقوى منها وبلاط آخر يضاهي بلاطه، لقد شعر الخليفة أنه بلا سلطان ولم يعد له مع البرامكة تصرف في أمور ملكه، فنفوذهم السياسي طغى على نفوذه وأصبحت أموال الخلافة وخيراتها كلها في أيديهم^(٤).

(١) اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٤٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٦؛ الصولي: أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق ص ٥٧.

(٤) وما جاء على لسان الرشيد: «استبد يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها»: ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٨، وقوله: «ما عُدَّ البرامكة بني هاشم إلا عبيدهم، وإنهم هم الدولة وإن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها»: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٢، وقوله أيضاً: =

هذا الوضع دفع الرشيد إلى التفكير في إيجاد حل لهذا الصراع القائم بين سلطة الخلافة وسلطة الوزارة فكانت نكبة البرامكة العنيفة بعد هذا التطور النفساني الطويل، التي بتنفيذها يكون الرشيد قد طبق الحكمة الهندية القديمة القائلة: «إذا عرف الملك رجلاً قد كاد أن يساويه في المنزلة والرأي والهيئة والمال والمنع فليصرعه فإنه إن لم يفعل ذلك كان هو المصروع»^(١)، والتي يمكننا اعتبارها بمثابة نتيجة حتمية للسياسة الاعتباطية المتبعة من قبل الخلفاء إزاء وزرائهم، تلك السياسة التي تبشر بالسقوط المقبل للموظفين الذين سينجحون في اكتساب المسؤولية والثروة والمجد بدون أن يتحرروا أبداً من سلطة العاهل التابعين له مباشرة، هكذا نكّل أبو العباس السفّاح بوزيره أبي سلمة الخلال، والمنصور بأبي أيوب المورياني، والمهدي بيعقوب بن داود، وأخيراً المأمون بالفضل بن سهل... ولكن أياً من هؤلاء الوزراء لم يصل إلى المرتبة التي احتلها البرامكة، الأمر الذي أحدث صدى كبيراً لنكتبهم التي لم يخلُ من ذكرها كتاب من كتب التاريخ.

ويظهر أن نكبة البرامكة لم تكن نزوة عابرة أو رغبة فجائية للخليفة، وإنما كانت مرتبة ترتيباً مسبقاً ونفذت عن سابق تصوّر وتصميم، فقد جاء في كتاب «التاج» المنسوب للجاحظ^(٢) أن الخادم مسرور قال: «أشهد بالله لكنت من الرشيد وهو متعلق بأستار الكعبة بحيث يمس ثوبي ثوبه وهو يقول في مناجاته ربه: اللهم إني أستخيرك في قتل جعفر بن يحيى». ثم قتله بعد ذلك بخمس سنين أو ست.

وقال بعض الهاشميين: كنت أساير الرشيد يوماً والأمين عن يمينه والمأمون عن شماله، فاستدنانني وقدمهما أمامه، فسايرته، فجعل يحدثني، ثم بدأ يشاورني

«... فلإني خائف أن يخرج الأمر من يدي أن تمكنوا (أي البرامكة) من خراسان وتغلبوا

عليها»: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٤، هو خير دليل على صحة ما أشرنا إليه.

(١) ابن المقفّع: كليله ودمنة ص ٨٦؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١١.

(٢) الجاحظ: التاج ص ٧٣ - ٧٤.

في أمر البرامكة وأخبرني بما أضمر عليه لهم وأنهم استوحشوه من أنفسهم وأنني عنده بالوضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تنقلني من السعة إلى الضيق. فقال الرشيد: ألا إن تقول فلاني لا أتهمك في نصيحة ولا أخافك على رأي ولا مشورة. فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة ولك أن تأمر وتنهاي وهم عبيد لك بإنباثك إياهم، فهل يصنعون ذلك كله إلا بك؟ قال: وكنت أحطب في حبال البرامكة، فقال لي: فضياعهم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي بذلك لهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يحسد ولا يحقد ولا ينعم نعمة ثم يفسد نعمته. قال: فرأيتك قد كره قولي وزوى وجهه عني. قال إسحق: فعلمت أنه سيوقع بهم. ثم انصرفت فكتمت الخبر، فلم يسمع به أحد. وتجنبنا لقاء يحيى والبرامكة خوفاً أن يظن أنني أفضي إليهم بسرّه. حتى قتلهم، وكان أشد ما كان إكراماً لهم. وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم^(١).

وقال إسماعيل بن صبيح: بعث إليّ الرشيد يوماً وهو ببغداد فدخلت. فلم أرَ في المقاصير والأروقة أحداً، حتى انتهيت إليه، فقال: يا إسماعيل هل رأيت في الدار أحداً؟ فقلت: لا والله! قال: فطف المجالس والأروقة والمقاصير! فطفت فلم أجد أحداً! فقال: عد ثالثة، فعدت، ثم قال: خذ ذلك الكرسي فأخذه، وخرج وفي يده عامود حتى صار إلى وسط الصحن ثم قال: ضع الكرسي! فوضعت، فجلس عليه والعامود في يده ثم قال: إجلس! فأوجست نفسي خيفة، وجلست، فقال: إني أريد أن أفشي إليك سراً، والله لئن سمعته من أحد من الناس لأضربن عنقك! فتراجعت نفسي، وقلت: إن كنت يا أمير المؤمنين قلته لأحد، أوتقوله، فلا حاجة بي إليه. فقال: ما قلته لأحد، ولا أقوله، إني أريد أن أوقع بآل برمك إيقاعاً ما أوقعته بأحد وأجعلهم أحدى ونكالا إلى آخر الأبد^(٢).

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٦٦.

(٢) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢٢.

ويُروى أن الرشيد حين رأى طول عنق جعفر أخذ يتأمله تأملاً شديداً، فرآه جعفر وهو يتأمل، فقال له: ما تتأمل أمير المؤمنين؟ قال: حسن عنقك وحسن موقع الجربان منه، فقال له: لا والله، ما تأملت إلا موضع سيفك فيه، فقال له: أعيذك بالله من هذا القول.. واعتنقه وقبّله. ثم قال للفضل بن الربيع: قاتل الله جعفرًا! وذكر له هذا الخبر وقال: ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منها^(١).

وعن تدبير الرشيد في قتل جعفر، يُروى أن الرشيد قال للسندي بن شاهك، وكان يلي الجسرين ببغداد: إذا كان بعد سنة من يومك هذا فوكل بدور البرامكة وأسبابهم سرّاً، وبعد مرور السنة وكل دور البرامكة سرّاً. وبات ليلته ينتظر خبراً يرد عليه من الرشيد، فلما كان في السحر وافاه رسول على بغل تحته خرج فيه جثة جعفر مقطوعة نصفين وكتاب الرشيد إليه بصلب كل نصف على أحد الجسرين، ففعل ذلك^(٢).

وحتى عامة الناس فقد أدركت ما يجول في خاطر الرشيد تجاه البرامكة وما يهيأه لهم من شر، ويؤيد ذلك ما ذكره المغني إسحق الموصلي عندما سأله الرشيد مرة: «بأي شيء يتحدث الناس؟» فقال: يتحدثون بأنك تقبض على البرامكة وتولي الفضل بن الربيع الوزارة، فأظهر الرشيد الغضب وصاح به: «ما أنت وذاك؟ ويلك فأمسك^(٣). ولكن ليس من يجرؤ على إبلاغ البرامكة بما ينتظرهم من سوء المصير، بل كانوا يلمحون إليه أثناء الغناء فابن زكار كان يغني جعفرًا أحياناً:

ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنا
إنما همتهم أن يظهروا ما قد دفننا^(٤)

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(٤) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٨.

هذا فضلاً عن عزل الرشيد لمحمد بن خالد بن برمك عن الحجابة في سنة ١٧٩هـ، حيث ولاها الفضل بن الربيع^(١) (عدو البرامكة) ثم عزل جعفر بن يحيى عن خراسان (سنة ١٨٠هـ) بعد عشرين يوماً من توليته أياها وقلّده قيادة الحرس^(٢) التي عزله عنها فيما بعد وأسندها إلى هرثمة بن أعين^(٣)، وكذلك غضب على الفضل بن يحيى وصرفه عن خراسان وولاها علي بن عيسى بن ماهان^(٤) (عدو البرامكة أيضاً).

وجاء في الطبري^(٥) أن الرشيد في سنة ١٨٠هـ سمّى علي بن عيسى بن ماهان والياً على خراسان ضد رغبة وزيره يحيى بعد أن كان يتبع آراءه دائماً حتى أنه كان يطلبها بالبحاح في المناسبات الخطيرة (بعد موت المهدي مثلاً)^(٦)، وبعد أن كان قد فوّض إليه جميع أموره بدءاً من سنة ١٧٨هـ^(٧) (كما مرّ معنا). هذا عدا عن استجابة الرشيد لطلبه (أي يحيى) في اعتزال الحكم والمقام في مكة في حجة سنة ١٨١هـ^(٨).

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى تسقط الرشيد لأخبار البرامكة وتبّعه سرّاً لتصرفاتهم وممارساتهم^(٩)، عن طريق جواسيسه المنتشرين في كل مكان، لا سيما

-
- (١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٣.
 - (٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٦.
 - (٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٧.
 - (٤) نفس المصدر ص ٢٢٧ - ٢٢٨.
 - (٥) أشار يحيى على الرشيد بيزيد بن مزيد والياً على خراسان مكان علي بن عيسى بن ماهان، فلم يقبل الرشيد مشورته. راجع تاريخ الطبري ج ٨ ص ٣١٤ - ٣١٥.
 - (٦) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٨٧.
 - (٧) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٦.
 - (٨) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٦٨.
 - (٩) «كان الرشيد من أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً»: الجاحظ: التاج ص ١٧٠.

بواسطة خادم من خاصة خدمه وأنبلهم، وهبه (أي الخليفة) لجعفر بن يحيى «فسر جعفر سروراً كاملاً ووقع في قلبه أجل موقع وكان دسيساً عليه وبلية لديه يرفع أخباره إلى الرشيد»^(١)، ويحصي عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتاً بوقت».

وهكذا نرى أن نكبة البرامكة لم تكن نتيجة رغبة فجائية للرشيد، بل كانت مبيتة من زمان طويل أقدم عليها وفق خطة مرسومة تعرضت للتنقيح والتعديل أكثر من مرة. حتى نفذت بحذافيرها في الوقت المعين. وهذه الاستعدادات المدروسة إن دلت على شيء فإنها تدلّ على أهمية البرامكة وخطورة شأنهم. هذا مع الإشارة

(١) من بين الأخبار العديدة التي نقلها هذا الخادم إلى الرشيد نصيحة مرفوضة قدمها إسماعيل بن يحيى الهاشمي إلى الوزير جعفر بن يحيى رواها «الأثليدي» في كتابه «أعلام الناس»، فقال: قال إسماعيل بن يحيى الهاشمي: «... فلما خلا مجلسه «أي مجلس جعفر» ولم يبقَ عنده غيري وذلك الخادم واقف وعلمت أن الخادم يحصي علينا أخبارنا فقلت: أيها الوزير نصيحة أفتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم، وكان الرشيد ولاء كورة خراسان كلها وما يضاف إليها وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام وخلع عليه وعقد له لواء وعسكراً بالنهر وان وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر فقلت: يا سيدي أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلك عندك؛ فلما قلت ذلك نظر إلي مغضباً وقال: والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك أوقال صاحبك إلا بفضلي ولا قامت هذه الدولة إلا بنا أما كفى أني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه ولده حاشيته ورعيته؟ وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً ولا زلت للأمور الجليلة أدبرها حتى يمد عينيه إلى ما أدخرته وأخذته لولدي وعقبتي من بعدي، وداخله حقد بني هاشم وبغيتهم ودب فيه الطمع، والله لئن سألتني شيئاً من ذلك ليكونن وبالأعلى عليه سريعاً، فقلت: والله يا سيدي ما كان مما ظننت شيء ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف، قال: فما هذا الفضول منك؟ فقعدت بعدها هنيهة ثم قمت إلى منزلي ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد، لأنني صرت بينهما في حال تهمة وقلت في نفسي: هذا الخليفة وهذا وزيره، وأي شيء لي بالدخول بينهما؟ ولا شك في زوال نعمة البرامكة وأن أمورهم قد انشلمت... فلما قرأ (الرشيد) الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام متفكراً في إيقاع الحيلة على البرامكة». الأثليدي: أعلام الناس ص ١٤٣.

إلى أنّ الرشيد قبيل النكبة كان قد وجد نفسه والدولة قد استنفذا أغراضهما من
البرامكة وأصبح مجدهم على حساب الدولة يفوق منفعتهم لها أو أن خطرهم
المحتمل قد يكون — في رأي الرشيد — أكبر من نفعهم، إذا كانت لهم منفعة باقية.

* * *

مَقْتَلُ جَعْفَرٍ

إذا كان السبب الحقيقي لحدوث نكبة البرامكة، لا يزال حتى الآن، لغزاً عصياً على الفهم والتأويل، فالذي لا شك فيه أن الأسباب العديدة - التي مرّ ذكرها - والمؤدية إلى نكبتهم قد تعاونت مجتمعة فنفذت إلى وجدان الرشيد وساهمت في خفت روح التسامح التي تميز بها، ودفعته إلى اقتراف حادثة قتل وتنكيل حُفر اسمها بعمق على جدار التاريخ.

روى الطبري «أن الرشيد حجّ في سنة ست وثمانين ومائة، وأنه انصرف من مكة فوافى الحيرة في المحرم من سنة سبع وثمانين ومائة عند انصرافه من الحج، فأقام في قصر عون العبادي أياماً ثم شخص في السفن حتى نزل العمر الذي بناحية الأنبار، فلما كان ليلة السبت لانسلاخ المحرم^(١) أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند فأطافوا (كذا) بجعفر بن يحيى ليلاً ودخل عليه مسرور وعنده ابن بختيشوع المتطيّب، وأبوزكار الأعمى المغني الكلوزاني، وهو في لهوه، فأخرجه إخراجاً عنيفاً يقوده، حتى أتى به المنزل الذي فيه الرشيد^(٢)، فحبسه وقيد به بقميد حمار، وأخبر الرشيد بأخذه إياه ومجيئه به، فأمر

(١) أراد جعفر الخروج إلى خراسان يوم الجمعة ولكن الرشيد طلب إليه البقاء حتى صباح السبت، فوافق جعفر على ذلك بعد أن أخذ الطالع: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٦.

(٢) لما دخل جعفر الباب الأول أوقف الجند، وفي الثاني أوقف الغلمان، فلما دخل الباب =

بضرب عنقه ففعل ذلك»^(١).

ويضيف الطبري^(٢) قائلاً: «أن مسرور الخادم قال: أرسلني الرشيد لأتيه بجعفر بن يحيى لما أراد قتله فأتيته وعنده أبو زكار الأعمى المغني وهو يغنيه:

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرُق أو يغادي

قال: فقلت له: يا أبا الفضل، الذي جئت له من ذلك قد والله طرُقك، أجب أمير المؤمنين. قال: فرفع يديه، ووقع على رجلي يقبلهما، وقال: حتى أدخل فأوصي، قلت: أما الدخول فلا سبيل إليه^(٣)، ولكن أوصي بما شئت، فتقدم في وصيته بما أراد، وأعتق مماليكه، ثم أتتني رُسل أمير المؤمنين تستحثني به، قال: فمضيت به إليه فأعلمته، قال لي وهو في فراشه: اثنتي برأسه، فأتيت جعفرًا فأخبرته، فقال: يا أبا هاشم الله! الله! الله! والله ما أمرك بما أمرك به إلا وهو سكران، فدافع بأمرى حتى أصبح أؤامره في ثانية، فعدت لأؤامره، فلما سمع حسي، قال: يا ماص بظر أمه، اثنتي برأس جعفر! فعدت إلى جعفر، فأخبرته، فقال: عاوده في الثالثة، فأتيته، فحذفني بعمود ثم قال: نفيت من المهدي إن أنت جئتني ولم تأتني برأسه، لأرسلن إليك من يأتيني برأسك أولاً، ثم برأسه آخرًا. قال: فخرجت فأتيته برأسه.

= الثالث التفت فلم يرَ أحداً من غلمانهِ، ولا الخادم ألفرد فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع. وقد فعل مسرور الخادم كل ذلك بناءً لأوامر الرشيد المسبقة: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٦.

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٩٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٨.

(٣) بعد رجاء مُلِح من جعفر (ربما وهبه خمسين ألف دينار إذا اعتقدنا بقول الجهشيارى: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٤، قَبِل مسرور أن يأخذه أسيراً حتى قصر الخليفة. وذكر عن مسرور أنه أعلم الرشيد أن جعفرًا سأله أن تقع عينه عليه، فقال: لا، لأنه يعلم إن وقعت عيني عليه لم أقتله؛ الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠، ولكن جعفر أعدم دون أن يحصل على مقابلة الرشيد: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٤).

ويضيف الطبري^(١) قائلاً: «وأمر الرشيد في تلك الليلة بتوجيه من أحاط يحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه، ومن كان منهم بسبيل، فلم يفلت منهم أحد كان حاضراً، وحول الفضل ابن يحيى ليلاً فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى بن خالد^(٢) في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك^(٣)، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها، ووجه من ليلته رجاء الخادم إلى الرقة في قبض أموالهم وما كان لهم، وأخذ كل ما كان من رقيقهم ومواليهم وحشمهم، وولاة أمورهم، وفرق الكتب من ليلته إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. فلما أصبح بعث بجثة جعفر بن يحيى مع شعبة الخفثاني وهرثمة بن أعين وإبراهيم بن حميد المروذي، واتبعهم عدة من خدمه وثقاته، منهم مسرور الخادم، إلى منزل جعفر بن يحيى، وإبراهيم بن حميد وحسين الخادم إلى منزل يحيى ومحمد بن يحيى وجعل معه هرثمة بن أعين وأمر بقبض جميع ما لهم، وكتب إلى السندي الحرشي بتوجيه جيفة جعفر إلى مدينة السلام ونصب رأسه على الجسر الأوسط وقطع جثته، وصلب كل قطعة منها على الجسر الأعلى والجسر الأسفل^(٤)، ففعل

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٢) ذكر الجهشيارى أن يحيى لم يحبس وبقي في منزله موكلًا به، ثم وجه إليه الرشيد يخبره: أي موضع شئت فأقم به فوجه إليه: إن كنت راضياً عني فأحب المواضع إليّ أن أقيم فيه مكة أو بعض الثغور، وإن لم ترض عني فلست أبرح من موضعي أو ترضى عني: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) كذلك اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢١ - ٤٢٢؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٧٨ والبرامكة باستثناء جعفر كانوا لا يملكون في ذلك الوقت مبالغ طائلة من المال: انظر الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٠ - ٢٤١، ولكن أملاكهم العقارية كانت كثيرة. انظر الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٩ - ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) كذلك ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٨، وجاء في العقد الفريد: أن الرشيد أمر بجيفة جعفر وجثته، ففصلت على ثلاثة جذوع: رأسه في جذع على رأس الجسر مستقبل الصرّة، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائرته في جذع على آخر الجسر الثاني =

السندي ذلك، وأمضى الخدم ما كانوا وجهوا فيه، وحمل عدة من أولاد الفضل وجعفر ومحمد الأصغر إلى الرشيد، فأمر بإطلاقهم وأمر بالنداء في جميع البرامكة: ألا أمان لمن أوامهم إلا محمد بن خالد^(١) وولده وأهله وحشمه فإنه استثناهم، لما ظهر من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. وخلق سبيل يحيى قبل شخوصه من العمر.

وكل بالفضل ومحمد وموسى بنى يحيى، وبأبي المهدي صهرهم حَفَظَة من قبل هرثمة ابن أعين، إلى أن وافى بهم الرقة فأمر الرشيد بقتل أنس بن أبي الشيخ يوم قدم الرقة وتولى قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك ثم صلب. وحبس يحيى بن خالد مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حَفَظَة من قبل مسرور الخادم وهرثمة بن أعين، ولم يفرّق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه، وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل، ودنانير جارية يحيى وعدة من خدمهم وجواريهم، ولم تنزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد علي عبد الملك بن صالح فعمهم بالثقيف بسخطه^(٢) وجدّدوا لهم التهمة عند الرشيد، فضيق عليهم.

= مما يلي بغداد: ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٦١، وذكر الأصبهاني: أن المغني أبو زكار طلب مقاسمة سيده جعفر نفس المصير ولكن الرشيد منحه الحياة وأمن له نفس المعاش الذي كان يتقاضاه من جعفر: الأصبهاني: الأغاني ج ٦ ص ٤٤٦.

(١) كذلك الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٤؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٨؛ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢٣.

(٢) كذلك ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩، وبالنسبة للمعاملة في السجن، فقد ذكر الجهشيارى: إن الرشيد كان أحياناً يوسّع عليهم وأحياناً يضيق عليهم على حسب ما يرقى إليه أعداؤهم ويمسكون عنهم: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٢، بينما أشار المسعودي إلى أن الرشيد كان يقسو عليهم ويأمر بضربهم، وقد أخضع الفضل للتعذيب وذلك عندما أمر مسروراً بضربه مائتي سوط لمعرفة المكان الذي يخبى فيه أمواله: المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٨؛ الجهشيارى: الوزراء =

وقال محمد بن إسحاق^(١): فلم يزل جعفر مصاباً حتى أراد الرشيد الخروج إلى خراسان، فمضيت فنظرت إليه، فلما صار بالجانب الشرقي على باب خزيمة بن خازم، دعا بالوليد بن جشم الشاري من الحبس، وأمر أحمد بن الجعيد المختلي – وكان سيّافه – فضرب عنقه، ثم التفت إلى السندي فقال: ينبغي أن يحرق^(٢) هذا – يعني جعفرأ – فلما مضى جمع السندي له شوكاً وحطاً^(٣) وأحرقه.

ويضيف محمد بن إسحاق قائلاً: «لَمَّا قتل الرشيد جعفر بن يحيى، قيل ليحيى بن خالد: قتل أمير المؤمنين ابنك جعفرأ، قال: كذلك يقتل ابنه. قال: فقيل له: خربت ديارك، قال: كذلك تخرب دورهم»^(٤).

والكتاب ص ٢٤٤؛ ابن خلكان: وفيسات الأعيان ج ٤ ص ٣٣؛ البيهقي: المحاسن والمساوي ص ٥٢٧. وهناك روايات عديدة شاعت حول المعاملة السيئة التي لاقوها في السجن أو على العكس حول المعاملة التي تتعلق بالهدايا والأعطيات الباذخة أحياناً التي حصلوا عليها فجعلتهم يأملون بالعودة إلى الحظوة. وفيما يتعلق بحادثة إرسال الدواج من قبل الخليفة في فترة البرد القارس. انظر بالإضافة إلى الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٦ – ٢٤٨؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٥٦ – ٢٥٩، أما بالنسبة لرواية السكاجة انظر بالإضافة للجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٥؛ ابن خلكان: وفيسات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٨.

- (١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٨.
- (٢) البعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤٢٥، (عند خروج الرشيد إلى الري سنة ١٨٩هـ)؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٧، (خلال سنة)؛ الدينوري ص ٣٨٧، (قبل الخروج إلى خراسان سنة ١٨٩هـ)، وفيما يخص نفقات حرق الجثة. انظر تنوخي: نشوار ج ٨ ص ١١٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩٢.
- (٣) جاء في العقد الفريد: إن الرشيد نضح عليه بالناضحات حتى احترق عن آخره وهو يقول: لئن ذهب أثرك لقد بقي خبرك، ولئن حط قدرك لقد علا ذكرك: ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٦١.
- (٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩٩؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٤؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩٢.

وقال سلام الأبرش: لَمَّا دخلت على يحيى في ذلك الوقت - وقد هتكت الستور ورجع المتاع - قال لي: يا أبا سلمة: هكذا تقوم الساعة^(١).

وَقُتِل جعفر بن يحيى في ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة سبع وثمانين ومائة، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وكانت الوزارة إليهم سبع عشرة سنة^(٢).

وفي ذلك يقول الرقاشي:

أيما سبت يا شرَّ السبوت صبيحة ويا صفر المشؤوم ما جئت أشأما
أتى السبت بالأمر الذي هدَّ ركننا وفي صفر جاء البلاء مصمما^(٣)

وهذه المأساة التاريخية أخفت على الرشيد صورة جديدة، حملت بعض المستشرقين أمثال أسبورن^(٤) (Osborne) وموير^(٥) (Muir)، على وصفه الجور والخيانة وعدم الأمانة.

وروى اليعقوبي في «تاريخه» أنَّ يحيى البرمكي كتب إلى الرشيد من الحيرة يستعطفه ويذكر له حرمة وتربيته فوقَّع على ظهر رقعته: إنما مثلك يا يحيى ما قال الله عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٦).

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٨٩؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠.

(٤) Osborne, Robert: *Islam under the Khalifs of Baghdad* p. 203.

(٥) Muir, William: *The Chaliphate* p. 476.

(٦) اليعقوبي: تاريخ ج ٢ ص ٤٢٣؛ البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٥٣٨، مع ذكر هذه الأبيات عن لسان الرشيد:

وقد طلب الرشيد من يحيى بن خالد الاعتراف بأن عبد الملك بن صالح طمع في الملك مقابل إعادته إلى حاله، ولكن يحيى أنكر ذلك ففرق الرشيد بينه وبين ابنه الفضل مدة ثلاثة أيام ثم جمعهما. وقد حدّثنا الطبري^(١) عن ذلك، فقال:

ذكر أن الرشيد بعث في بعض أيامه إلى يحيى بن خالد: أن عبد الملك بن صالح أراد الخروج ومنازعتي في الملك، وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صدقتني أعدتك إلى حالك، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك، لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه عليّ ولي، فكيف لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني، وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل أكثر من فعلك! أعيدك بالله أن تظن بي هذا الظن ولكنه كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فولّيته، لما أحمدت من مذهبه ومِلت إليه لأدبه واحتماله، قال: فلما أتاه الرسول بهذا أعاد إليه، فقال: إن أنت لم تقرّ عليه قتلت الفضل ابنك، فقال له: أنت مسلط علينا فافعل ما أردت، على أنه إن كان من هذا الأمر شيء. فالذنب فيه لي فيمّ يدخل الفضل في ذلك، فقال الرسول للفضل: قم، فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودّع أباه وقال له: ألسنت راضياً عني؟ قال: بلى، فرضي الله عنك، ففرّق بينهما ثلاثة أيام، فلما لم يجد عنده من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا.

=

يا آل برمك إنما	كنتم ملوكاً عادية
فطغيتم وبغيتم	وكفرتم نعمائية
هذه عقوبة من عصي	من فوقه وعصانية
كنتم كشيء قد مضى	أحلام نوم سارية

ونشير هنا إلى أن عبد ربه الأندلسي ذكر في كتابه «العقد الفريد» أن يحيى لم يكن له جواب من الرشيد على كتابه، العقد الفريد ج ٥ ص ٦٨ - ٦٩.

(١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

ولم يزل يحيى وابنه الفضل محبوسين حتى ماتا بالرقعة^(١)، إذ مات يحيى في المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علّة، وصلى عليه ابنه الفضل ودُفن في شاطئ الفرات^(٢)، ووُجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطه: قد تقدم الخصم، والمدعى عليه في الأثر والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يحتاج إلى بيّنة. فحملت الرقعة إلى الرشيد فلم يزل يبكي يومه كله وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه^(٣)، أما الفضل فقد مات في المحرم سنة ثلاث وتسعين ومائة قبل وفاة الرشيد بخمسة أشهر وهو في خمس وأربعين سنة وجزع الناس عليه وصلى عليه إخوانه في القصر الذي كانوا فيه قبل إخراجهم، ثم أخرج فصلّى الناس على جنازته^(٤).

أما بالنسبة لابني يحيى الآخرين: محمد وموسى، فقد بقيا في الحبس بالرقعة حتى تولّى الخلافة محمد الأمين، فأطلق سراحهما.

وبينما التحق محمد بالمأمون، بقي موسى يقاتل في صفوف الأمين وبذل نفسه في الدفع عنه، ولم يفارقه حتى قتل وانضم إلى هرثمة واجتمع معه على حرب أبي السرايا، وخاض تلك الفتن المشهورة فلما ورد المأمون العراق صار إليه فبرّه وأكرمه وقدمه وانبسط إليه في المشورة والرأي حتى غلب عليه^(٥).

(١) ابن قتيبة: المعارف ص ٣٨٢؛ المقدسي: البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٠٥، ونشير إلى أن ابن خلكان ذكر أن الرشيد أمر بحبس يحيى والفضل في «حبس الزنادقة» في مدينة المنصور: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٧.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩٨؛ معجم الأدباء المجلد العاشر ج ٢٠ ص ٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٨؛ ابن خلدون: تاريخ ج ٣ ص ٢٢٤، وقد ذكر المسعودي أن يحيى بن خالد مات بالرقعة في سنة تسع وثمانين ومائة: مروج ج ٤ ص ٢٦٠.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦٨؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٨.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٤١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٢١٠.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

وهكذا - كما رأينا - ما كاد التاريخ أن يعبق بأخبار البرامكة ومآثرهم، ويطل جودهم وإحسانهم القاصي والداني حتى فاجأتهم هذه الضربة القاسية على يد الرشيد فأودت بحياة الكثيرين منهم^(١) وشتت شملهم في البلاد «ولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز»^(٢). فبعد أن كثر الزوار على أبوابهم وأثنى عليهم الشعراء وانتجعهم الناس، انحرفت عنهم الدنيا وصار شأنهم إلى الفقر والذل والإهانة ووصل الأمر بهم إلى درجة أن عتابة أم جعفر بن يحيى البرمكي - في ثيابها البالية - قصدت والي الكوفة محمد بن غسان في يوم عيد أضحي طالبة منه جلدي شاة لتجعل «أحدهما شعاراً والآخر دثاراً»^(٣).

وذكر الجهشيارى^(٤) أن الرشيد ندم على ما كان منه في أمر البرامكة وتحسّر على ما فرط منه في أمرهم وخاطب جماعة من إخوانه بأنه لو وثق بصفاء النية لأعادهم إلى حالهم، وكذلك جاء في الأغاني^(٥):

أن الرشيد بعد قتله البرامكة كان شديد الأسف عليهم والتندّم على ما فعله بهم ففطن لذلك الزبير بن دحمان، فكان يعنيه في هذا المعنى ويحرّكه فغنّاه يوماً - والشعر لامرأة من بني أسد - :

من للخصوم إذا جدّ الخصام بهم	يوم النزال ومن للضمّر القود
وموقف قد كفيت الناطقين به	في مجمع من نواحي الناس مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس	عند الحفاظ وقول غير مردود

(١) مع دخول يوم السبت (أوقع الرشيد بالبرامكة ليلة السبت لانسلاخ المحرم) كان قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان وترك من بقي منهم لا يرجع إلى وطنه: الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٨.

(٢) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٨.

(٣) نفس المصدر ص ١٥٣.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٨.

(٥) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ١٥٣.

فقال له الرشيد: أعِدْ، فأعاد، فقال له: ويحك كان قاتل هذا الشعر يصف به يحيى بن خالد وجعفر بن يحيى. وبكى حتى جرت دموعه ووصل الزبير صلة سنية.

ومن الأدلة على ندم الرشيد قوله (عندما بلغه نبأ وفاة يحيى): «اليوم مات أعقل الناس وأكملهم»^(١). وقوله: «مات والله يحيى ومات الجود والكرم والسخاء، والله لو كان حياً لفرجت عنه»^(٢). وقوله: «اضربوا عنق ياسر فلاني لا أقدر أن أنظر إلى قاتل جعفر»^(٣). وقوله أيضاً: «يا أسفي عليك يا جعفر» بعد أن أكّد له أحد كتابه (ابن يزدانيروذ) أن جعفر لم يكن حائداً عن طاعته ولا مقصراً في موالاته (بعد أن سأله الرشيد عن إخلاص جعفر له)^(٤). وحتى الفضل بن الربيع (عدو البرامكة) لما حضر جنازة حمدونة بن علي (بعد نكبة البرامكة) ذكر البرامكة فأطراهم وقرظهم ووصفهم ثم قال: كنا نعتب عليهم فقد صرنا نتمناها ونبكي عليهم^(٥).

ونظراً للدور الكبير الذي لعبه البرامكة في الدولة العباسية فإن إيقاع الرشيد بهم ترك فراغاً كبيراً في معظم إدارات الدولة. وفي هذا الصدد ذكر الجهشيارى^(٦) أنه لما انقضى أمر البرامكة اختلت الأمور. وقعد الفضل بن الربيع لحفظ خدمة الرشيد في حضرته وأضاع ما وراء بابه؛ وأبلغ دليل على اضطراب الأمر بعد سقوط البرامكة ما ذكره الفضل بن مروان^(٧)، حيث قال: «إن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهمة، وإن مسروراً الخادم كان يتقلد البريد والخرايط! ويخلفه عليه ثابت الخادم. قال: فحدثني ثابت: أن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦١.

(٢) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥١ - ١٥٢.

(٣) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥١.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦٢.

(٦) نفس المصدر ص ٢٦٥.

(٧) نفس المصدر ص ٢٦٥.

لم تفض. وكثيراً ما كان الرشيد يقول: «حملونا على نصائحنا وكفاتنا وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا لم يغنوا عنا شيئاً، وينشد:

أقلوا علينا لا أباً لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا^(١)

ويؤيد ذلك ما ذكره المسعودي^(٢)، حيث يقول: «إن الرشيد دفع خاتم الخلافة بعد إيقاعهم بهم (أي بالبرامكة) إلى علي بن يقطين^(٣)، وغلب عليه الفضل بن الربيع وإسماعيل بن صبيح إلى أن مات واختلت أموره بعد البرامكة وبان للناس قبح تدبيره وسوء سياسته».

وثمة كلمة أخيرة على رواية الجهشيارى (أول مؤرخ ذكر ندم الرشيد واختلال الأمور بعد الإيقاع بالبرامكة الذين تربى بين أحضانهم والذين ساهموا في وصوله إلى عرش الخلافة، ولكن هارون الرشيد رجل الدولة، فإن الندم لم يخطر على باله لا من بعيد ولا من قريب لأنه لا يريد إعادة مراكز القوى وربما قتلهم مرة ثانية لو قدر لهم الظهور من جديد، بدليل قتله إبراهيم بن عثمان بن نهيك لأنه كان كثيراً ما يذكر جعفر بن يحيى والبرامكة ويبيكي عليهم^(٤) ولطمه ابن منذر الشاعر لمدحه إياهم^(٥)، وأمره «أن لا تذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في المدينة أبداً»^(٦)، واستدعاه مرة الفضل بن يحيى من السجن «وضربه سيّطاً حتى كاد أن يهلكه، وزاد في حديدته وأغلاله ثم استدعي بيحيى وكان شيخاً كبيراً وزاد

(١) نفس المصدر ص ٢٥٨؛ الكتبي: فوات الوفيات م ٤ ص ٢٢٦، وقد ذكر ابن خلكان بأن هذا البيت للحطيئة؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٥.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ٢٩٩.

(٣) ذكر ابن الطقطقي أن الرشيد - بعد نكبة البرامكة - استوزر الفضل بن الربيع وكان حاجبه، وكان قبل ذلك حاجباً للمنصور والمهدي والهادي والرشيد؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢١٠ - ٢١١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٥) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٤٩.

(٦) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٨.

في حديده وأغلاله أيضاً»^(١). وأما الدليل الأكبر على عدم ندمه هو إبقائه البرامكة في السجن حتى بعد مماته.

وأما بالنسبة لظهور اختلال في دولة الرشيد بعد التنكيل بالبرامكة، فمن المسلّم به أن الأمور تضطرب بعد غياب مديريها ولا بد من ظهور نوع من الإهمال والتقصير في البداية، ولكن سرعان ما تعود هذه الأمور إلى سيرتها الأولى بعد سد الفراغ الحاصل.

وإذا لم نعزو رواية الجهشيارى إلى ميله للبرامكة من ناحية الانتماء، فللرواية تفسير آخر، وهو أن إنصاف الأعداء من أخلاق الملوك المتبعة.

* * *

(١) نفس المصدر ص ١٤٩.

الفصل الرابع مما قيل في البرامكة

١- في منح البرامكة

٢- في رثاء البرامكة

٣- في هجاء البرامكة



في مدح البرامكة

على الرغم من الاتهامات التي وُجِّهت ضدَّ البرامكة^(١)، تلك الاتهامات التي كانت من الأسباب الرئيسية التي أدَّت إلى نكبتهم المشهورة، فإننا نجد عدداً كبيراً من الشعراء والمغنين والأدباء الذين نظموا القصائد الكثيرة الغراء في مدحهم، وسنورد فيما يلي أهم ما قيل في البرامكة من شعر:

كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك في يوم نوروز، وقد أهدى الناس إلى خالد هدايا فيها جامات من فضة وذهب:

ليت شعري أما لنا منك حظ	يا هدايا الوزير في النوروز
ما على خالد بن برمك في الجو	د نوال ينيله بعزيز
ليت لي جام فضة من هدايا	ه سوى ما به الأمير مجيزي
إنما أبتغيه للعمل المم	زوج بالمال لا لبول العجوز ^(٢)

وقد مدح الشاعر بشار بن برد خالد بن برمك، فقال فيه:

لعمري قد أجدى عليّ ابن برمك	وما كل من كان الغنى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه فدرتاً	سماحاً كما درّ السحاب مع الرعد
إذا جئت للحمد أشرق وجهه	إليك وأعطاك الكرامة بالحمد

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ١٥٧ — ١٥٨.

له نعم في القوم لا يستثبها
مفيد ومتلاف سبيل ترائه
أخالد أن الحمد يبقى لأهله
فأطعم وكل من عارة مستردة
جزاء وكيل التاجر المد بالمد
إذا ما غدا أو راح كالجزر والمد
جمالاً ولا تبقى الكنوز على الكد
ولا تبقىها إن العواري للرد^(١)

ووفد بشار إلى خالد بن برمك وهو على فارس، فأنشده:

أخالد لم أخط إليك بذمة
أخالد بين الأجر والحمد حاجتي
فإن تعطي أفرغ عليك مدائحي
ركابي على حرف وقلبي مشيع
إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها
سوى أنني عاف وأنت جواد
فأيهما تأتي فأنت عماد
وإن تأب لم يضرب عليّ سداد
وما لي بأرض الباخلين بلاد
خرجت مع البازي عليّ سواد^(٢)

ولما سمي خالد الوافدين على بابه «زواراً»، بعد أن كانوا يسمون «سؤالاً»،
قال في ذلك بعض زواره:

حذا خالد في جوده حذو برمك
وكان بنو الإعدام يدعون قبله
يسمّون بالسؤال في كل موطن
فسمّاهم الزوّار ستراً عليهم
فجود له مستطرف وأثيل
باسم على الإعدام فيه دليل
وإن كان فيهم تافه وجليل
فأستاره في المجتدين سدول^(٣)

وممن كان يختص بالبرامكة، الشاعر نصيب الأصغر، فقد مدح يحيى بن
خالد، فقال:

(١) الأصبهاني: الأغاني ج ٣ ص ٨٥ - ٨٦.
(١) الأصبهاني: الأغاني ج ٣ ص ٩٥ - ٩٦.
(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥٠ - ١٥١؛ الأصبهاني: الأغاني ج ٣ ص ٦٨ -
٦٩، مع الإشارة إلى أن صاحب الأغاني قد نسب هذه الأبيات الشعرية إلى الشاعر
بشار بن برد.

عند الملوك مضرّة ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع
إن العروق إذا استسربها الثرى أيسر النبات بها وطاب المزرع
وإذا جهلت من امرىء أعراقه وقديمه فانظر إلى ما يصنع^(١)

وصحب الشاعر كلثوم بن عمرو العتابي البرامكة^(٢)، وقد أنقذه يحيى
البرمكي من الموت بعد أن كان قد نقل إلى الرشيد عنه ما أهدر به دمه، فقال فيه
شعراً:

ما زلت في سكرات الموت مطرّحاً قد غاب عني وجوه الأمر من حيلي
فلم تزل دائماً تسعى لتنقذني حتى استللت حياتي من يدي أجلي^(٣)

وقد صور أحد الشعراء جود يحيى بن خالد وكرمه تصويراً بديعاً، فقال:

لا تراني مصافحاً كف يحيى إنني إن فعلت ضيعت مالي
لو يمسّ البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال^(٤)

وفيه يقول أحدهم:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني عن والد بعد والد^(٥)

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٥٦ (وهي قصيدة طويلة)؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٣؛ الأصبهاني: الأغاني ج ٢٠ ص ٨، وكان الفضل بن يحيى يقول للشعراء: إذا قلت قولوا مثل هذه الأبيات، وإذا مدحتهم فامدحوا بمثل هذا الشعر: ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٥٦.

(٢) لقد شهد يحيى بن خالد شهادة طيبة بهذا الشاعر عندما قال لولده: إذا قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله وشعره، فلن تروا أبداً مثله: الأصبهاني: الأغاني ج ١٢ ص ٨ - ٩.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٣؛ الأصبهاني: الأغاني ج ١٢ ص ١٣، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٨.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٨؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

وقد مدحته الشاعرة عنان في قصيدة قالت في مطلعها:

نفى النوم من عيني حرك القصائد	وآمال نفس همها غير نافذ
إذا ما نفى عني الكرى طول ليلة	تعوذت منها باسم يحيى بن خالد
وزير أمير المؤمنين ومن له	فعالاً من حمد طريف وتالد
من البرمكيين الذين وجوههم	مصاييح يطفئ نورها كل واقد ^(١)

وللشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري في يحيى بن خالد:

أجذك هل تدرين أن رب ليلة	كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها حتى تجلّت بغرة	كغرة يحيى حين يذكر جعفر ^(٢)

ولمّا غاب يحيى بن خالد وجاور بمكة قال أشجع:

قد غاب يحيى فما نرى أحداً	يأنس إلا بذكره الحسن
أوحشت الأرض حين فارقها	من الأيادي العظام والمنن
لولا رجاء الإياب لانصدعت	قلوبنا بعده من الحزن ^(٣)

وقال أيضاً:

أبت نفس يحيى أن يدبر دولة	تزول أواخيها ويفنى سرورها
ولمّا رأى الأيام تنقضي مرة	وتثقل أخرى وهي وإه مريرها
تجافي عن الدنيا وقد فتقت به	حواضرها واستقبلته أمورها ^(٤)

وقال يمدح يحيى بن خالد:

يا راكب العيس التي أفنى عريكتها ابتكاره

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.

(٣) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١١٧.

(٤) نفس المصدر ص ١٢٧.

أرحل إلى يحيى واد قن إن دار الجود داره
يحيى امرؤ ترجى منا فعه ولا يخشى ضراره
يعفو عن الذنب العظي سم وليس يعجزه انتصاره^(١)

وممن أشاد بيحيى وفضائله ، الشاعر أبو قابوس عمر بن سليمان الحيري ، إذ قال :

رأيت يحيى أتم الله نعمته عليه يأتي الذي لم يأته أحد
ينسى الذي إن من معروفة أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذي يعد^(٢)

وقد جذب البرامكة الشاعر سلم الخاسر إليهم ، فقال في إحدى قصائده المشهورة مادحاً يحيى بن خالد :

بلوت الناس من عجم وعرب فما أحد يسير كما تسير
فكل الأمر من قول وفعل إذا علقت يداك به صغير
وفي كفيك قدرة المنايا ومن جدواهما الغيث المطير
وأنت العز في حرب وسلم يضاف إلى مناكبك الطهور^(٣)

وعندما شاب يحيى قال فيه سلم الخاسر :

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
وإذا رأى لك موعداً كان الفعل مع المقال
لله درك من فتى ما فيك من كرم الخلال
أعطاك قبل سؤاله فكفاك مكروه السؤال^(٤)

(١) نفس المصدر ص ١٢٧ .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٧٩ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٠٠ وما بعدها .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٩ .

وفيه يقول مروان بن أبي حفصة :

إذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد
سمت نحوه الأبصار منا ودونه
فإن نشكر النعمى التي عمنا بها
أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
مفاوز تغتال النياق بها السفر
فحق علينا ما بقينا له الشكر^(١)

وبعد أن سكنت الفتنة في الشام بين التزارية واليمانية في سنة ١٧٦ هـ عفا
يحيى البرمكي عن أهلها وعما كان بينهم ، فقال فيه إسحاق بن حسان الخزيمي :

من مبلغ يحيى ودون لقائه
يا راعي الإسلام غير مفرط
تعذي مشاربه وتسقي شربه
زارات كل خنابس همهام
في لين مغتبط وطيب مشام
ويبيت بالربوات والأعلام
ورست مراسيه بدار سلام
وشعاع طرف ما يفتري سام^(٢)
حتى تنخنخض ضارباً بجرائه
فكل ثغر حارس من قلبه

وقد انقطع الشاعر أشجع بن عمرو السلمي للبرامكة وأضفاهم مدحه ، فمن
مدحه ليحيى بن خالد :

كفاني صروف الدهر يحيى بن خالد
كفاني - كفاه الله كل ملمة -
فأصبحت في رغد العيش واسع
فأصبحت لا أرتاع للحدثان
طلاب فلان مرة وفلان
أقلب فيه ناظري ولساني^(٣)

وبعد شفاء يحيى بن خالد من علة أصابته ، دخل أشجع الشاعر ليهنئه
بالسلامة ، فأنشده :

لقد قرعت شكاة أبي علي
قلوب معاشر كانوا صحاحا

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٧٩ .

(٢) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٥١ .

(٣) الأصبهاني : الأغاني ج ١٧ ص ٧٧ ؛ الصولي : أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق
ص ٨٨ .

فإن يدفع لنا الرحمن عنه صروف الدهر والأمل المتاحا
فقد أمسى صلاح أبي عليٍّ لأهل الدين والدنيا صلاحا
إذا ما الموت أخطأه فلسنا نبالي الموت حيث غدا وراحا^(١)

وعن يحيى وأولاده الأربعة، قال أبو الغول الشاعر:

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة: سيد ومتبوع
الخير فيهم إذا سألت بهم مفرق فيهم ومجموع
وقد وصف الشاعر نصيب الأصغر جود الفضل بن يحيى في قصيدة طويلة،
منها:

إني سأمتدح الفضل الذي حنيت منا عليه قلوب البر والضلع
جاد الربيع الذي كنا نوؤله فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا في الأرض نجعتنا فاليوم عند أبي العباس نتجع^(٢)

وعندما مرَّ هذا الشاعر بباب الفضل بن يحيى قال:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء^(٤)
فاستجيد البيت واستحسن وعيب بأنه بيت مفرد، فقال أبو العذافر ورد بن
سعد العمي:

(١) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ١٠٤؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٨٠.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٣.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ٢٠ ص ٧٢ - ٧٣.

(٤) الجاحظ: الحيوان ج ٣ ص ١١٧؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٥، وقد ذكر هذا الشعر دون تسمية ناظمه، أما صاحب الأغاني فقد نسب هذا البيت إلى الشاعر نصيب الأصغر: الأصبهاني: الأغاني ج ٢٠ ص ٨١؛ الكتبي: فوات الوفيات المجلد الرابع ص ٢٠٥.

علم المفحمين أن ينطقوا الأشعار منا والباخلين السخاء^(١)

وقد مدح سعيد بن وهب الفضل بن يحيى ، فقال :

مدح الفضل نفسه بالفعال فعلا عن مديحنا بالمقال^(٢)

ومدحه أبي الخطاب البهدي ، فقال :

تشاغل الناس ببنيانهم والفضل في بنا العلا جاهد
كل ذوي الرأي وأهل النهي للفضل في تدبيره حامد^(٣)

وصاغ إسحاق بن إبراهيم الموصلي لحناً في شعر غنى به الفضل ، فقال :

وقائل قال لي لَمَّا رَأَى زمني يبري عظامي بري القدح بالسفن
هل كان بينكما فيما مضى ترة فصار يغيك بالأوتار واللحن
لو كان بيني وبين الفضل معرفة فضل ابن يحيى لأعداني على الزمن
هو الفتى الماجد الميمون طائره والمشتري الحمد بالغالي من الثمن^(٤)

ومدح الشاعر أبو النواس الفضل البرمكي بقصائد عديدة ، قال في بعضها :

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننا
أمير رأيت المال في حجراته مهيناً ذليل النفس بالضميم موقنا^(٥)
وقال فيه أيضاً :

أوحده الله فما مثله لطالب ذاك ولا ناشد
وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد^(٦)

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٦ .

(٢) الأصبهاني : الأغاني ج ٢١ ص ١٦٧ .

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣٥ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩١ .

(٥) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٦) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٦٣ - ٦٤ .

وفي إحدى روائعه قال الشاعر مروان بن أبي حفصة في الفضل بن يحيى :

إذا أم طفل راعها جوع طفلها دعت^(١) باسم الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الإسلام إنك عزّة وإنك من قوم صغيرهم كهل^(٢)
وفيه يقول :

تخيرت للمدح ابن يحيى بن خالد فحسبي ولم أظلم بأن أتخيرا
له عادة أن يسطر العدل والندي لمن ساس من قحطان أو من تنزرا
إن المنبر الشرقي سار ولم يزل له والد يعلو سريراً ومنبراً
يعدو يحيى البرمكي ولا يرى لدى الدهر إلا قائداً أو مؤمرا^(٣)
وعندما تمكن الفضل من حمل يحيى العلوي على قبول الصلح قال فيه
(مروان بن أبي حفصة) أيضاً :

ظفرت فلا شئت يد برمكية رقت بها الفتق الذي بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التثامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزاً لكم كلما ضمت قداح المساهم^(٤)

وللشاعر أبان بن عبد الحميد اللاحقي في ذكر أمر الفضل بن يحيى
وما صنعه في أمر يحيى بن عبد الله بن حسن أشعار كثيرة، منها :

بالفضل يحسن لفظ كل مقال وبه تسير غرائب الأمثال
وبه تكشف مظلم الفتن التي يمسي العباد بها على زلزال
حسُنُ التي بالفضل رد مخوفها باد لئن كانت بغير قتال

(١) في كتاب الجهشيارى : غذته : الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٠ .
(٢) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٠ - ١٩١ .
(٣) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨ .
(٤) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٤٣ .

أعطى ابن عبد الله يحيى ذمة وصل الوفاء حبالها بحبالي^(١)
ومنها قصيدة، أولها:

إن شمل الشيب قناع البلى مفارقاً مني وأصداغاً
فقد أرى أشوس ذا مرة وحية أربد لداغاً^(٢)
ومنها أيضاً:

لقد برز الفضل بن يحيى ولم يزل يسامي من الغايات ما كان أرفعا
رآه أمير المؤمنين لملكه كفيلاً لما أعطى من العهد مقنعاً^(٣)
وقال أبان يخاطب الرشيد ويهنته بما فعل الفضل في أمر يحيى بن
عبد الله بن حسن:

هنيئاً أمير المؤمنين لك الظفر قد تمت النعمى وقد ساعد القدر
وفيها:

أتاك بيحيى الفضل سلماً يقوده مقرأً ولولا يُمن جدك ما أقر
لئن كان يوم الفضل فيه مشهراً لا كرم بيوم منه أفنى به الخزار^(٤)
وقال أيضاً:

أطال الله في عز ونصر بقاءك يا أمير المؤمنيننا
إذا ما الحرب شب لها ضرام تقلب فيه أيدي الناكبيننا
فول مهمها الفضل بن يحيى وقد رجمت في يحيى الظنوننا
مقرأً بالذي قد كان يأتي ويفعل خزية المتشيعونا

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٢١.

(٢) نفس المصدر ص ٢٠.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) نفس المصدر ص ١٩.

لئن خصتك نعمتها بفضل لقد عمت جميع المسلمين^(١)
ولمّا جند الفضل بن يحيى في خراسان جيشاً مؤلفاً من خمسمائة ألف
رجل، مدحه الشاعر مروان بن أبي حفصة بقصيدة، قال في مطلعها:

ما الفضل إلّا شهاب لا أفول له عند الحروب إذا ما تأفل الشهب
حام على ملك قوم عز سهمهم من الوراثة في أيديهم سبب
أمت يد لبني ساقى الحجيج بها كتائب ما لها في غيرهم أرب
كتائب لبني العباس قد عرفت ما ألف الفضل منها العجم والعرب^(٢)

ولمّا أراد الفضل بن يحيى من خراسان، مدحه مروان بن أبي حفصة
بقصيدة، قال في مطلعها:

حمدنا الذي أدى ابن يحيى ما صبحت بمقدمة تجري لنا الطير أسعد
وما هجعت حتى رآته عيوننا وما زلن حتى آب بالدمع حشداً^(٣)

ولمّا أراد الفضل بن يحيى الخروج إلى خراسان، ودّعه الشاعر إسحاق
الموصللي، ثم أنشده:

فراقك مثل فراق الحياة وفقدك مثل افتقاد الديم
عليك السلام فكم من وفا أفارق فيك وكم من كرم^(٤)

وفيه يقول الشاعر أبو بصير:

نام الخليون من همّ ومن سقم وبت من كثرة الأحزان لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهداً أعمد ليحيى حليف الجود والكرم^(٥)

(١) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ٢٥٩ .

(٤) الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ١٢٨ .

(٥) نفس المصدر ج ٥ ص ٢٣ .

وفي الفضل يقول الشاعر أشجع السلمي يمدحه :

وما قدم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدمته المكارم
لقد أرهب الأعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم^(١)

ولأبي النضير في مدح الفضل بن يحيى :

وللناس معروف وفيهم صنائع ولن يجبر الأحزان إلا جذا الفضل
إذا ما العطايا لم تكن برمكية فتلك العطايا ما تمر وما تحلى^(٢)

وفيه وفي آله يقول أبو النضير أيضاً :

إذا كنت في بغداد منقطع الندى وجدت نسيم الجود من آل برمك^(٣)

وقد مدح الشاعر منصور النمري الفضل بن يحيى يوماً، فقال :

رأيت الملك مذ آزر ت قد قامت محانيه
هو الأوحـد في الفضل فما يعرف ثانيه^(٤)

ولما أظهر الفضل بن يحيى البيعة لمحمد بن الرشيد وبايع الناس له، قال
في ذلك النمري :

أمت بمرو على التوفيق قد صفقت على يد الفضل أيدي العجم والعرب
بيعة لولي العهد أحكمها بالنصح منه وبالإشفاق والحب
قد وكـد الفضل عقداً لا انتقاض له لمصطفى من بني العباس منتخب^(٥)

ولأبي قابوس الحيري في مدح الفضل :

(١) الأصبهاني : الأغاني ج ١٧ ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوىء ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٣) الأصبهاني : الأغاني ج ١٠ ص ٢٠٦ .

(٤) الكتبي : فوات الوفيات م ٤ ص ١٦٨ .

(٥) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد
له يوم بؤس فيه للناس أبؤس
فيمطر يوم الجود من كفه الغني
ودخل الشاعر سلم الخاسر على الفضل بن يحيى في يوم نيروز والهدايا بين
يديه، فأنشده قصيدة، منها:

رأيت مكارم الأخلا
فلست أرى فتى في النا
يقول لسانه خيراً
ومهما يرج من خير
ق ما ضمت حمائله
س إلا الفضل فاضله
فتفعله أنامله
فإن الفضل فاعله^(٢)

وقد صور هذا الشاعر شجاعة الفضل بن يحيى وجوده، فقال:

وكيف تخاف من بؤس بدار
وقوم منهم الفضل بن يحيى
له يومان: يوم ندى وبأس
إذا ما البرمكي غدا ابن عشر
إلى أن يقول:

أقام الندى والجود في كل منزل
وفيه يقول القائل:

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة
فليس بسعال إذا سيل حاجة
رأيت بها عشب السماحة ينبت
ولا بمكب في ثرى الأرض ينكت^(٤)

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٠.

(٢) الأصبهاني: الأغاني ج ٢١ ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨.

(٤) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

ومدحه أحد الشعراء، فقال:

إلى الفضل فارحل بالمديح فإنه
وزرة تزر علماً وحلماً وسؤدداً
وأبدع إذا ما قلت في الفضل مدحه
إذا ما حياض الجود قلت مياهاها
منيع الحمى معسوفه ليس يمنع
وبأساً به أنف الحوادث يجدع
كما الفضل في بذل المواهب يبدع
فحوض أبي العباس بالجود مترع^(١)

وكان الأصمعي يردّد في أشعاره مدح جعفر بن يحيى، وخير ما يمثل ذلك قوله:

إذا قيل: من للندى والعللا
وما أن مدحت فتى قبله
وفيه تقول عنان، 'جارية الناطفي:

بديهته وفكرته سواء
وصدر فيه لهم اتساع
وأحزم ما يكون الدهر رأياً
إذا التبتت على الناس الأمور
إذا ضاقت من الهم الصدور
إذا عجز المشاور والمشير^(٢)

ولما أصلح جعفر بن يحيى بين أهل الشام بعد أن هاجت العصبية بها، مدحه الشاعر منصور النمري بقصيدة طويلة، منها:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة
إذا جاش موج البحر من آل برمك
رماها أمير المؤمنين بجعفر
رماها بسيسون النقيبة ماجد
فهذا أوان الشام تخمد نارها
عليها، خبت شهبانها وشرارها
وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
تراضى به قحطانها ونزارها^(٣)

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٤٢.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٦.

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٤ — ٢٠٥.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٢.

وفي جعفر يقول مسلم بن الوليد في قصيدة طويلة:

استفسد الدهر أقواماً فأصلحهم	محمل نكبات الدهر محتمل
به تعارفت الأحياء وأتلفت	إذ ألفتهم إلى معرفه السبل
كأنه قمر أوضيغهم هصر	أوحية ذكر أوعارض عطل ^(١)

وفيه يقول أبو نواس:

ذاك الوزير الذي طالت علاوته	كأنه ناظر في السيف بالطول ^(٣)
-----------------------------	--

وفي جعفر يقول أشجع السلمي يمدحه:

ذهبت مكارم جعفر وفعاله	في الناس مثل مذهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه	والعقل خير سياسة النفس ^(١)

وله فيه:

يحب الملوك ندى جعفر	ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى	ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته	وهم يجمعون ولا يجمع ^(٣)

وقال أشجع في جعفر البرمكي:

إذا أخذت أنامله	تبين فضله القلما
تطأ كل مرتفع	لفضل الكتب مذنجا ^(٤)

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٥.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٦٤؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٧٨.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٥؛ الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٧٢-٧٣، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٣.

ولمّا خرج جعفر ليصلح أمر الشام (عام ١٨٠هـ)، قال فيه أشجع:

فئتان باغية وطاغية	حلّت أمورها عن الخطب
قد جائكم بالخيل شاربه	ينقلن نحوكم رحى الحرب
لم يبقَ إلا أن تدور بكم	قد قام هاديهما على القطب ^(١)

ولمّا عرض جعفر قال فيه أشجع:

لمّا اشتكى جعفر بن يحيى	فارقني النوم والقرار
ومرّ عيشي عليّ حتى	كأنما طعمه الممرار
حزناً على جعفر بن يحيى	لا حُقق الخوف والحدار
أن يعفه الله لا نبالي	ما أحدث الليل والنهار ^(٢)

ولمّا عزل الرشيد جعفر عن خراسان قال أشجع السلمي:

أمست خراسان تعزي بما	أخطأها من جعفر المرتجى
كان الرشيد المعتلى أمره	ولي عليها المشرق الأبلجا
ثم أراه رأيه أنه	أمسى إليه منهم أحوجا
كم فرق الدهر بأسبابه	من محصن أهلاً وكم زوجا
وكم به الرحمن من كربةٍ	في مدة تقصر قد فرجا ^(٣)

وقال أشجع يمدح جعفر بن يحيى في قصيدة، منها:

أحيا ابن يحيى النوال مغترباً	فكل مجد إليه مجلوبٌ
وكل بذل زكّت مناسبه	فهو إلى البرمكي منسوب

(١) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٦٦؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٧٩.

(٢) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٧٩.

(٣) نفس المصدر ص ٨٧.

ترب معروفة عوائده

والعرف عند الكرام مربوب^(١)

وفي قصيدة ثانية، قال فيه:

خلق الله ابن يحيى
وصل الله يديه
فهو يعطيك ابتداء
قصر الله بإيجا
بأبي الفضل بن يحيى

للحجا والمكرمات
بالمنايا والصلات
قبل نوب النائبات
ز له عمر الغداة
ذي الأيادي السابغات^(٢)

وفي قصيدة أخرى قال فيه:

أصبحت محسوداً على موضع
وكيف لا أحسد من ظله
يا فاحراً بالجود مستعلياً
أغر صنيدي إذا ما بدا

منك ومثلي بك محسود
على جميع الناس ممدود
بجعفر يفتخر الجود
أطرقت الصيد الصناديد^(٣)

وقال يمدحه في قصيدة، منها:

رأيت ابن يحيى في الأمور إذا التوت
غني بفضل الحزم عن رأي غيره

يشير على الجلى ولا يستشيرها
يسدي الأمور نحوها وينيرها^(٤)

وقال يمدحه أيضاً في قصيدة أولها:

تغيرت المنازل والرباع
ديار الحي مالك بعد سلمى

وقيعان الأراكة والشلاع
تعلاك اكتئاب واختشاع^(٥)

(١) نفس المصدر ص ٩٢.

(٢) نفس المصدر ص ٩٣.

(٣) نفس المصدر ص ٩٦.

(٤) نفس المصدر ص ١٠٢.

(٥) نفس المصدر ص ١٠٣.

ومدحه في قصيدة أخرى، جاء في مطلعها:

أرى بارقاً نحو الحجاز تطلعا تحدر في شريقيها وترفعها
أمات وأحيا أنفساً بوميضه سقى الله مغناه وإن كان بلقعا^(١)
وقال يمدحه أيضاً:

أسعد فؤاداً دائم الخفق وكفأك ما ألقى من العشق
لا تندبن طول منزلة أنحى عليها الدهر بالمحق^(٢)
قال لجعفر بن يحيى:

بأكناف الحجاز هوى دفين يؤرقني إذا هدت العيون
أحن إلى حنين إلف قرين الحب فارقه القرين^(٣)
وقال يمدح جعفر بن يحيى:

عجبت لما رأتهني أنذب الربيع المحيلا
واقفاً في الدار أبكي لا أرى إلا طولاً^(٤)
وفيه يقول:

أذاق الموت أقواماً بظلمهم وما ظلما
وقسوماً ألبيستهم را حتاه العفو والنعمما
بسيف يخفض النجوى وجود يرفع الهمما
أمات اللؤم نائلة وأحيا الجود والكرما
وما حفظ الحقوق كجع فرأى أحد ولا الذمما^(٥)

(١) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٥ .

(٤) نفس المصدر ص ١١٩ .

(٥) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١١٤ .

وقال فيه أيضاً:

ما كان يدرك بالرجال ولا بالمال ما أدركت بالرفق^(١)

وقال فيه أيضاً:

وثقت بجعفر في كل خطب فلا هلك يخاف ولا ضياع^(٢)

وقد وصف أشجع السلمي لجعفر قصور البرامكة بحي الصالحية، فقال:

قصور الصالحية كالعداري	لبسن ثيابهن ليوم عرس
مطلات على روض كسته	أيادي الماء وشياً نسج غرس
إذا ما الطل أثر في ثراه	تنفّس نوره من غير نفس
فتغبقه السماء بصبغ ورس	وتصبّحه بأكؤس عين شمس ^(٣)

وفي الرشيد وجعفر بن يحيى يقول الشاعر:

ليهن الرشيد خلافاته	وأمر الذي قد وهى عقده
أضاف إلى بيعه بيعة	فقام بها جعفر وحده
بنو برمك أسسوا ملكه	وشدّوا لوارثه عهده ^(٤)

وقد أبدع الشاعر الكوفي مسلم بن الوليد في تصوير كرم الفضل بن جعفر وبلاغته، حين قال:

تساقط يمناه الندى وشماله الـ	ردى وعيون القول منطقة الفضل
عجول إلى ما يودع الحمد ماله	يعد الندى غنماً إذا اغتنم البخل

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٣٦٠.

(٢) الأصبهاني: الأغاني ج ١٧ ص ٨٣.

(٣) نفس المصدر ج ١٧ ص ٦٤؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٧٨.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ٤، ص ٢٣٦.

بكف أبي العباس يستمطر الغنى وتستنزل النعمى ويسترعف النصل
متى شئت رفعت الستور عن الغنى إذا أنت زرت الفضل أو أذن الفضل^(١)

وكان الرقاشي منقطعاً إلى البرامكة يمدحهم ويعيش بهم^(٢)، وله فيهم:

قالت بنو برمك وقد صدقت إن قريع السماء موساهها
خالدها في الوغى إذا استعرت وفي التقى والعفاف يحياها^(٣)

وقد مدح هذا الشاعر موسى بن يحيى بن خالد في قصيدة طويلة، منها:

كتبت عند ما مقامك عنا لك حول مذ أنت عنا مقيم
قلت لا أستطيع ترك بلاد حل فيها موسى بن يحيى الكريم^(٤)

ولما أصلح موسى بن يحيى ذات البين في سنة ١٧٠ هـ بين العصبيتين المتناحرتين (الزارية واليمانية) في الشام، مدحه أحد الشعراء في قصيدة، جاء في مطلعها:

قد هاجت بالشام هيجاً يشيب رأس وليده
فغضب موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام كما أتى نسيج وحيده
هو الجواد الذي بذَّ كل جود بجوده^(٥)

ولما حجَّ الرشيد ومعه ابنه محمد وعبد الله، وحجَّ معه يحيى بن خالد ومعه ولداه الفضل وجعفر، فأعطى البرامكة في تلك السنة ثلاثة أعطيات، وسمي ذلك عام «الثلاثة أعطية»، ولم يروا مثل ذلك قط إلا في أيام البرامكة^(٦).

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٣٧.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٤٧.

(٣) نفس المصدر ص ٤٣٥.

(٤) نفس المصدر ص ٤٣٦.

(٥) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٢.

وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن منذر:

أتانا بنو الآمال من آل برمك
لهم رحلة في كل عام إلى العدا
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى
فما خلقت إلا لجود أكفهم
إذا راضي يحيى الأمر ذلت صعابه
ترى الناس إجلالاً له كأنهم

وقال بعضهم في البرامكة:

إن البرامكة الكرام تعلّموا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا
وإذا همو صنعوا الصنائع في الورى
فعلام تسقينى وأنت سقيتنى
أنستنى متفضلاً أفلا ترى
فعل الكرام فعلموه الناسا
لم يهدموا مما بنوه أساسا
جعلوا لها طول البقاء لباسا
من مر هجر في جنابك كاسا
أن انقطاعك يسوحش الإيناسا^(٢)

* * *

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٢٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٤؛
ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠١، مع تغيير في بعض ألفاظ الأبيات
الشعرية.

(٢) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.



فِي رِثَاءِ الْبِرَامِكَةِ

ولمّا نكب الرشيد البرامكة واستأصل شأفتهم، حرّم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذه على ذلك. ولكن على الرغم من هذا التحريم فقد بكتهم العامة وقيل الشعر الكثير في رثائهم فأذن الرشيد لجميع الناس في رثائهم^(١).

وقد رثتهم الشعراء بمرات كثيرة تضيق دونها المجلدات. وذكرت أيامهم وأسفت عليهم. فما استحسن من مرثيهم قول الرقاشي، وقد ذكر أن هذا الشعر لأبي نواس:

الآن استرحنا واستراحت ركابنا	وأمسك من كان يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد آمنت من السرى	وطي الفيافي فدفعاً بعد فدفع
وقل للمنايا: قد ظفرت بجعفر	ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي	وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهنّداً	أصيب بسيف هاشمي مهنّداً ^(٢)

وفيهم يقول في شعر له طويل:

-
- (١) ابن الطقطقي: الفخري في الأداب السلطانية ص ١٩٩ - ٢٠٠.
(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٦؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٦؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٠؛ أبو الفداء: المختصر ج ٣ ص ٢٤.

إن يغدر الزمن الخئون بنا فقد
حتى إذا وضح النهار تكشفت
والبيض لولا أنّها مأمورة
يا آل برمك كم لكم من نائل
إن الخليفة - لا يشك - أخوكم
نازعتموه رضاع أكرم حرة
ملك كانت له يد فيأضة
كانت يداً للجود حتى غلها
وفي جعفر يقول:

كم هاتف بك من باك وبساكية
أن يعدم المطر كنت المزن بارقة
وقوله:

فلا يبعدنك الله عني جعفرأ
فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت
بروحي ولو دارت عليّ الدوائر
على فنن ورقاء أو طار طائر^(٣)
وورد في «الأغاني» أن الرقاشي غنى في حبّ البرامكة حتى ضيق عليه^(٤).
ولأشجع السلمي فيهم أيضاً:

-
- (١) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠٠ - ٣٠١.
(٢) الأصبهاني: الأغاني ج ١٥ ص ٧٩.
(٣) نفس المصدر ج ١٥ ص ٧٩ - ٨٠.
(٤) نفس المصدر ج ١٥ ص ٨٠، وكان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل برمك مستغنياً بهم
عن سواهم، وكانوا يصلون به على الشعراء ويروون أولادهم ويدونونها القليل والكثير
منها تعصباً له وحفظاً لخدمته وتنويهاً باسمه وتحريكاً لنشاطه، فحفظ ذلك لهم فلما نكبوا
صار إليهم في حبسهم فأقام معهم مدة أيامهم ينشدهم ويسامرهم حتى ماتوا، ثم رثاهم
فاكثر من رثائهم: الأصبهاني: الأغاني ج ١٥ ص ٧٨ - ٧٩.

كأن أيامهم من حسن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجمع^(١)
وقال:

ولّى عن الدنيا بنو برمك فلو توالى الناس ما زادا
كأنما أيامهم كلّها كانت لأهل الأرض أعياداً^(٢)
وقال أيضاً:

قد سار دهر ببني برمك ولم يدع فيهم لنا بقيا
كانوا أولي الخير وهم أهله فارتفع الخير عن الدنيا^(٣)
وممن قال فيهم فأجاد، سيف بن إبراهيم، حيث يقول:

هوت أنجم الجدوى وثلث يد الندى وغاصت بحور الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء برمك بها يعرف الحادي طريق المسالك^(٤)
وممن قال فيهم أيضاً فأجاد، صالح الأعرابي، حيث يقول:

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك وأي ملوك لم تخنها دهورها؟
ألم يك يحيى والي الأرض كلها فأضحى كمن وارته منها قبورها؟^(٥)
ولابن أبي كريمة فيهم:

كل معير أعير مرتبة بعد فتى برمك على غرر
صالت عليه من الزمان يد كان بها صائلاً على البشر^(٦)

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٦.

(٢) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٥.

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٥٦.

(٤) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠١؛ المسعودي: إنما نسب هذه الأبيات للشاعر سلم الخاسر:

المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٤.

(٥) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٤.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠١.

وللشاعر منصور النمري فيهم:

أندب بني برمك لدينا تبكي عليهم بكلّ واد
كانت بهم برهة عروساً فأضحت اليوم في حداد^(١)
وقال العطوي أبو عبد الرحمن:

أما والله لولا قول واشٍ وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعاً ودولة آل برمك السلام^(٢)
وفي قتل جعفر قال أبو العتاهية:

قولا لمن يرتجي الحياة أما في جعفر عبرة ويحياه
كانا وزير خليفة الله ها رون هماماً هما خيلاه
فذاكم جعفر برمته في حالق رأسه ونصفاه
والشيخ يحيى الوزير أصبح قد نحاه من نفسه وأقصاه
شئت بعد التجميع شملهم فأصبحوا في البلاد قد تاهوا
كذلك في سخط الإله بما يرضى به العبد يُجزه الله
سبحان من دانت المملوك له أشهد أن لا إله إلا هو
طوبى لمن تاب بعد غرته فتاب قبل الممات طوباه^(٣)

وقد رثاهم ابن أبي معاذ في قصيدة طويلة، قال في مطلعها:

-
- (١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٥.
(٢) الطبري تاريخ ج ٨ ص ٣٠١، وينسب الجهشيارى هذه الأبيات إلى الرقاشي:
الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٦؛ كذلك الأصبهاني: الأغاني ج ١٥ ص ٨٠؛
الخطيب البغدادي: ج ٧ ص ١٥٨؛ الدميري: حياة الحيوان الكبرى ج ٢ ص ١١٢، مع
تغيير في بعض الألفاظ.
(٣) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

يا أيها المغتر بالدهر والدهر ذو صرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصلواته وكن من الدهر على حذر^(١)

وممن أحسن في مرثيتهم أبو حرزة الأعرابي، وقيل أبو نواس، حيث يقول:

ما رعى الدهر آل برمك لما إن رمى ملكهم بأمر بديع
إن دهرأ لم يرع حقاً ليحيى غير راعٍ حقاً لآل الربيع^(٢)

وقال فيهم بعض الشعراء فأحسن:

يا بني برمك واهأ لكم ولأيامكم المقتبلة
كانت الدنيا عرساً بكم وهي اليوم ثكول أرملة^(٣)

وممن قال فيهم فأحسن، دعبل الخزاعي، حيث يقول:

ألم تر صرف الدهر في آل برمك وفي ابن نهيك والقرون التي تخلو
لقد غرسوا غرس النخيل تمكناً فما حصدوا إلا حصد البقل^(٤)

وقال دعبل، يرثي بني برمك:

ولمّا رأيت السيف جل جعفرأ ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت إنما قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا^(٥)

(١) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٤ - ٢٥٥، وذكر ابن خلكان بأن هذه الأبيات هي للشاعر

صالح بن طريف: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤١.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٦، المسعودي مروج ج ٤ ص ٢٥٥، وقد نسب

ابن خلكان هذين البيتين من الشعر إلى الشاعر صالح بن طريف؛ ابن خلكان: وفيات

الأعيان ج ١ ص ٣٤١.

(٤) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٥٥.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٧٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٠.

وقد رثى سليمان الأعمى البرامكة في قصيدة، قال في مطلعها:

هذا الخالون عن شجوي وناموا وعيني لا يلائمها المنام
وما سهري بأني مستهام إذا سهر المحب المستهام^(١)

وبعد وفاة الفضل، قال بعض الشعراء:

ليس نبكي عليكم يا بني بر مك إن زال ملككم فتقضى
بل نبكيكم لنا ولأنا لم نر الخير بعدكم أرضا^(٢)

وفي محمد بن يحيى يقول القائل:

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتما عزاً بذل مؤيد
وما بال ركن المجد أمسى مهدماً فقلاً أصبنا في ابن يحيى محمد
فقلت مهلاً مُتَمّاً بعد موته وقد كنتما عبديه في كل مشهد
فقلاً أقمنا كي نعزي بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد^(٣)

ورغم الكبت فقد تسرّب إلينا أيضاً عبر الكتب التاريخية بعض الروايات التي قيلت في رثاء البرامكة، فقد قال سهل بن هارون في التفجع عليهم:

فلو انكفأت السماء على الأرض ما زاد، فتبراً منهم الحميم واستبعد عن
نسبهم القريب وجحد ولاءهم المولى، ولقد اعتبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسان
يخطر بذكرهم ولا طرف ناظر يشير إليهم^(٤).

وقال أبو يزيد الرياحي: كنت قائماً عند خشبة جعفر بن يحيى البرمكي أتفكر

١٤٠

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٧، كذلك ابن خلكان لكنه نسب هذين البيتين إلى

الرقاشي؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٠.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٣) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٥ ص ٦٠.

في زوال ملكه وحاله التي صار إليها، إذ أقبلت امرأة راكبة، لها رواء وهيئة، فوقفت على جعفر فبكت فأحزنت وتكلمت فأبلغت، فقالت: أما والله لئن أصبحت للناس آية لقد بلغت فيهم الغاية، ولئن زال ملكك وخانك دهرك ولم يطل عمرك، لقد كنت المغبوط حالاً، الناعم بالاً، يحسن بك الملك، وينفس بك الهلك أن تصير إلى حالك هذه، ولقد كنت الملك بحقه، في جلالته ونطقه فاستعظم الناس فقدك، إذ لم يستخلفوا ملكاً بعدك، فنسأل الله الصبر على عظيم الفجيعة وجليل الرزية التي لا تُستعاض بغيرك، والسلام عليك وداع غير قال ولا ناس لذكرك.. ثم أنشأت تقول:

العيش بعدك مرّ غير محبوب ومذ صلبت رمقنا كل مطلوب
أرجو لك الله ذا الإحسان إن له فضلاً علينا وعفواً غير محسوب
ثم سكتت ساعة وتأمّلت، ثم أنشأت تقول:

عليك من الأحبة كل يوم سلام الله ما ذكر السلام
لئن أمسى صدّاك برأي عين على خشب حباك بها الإمام
فمن ملك إلى ملك برغم من الأملاك أسلمك الهمام^(١)
هذا غيظ من فيض مما قيل في مدح هؤلاء الناس.. والآن نتساءل: هل في هذا المدح إفراط ومبالغة؟ وما هي بالحقيقة الإيجابيات التي يجب أن يسجلها التاريخ في حق البرامكة؟

* * *

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٩.



في هجاء البرامكة

مع كثرة المديح الذي قيل في البرامكة، فلا بدّ للمليحة من ذام - كما يقولون - فقد هجاهم بعض الشعراء بأبيات شعرية قليلة، منها:

قال بعضهم في البرامكة:

لعن الله آل برمك إني صرت من أجلهم أخا أسفار
إن يك ذو القرنين قد مسح الأر ض فلني موكل بالعيار^(١)

وقال أبو الهول في جعفر بن يحيى:

أصبحت محتاجاً إلى الضرب إذا اشتكى صب إليه الهوى
في طلب العرف إلى الكلب قال له ما لي وللصب
أعني فتى يطعن في دينه يشب معه خشب الصلب^(٢)

وقال رجل من أهل الشام:

أبعد مروان وبعد مسلمة وبعد إسحق الذي كان لمة
صار على الثغر فرنج الرخمة إن لنا بفضل يحيى نقمة

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧.

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤٧؛ ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٥٤، مع تغيير في الألفاظ.

مهلكة مبيرة منذ أكل بني برمك أكل الحطمة
إن لهذا الأكل يوماً تخمة أيسر شيء فيه حز الغلصمة^(١)

وقال سهل بن هارون في يحيى بن خالد:

عدو تلاد المال فيما ينوبه ممنوع إذا ما منعه كان أحزما
مذلل نفس قد أبت غير أن ترى مكاره ما تأنى من الحق مغنما^(٢)

وقال الحسن بن هانئ:

عجبت لهرون الإمام وما الذي يروّي ويرجو فيك يا خلقة السلق
قفا خلف وجه قد أطيل كأنه قفا ملك يقضي الحقوق على ثبق^(٣)
وأعظم زهواً من ذباب على خرا وأبخل من كلب عقور على عرق
أرى جعفرأ يزدد بخلأ ودقة إذ زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعتة الناس إلأ على الحمق^(٤)

ولأبي نواس في هجاء جعفر بن يحيى:

لقد غرّني من جعفر حسن بابه ولم يدر أن اللوم حشو إهابه
ولست وإن بالغت في مدح جعفر بأول إنسان خري في ثيابه^(٥)

وله فيه:

إذا ما مدحت فتى من خيرا أليس جزائي أن أعطى الخرا^(٦)

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٤٩ . وقد ذكر ابن قتيبة البيتين الثالث والأخير من هذه الأبيات التي أوردها الجاحظ - ونسبهما كالجاحظ إلى ابن نواس ؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الجاهلياني: الوزراء والكتاب ص ٢١٥ .

(٥) في الحيوان: «ثقا مالك يقضي الهموم على بثق»: الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٦٣ .

(٦) الجاحظ: الحيوان ج ١ ص ٢٣٩ .

ولأبي الينبغي الشاعر في آل برمك:

إنما الدنيا كبيض عملوه نيمرش
فحشاه البرمكيو ن وقال الناس كش^(١)

وبعد أن ذكرنا ما روي من الشعر القليل في هجاء البرامكة، نستطيع القول إنه شعر تافه ركيك الألفاظ والمعاني، نُسب أحياناً إلى أشخاص غير معروفين، وأحياناً أخرى إلى شعراء غير مرموقين. ومن الممكن أن نعزوه لأفول دولة البرامكة ورواج سوق ذمهم عند الخليفة بعد نكبتهم.

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٣١.

٢

الْفَضْلُ الْخَمْسُ

مَآثِرُ الْبِرِّ أَمِكنَ

- ١- الْعِلْمُ وَالْأَدَبُ
- ٢- التَّرْجَمَةُ
- ٣- الْقُطْبُ
- ٤- التَّوَاضُّعُ وَالنَّقَرُّ إِلَى النَّاسِ
- ٥- دَوْرُهُمُ الْمَعْمَارِي
- ٦- الْكَرَمُ

مآثر البرامكة

وأناس كهؤلاء بلغوا هذه الذرى من المجد والسؤدد، لا بد أن يكونوا قد خاطبوا عصرهم باللغة التي كان يفهمها، فقد كان الأدب والشعر والغناء سمة المجتمع في تلك الفترة، وكان على البرامكة حتى يصلوا إلى مجدهم الذي يتطلعون إليه أن يكونوا أدباء شعراء كرماء متواضعين، يرعون المجالس الأدبية والفكرية والفنية والمناظرات المختلفة. . فهل كانوا كذلك؟

أحياناً يسدو لقارىء تاريخ شعب من الشعوب قراءة سابرة متأنية، أن ذلك الشعب على الدوام ذو سنام يُعتلى وزمام يقتاد به، وقد يكون القارىء من الألمعية بحيث تنكشف له الطريق إلى السنام والزمّام فيشعر بأنه لا بد قادر على الاعتلاء والافتتاد لو كان له حظ المعاصرة.

والسؤال بعد هذا: هل وصل الأمر بالبرامكة إلى حد اكتشاف الطريق، إلى سنام مجتمعهم وزمامه وأخذوا للأمر عدته وشمروا عن الساق؟

إذا كان الأمر كذلك، فمن حق الناقد الحديث أن ينظر إلى أية مآثرة برمكية على أنها مجرد طعم مغرٍ لاقتناص خطوة إلى الأمام حيث الأمل المنشود، ألا وهو اعتلاء سدة الخلافة للعودة بها عرشاً كسروياً يعيد المجد القومي التليد.

فقد تمتع البرامكة، والشواهد كثيرة، بكل الشروط الذاتية التي تؤهلهم لذلك، فكانوا طموحين أذكاء مرّنين، وتحت كل فرع من فروع هذا الثالوث تنطوي كل الأخبار التي مرت وستمّر بنا عن مآثرهم. وأما المجتمع العباسي فقد كان وكأنه زجاجة صنعت لها خصيصاً تلك السدادة. . ألم تكن عروبة العباسيين مخففة بحيث احتاجت للبرامكة في وجه العروبتين المكشفتين: الأموية والعلوية.

هنا لا بد لنا من الإقرار بأننا أكثر ميلاً إلى الاحتمال الأخير، وهو مجرد احتمال لا يمكن أن يصل إلى حد الواقعة التاريخية الثابتة ما دام الرشيد بضربته القاضية قد قطع الطريق أمام كل تقرير وتأكيد.

إن مجال التاريخ ما حدث لا ما لم يحدث، حتى ولو كان قاب قوسين أو أدنى من الحدث.

والآن، وقبل أن نورد ما أتاحت لنا المصادر والمراجع من أخبار عن مآثر القوم، لا بد أن نذكر القارئ بذلك الثالوث البرمكي: الطموح – المرونة – الذكاء. ليجعله معياراً يحك بها تلك الأخبار، عساه يصل – كما وصلنا – إلى ذلك الترجيح الذي مهما كان وزنه، لن يصل إلى مستوى الحقيقة التاريخية.

* * *



العلم والأدب

لقد استند ياقوت^(١) إلى كل من الطبري والجهشياري والمسعودي وابن عبد ربه الأندلسي والخطيب البغدادي وغيرهم، حتى جاء رأيه في يحيى بن خالد بن برمك كما يلي:

كان يحيى من أكمل زمانه أدباً وفصاحةً وبلاغةً، فمما روي عنه أنه قال: ما رأيت رجلاً إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في عيني وصدري، وإن قصّر سقط من عيني^(٢). وحدث محمد بن صالح الواقدي، قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن ههنا قوماً جاؤوا يشكرون لك معروفاً، فقال: يا محمد، هؤلاء جاؤوا يشكرون معروفنا فكيف لنا شكر شكرهم^(٣).

وقال: مسألة الملوك عن حالها من سجية النوكي، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؛ فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة. وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأله عن حاله؛ فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة، فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف، وأنشد:

(١) ياقوت: معجم الأدباء ج ١ ص ٥ - ٩.

(٢) كذلك ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠١، مع تغيير في بعض الألفاظ.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٨، مع تغيير طفيف في النص.

إن الملوك يخاطبونا ولا إذا ملّوا يعاتبونا
وفي المقال لا ينازعونا وفي العطاس لا يشمتونا
وفي الخطاب لا يكيّفونا يثنى عليه ويبجلونا
وإنهم وصاتي لا تكن مجنوناً^(١)

ويضيف ياقوت قائلاً: قيل له (أي يحيى بن خالد): أي الأشياء أقل؟ قال: قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس إلى المدح. وقيل له: ما الكرم؟ فقال: ملك في زي مسكين^(٢). قيل له: فما اللؤم؟ قال: مسكين في بطش عفريت^(٣).

قيل: فما الجود؟^(٤) قال: عفو بعد قدرة^(٥). وقال: من ولي ولاية فتاه فيها فقد ره دونها. وقال: إذا فتحت بينك وبين أحد باباً من المعروف، فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة. وقال: إذا أردت أن تنظر إلى مروءة المرء فانظر إلى مائدته، فإن كانت حسنة فاحكم له بالشرف، وإن رأيت تقصيراً فما وراءها خير. وقال: أحسن جيلة الولاة إصابة السياسة العمل لطاعة الله وفتح بابين للرعية، أحدهما رأفة ورحمة وبذل وتحنن؛ والآخر غلظة ومباعدة وإمساك ومنع. وقال: ما سقط غبار موكبي على أحد إلا وجب عليّ حقه^(٦).

وقال الفضل له: يا أبت، ما لنا نسدي إلى الناس المعروف فلا يتبين فيهم كتيبته ببر غيرنا؟ قال: آمال الناس فينا أعظم من آمالهم في غيرنا، وإنما يسر

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٢٤.

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٣.

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٣.

(٤) في العقد الفريد: الفرعة: ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٣.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٣.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٢، مع تغيير في بعض الألفاظ.

الإنسان ما بلغه أمله^(١). وقال: أنا مخير في الإحسان إلى من أحسن إليه، ومرتهن بالإحسان إلى من أحسنت إليه لأنني إن وصلتته فقد أتممته، وإن قطعتته فقد أهدرتة^(٢). وقال: الخط صورة، روحها البيان، ويدها السرعة، وقدمها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول^(٣).

وركب يوماً مع الرشيد، فرأى الرشيد في طريقه أحماًلاً فسأل عنها، فقبل له: هذه هدايا خراسان بعث بها علي بن عيسى بن همام. وكان ابن همام وليها بعد الفضل بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى: أين كانت هذه الأحمال في ولاية ابنك؟ فقال يحيى: كانت في بيوت أصحابها. فأفحم الرشيد وسكت.

ولما كان الفضل بن يحيى والياً على خراسان، كتب صاحب البريد إلى الرشيد كتاباً يذكر فيه: أن الفضل تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأ الرشيد رمى به ليحيى وقال: يا أبت، إقرأ هذا الكتاب واكتب إلى الفضل كتاباً يردعه عن مثل هذا. فمدَّ يحيى يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى ابنه على ظهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد: حفظك الله يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاد ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزيه

(١) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٤، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٨، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢، مع تغيير في النص.

(٣) وقد ورد قول يحيى هذا في كتاب المحاسن والمساوىء على الشكل التالي: الخط صورة روحها البيان ويدها السرعة وقدمها التسوية وجوارحها معرفة الفصول، وقال في مثله، رحمه الله تعالى:

فديتك مم تجتنب الجليلا؟	تقول وقد كتبت دقيق خطي
دقيقاً مثل صاحبه نحيلاً	فقلت لها: نحت فصار خطي
البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٤٠.	

لم يعرفه أهل زمانه إلا به والسلام، وكتب تحته هذه الأبيات :

انصب نهاراً في طلاب العلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مقبلاً	وغاب فيه عنك وجه الرقيب
فبادر الليل بما تشتهي	فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً	يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقي عليه الليل أستاره	فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحرق مكشوفة	يسعى بها كل عدو مريب ^(١)

ويتابع ياقوت كلامه فيقول بأن يحيى كان يقول لولده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون^(٢). وقال: أنفق من الدنيا وهي مقبلة، فإن الإمساك لا يُبقي منها شيئاً^(٣). وقال: الدنيا دول، والمال عارية، ولنا فيمن قبلنا أسوة ونحن لمن بعدنا عبرة^(٤).

قال القاضي يحيى بن أكثم: سمعت المأمون يقول: لم يكن كـيحيى بن خالد وكولده أحد في البلاغة، والكفاية، والجود والشجاعة، وكان يحيى يجري على سفيان الثوري - رضي الله عنه - ألف درهم في كل شهر، فكان إذا صُلّي سفيان يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنياي فاكفه أمر آخرته. فلما

-
- (١) المسعودي: مروج ج ٤ ص ٢٣٤؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩.
(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٥ ص ١٣٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٠، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٣، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٢٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١.
(٣) وقد ورد قول يحيى هذا على الشكل التالي: إذا أقبلت الدنيا فانفق فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فانفق فإنها لا تبقى: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٣١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.
(٤) الطبري: تاريخ ج ٦ ص ١٨٦؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٣؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٢٩؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٧٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١.

مات يحيى رؤي في المنام، ف قيل له : ما فعل الله بك؟ قال : غفر لي بدعاء سفيان^(١). (انتهى كلام ياقوت).

وذكر أن يحيى بن خالد بن برمك ولى أحدهم بعض أعمال الخراج، فدخل إلى الرشيد يودعه وعنده يحيى وجعفر بن يحيى، فقال الرشيد ليحيى وجعفر: أوصياه، فقال له يحيى: وفر وأعمر. وقال له جعفر: إنصف وانتصف. فقال له الرشيد: إعدل وأحسن^(٢).

ولما زوج يوسف بن القاسم ابنة الحسن بن سليمان ويعرف بالشيعة، وكان من كتاب البرامكة، كتب إلى يحيى بن خالد: «عرضت حاجة فكرهت أن أعدل بها عن الوزير، فأبخسه (هكذا) مع معرفتي بمحبتى لرب نعمته والزيادة في صنيعته خطأ ولزمني حق لا يمكن دفعه ولا تأخيرته وهو نقد مهر عن أحمد إلى ابنة الحسن بن سليمان، فإن رأى الوزير أن يوقع مع ما استحقته من أرزاقى بشهرين سلفاً لشهرين فعل، فإني أرجو أن أبلغ بذلك لعبده أحمد محبته وأنال بغيته إن شاء الله».

فوقع يحيى إليه: هذه فضيلة في أوليائنا وحقوق في ضيافتنا، فنحن بالقيام منهما دونك حريون، وبخط نقلها عن مالك جديرون، وقد أمرت لأحمد ما سألت من المال بمسئلتك (هكذا) فيه وزيادة الضعف استظهاراً مني له ومؤكداً وأمرت باستحقاقك لشهرين من مال السلطان أعزه الله ومثله صلة من مالي وأنفذت إليك بذلك كله رقاعاً بخطي إلى من يقبض ذلك منه، فأما السلف من مال السلطان فلا سبيل إليه، ولا أعرف جعفرأ بتارك أحمد إليك ولا إلينا كما لم يترك الفضل قاسماً إن شاء الله، وفي أسفل الرقعة من شعر يحيى:

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٣٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢١ - ٢٢٢، مع تغيير في النص.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٥٢؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٣٣؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٢١٨.

عندي لمثلك إحسان وتكرمة فثق بذلك مني وأبسط الأمل
إعمل على ثقة إنني أنا رجل لا أمنع المرء موجوداً إذ سألنا
وإن عندي لك الحسنى ونافلة بنصح غيبك إذ لم تبغ بي بدلاً^(١)

وقد روى الجهشيارى بعض المأثور من كلام يحيى من مثل قوله: «التعزية بعد ثلاث: تجديد للمصيبة. . والتهنئة بعد ثلاث: استخفاف بالمودة»^(٢). وقوله: «رسائل المرء في كتبه أدلّ على مقدار عقله وأصدق شاهداً على عيبه لك ومعتقده فيك، من إضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة»^(٣). وقوله: «مطلق الغريم أحسن من مطلق الكريم، لأن الغريم لا يسلف إلّا من فضل، والكريم لا يطلب إلّا من جهد»^(٤). وقوله: «البلاغة أن تكلم كل قوم بما يفهمون»^(٥). وقوله: «لا أرحام بين الملوك وبين أحد»^(٦). وقوله: «لو كلف الله العباد الجزع دون الصبر كان قد كلّفهم أشد المعنيين على القلوب»^(٧). وقوله: «الدالة تفسد الحرمة القديمة وتضرّ بالمحبة المتأكدة»^(٨). وقوله: «المعجب للسلطان كيف يحسن ولو أساء لك الإساءة. لوجد من يزكيه ويشهد بأنه محسن»^(٩). وقوله لولده: «لا بدّ لكم من كتاب وعمال وأعوان فاستعينوا بالأشراف وإياكم وسفلة الناس، فإن النعمة على الأشراف أبقى، وهي بهم أحسن، والمعروف عندهم أشهر، والشكر منهم أكثر»^(١٠). وقوله

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٥٦.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٠.

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٠.

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٠.

(٥) نفس المصدر ص ٢٠١.

(٦) نفس المصدر ص ٢٠١.

(٧) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠١.

(٨) نفس المصدر ص ٢٠٢.

(٩) نفس المصدر ص ١٧٩.

لجعفر ابنه : يا بني ، انتقي من كل علم شيئاً ، فإنه من جهل شيئاً عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدواً لشيء من الأدب^(١) .

وقيل له : ألا تؤدب غلمانك ؟ قال : هم أماناؤنا على أنفسنا ، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم^(٢) . ووقع يحيى إلى رجل ظن به تغيراً عليه : « ينبغي أن تكون على يقين أنى بك ضنين ، أريدك ما أردتني ، إن نبوت عني ما كان ذلك بي وبك جميلاً ، فإن وقعت المقادير بخلاف ذلك لم أعد ما يجب ، والذي هاجني على الكتاب إليك أن أبا نوح معروف بن راشد سألني أن أبوح لك بما عندي والله يعلم أنى ما تبدلت ولا جلت عن عهد ، جمعنا الله وإياك على طاعته ومحبة خليفته بجوده وقدرته^(٣) .

وكتب يحيى بن خالد إلى صديق له وهو في السجن ، وقد كتب إليه يسأله عن حاله فوقع في كتابه : « أفضل الناس حالاً في النعمة من استدام مقيمها بالشكر واسترجع فائتها بالصبر^(٤) .

وكتب أيضاً إلى أخيه محمد من الحبس : « أنكرت صديقي ، وعرفت عدوي^(٥) .

واحتاج يحيى إلى شيء ، فقبل له : « لو كتبت إلى صديقك فلان ؟ قال : دعوه يكن صديقاً^(٦) . ومن قوله لابنه جعفر : « يا بني ، ما دام قلمك يرعف فأمطره معروفاً^(٧) .

(١) نفس المصدر ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠١ ؛ ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٢ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٨ .

(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤٨ .

(٧) الأتليدي : أعلام الناس ص ١٥٣ .

وكان يحيى أعلم الناس بالنجوم^(١).

وذكر ابن خالكان بأن يحيى كان من العقلاء الكرماء البلغاء، ومن كلامه:
«ثلاثة أشياء تدل على عقول الرجال: الكتاب والرسول والهدية»^(٢). وقوله:
«المواعيد شبك الكرام يصيدون بها محامد الأحرار»^(٣). وقوله: «النية الحسنة مع
العذر الصادق يقومان مقام النجاح»، وقال: «إذا أدبر الأمر كان المطلوب في
الحيلة»^(٤). وقوله: «الكلام ذو فنون وخيره ما وفق له القائل وانتفع به السامع»^(٥).
وقوله: «دخلنا في الدنيا دخولاً أخرجنا منها»^(٦). وقوله: «الحاسد عدو مهين،
لا يدرك وتره إلا بالتمني»^(٧).

وعندما قال له رجل: والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس، قال له:
«لا تقرب إليّ من أعطاني فوق حقي»^(٨). ومن توقيعاته لمتظلم من بعض الولاة:
«أنصف من وليت أمره وإلا أنصفهم من ولي أمرك»^(٩).

ولما عاتب أحد الشعراء يحيى بن خالد، لأنه لم يعده في علقته، كتب إليه
يحيى يعتذر:

-
- (١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٤٩.
 - (٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢١.
 - (٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٨١؛ البيهقي: المحاسن والمساوى ص ١٥٦؛
ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢١، وقد ورد هذا القول في «العقد الفريد» على
النحو التالي: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول
يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها: ابن عبد ربه: العقد الفريد
ج ٢ ص ٢٥١.
 - (٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠١.
 - (٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.
 - (٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٦٦.
 - (٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٦ ص ٣٢٩.
 - (٨) نفس المصدر ج ٤ ص ١٠.
 - (٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٧.

دفع الله عنك نائبة الدهر وحاشاك أن تكون عيلاً
أشهد الله ما علمت وماذا لك من العذر جائزاً مقبولاً
ولعلي لو قد علمت لعاود تك شهراً وكان ذاك قليلاً
فاجعلن لي إلى التعلق بالعذ ر سبيلاً إن لم أجد لي سبيلاً
فقدماً ما جاء ذو الفضل بالفضل وما سامح الخليل خيلاً^(١)

وكان موسى بن عمران يقول: لم أرَ أنطق من أيوب بن جعفر ويحيى بن خالد^(٢). وعندما سجن يحيى وجّه إلى الرشيد رسالة استعطاف بليغة، قال فيها: «من الحبس لأمر المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه، وخذله شقيقه ورفضه صديقه، وزال به الزمان ونزل به الحدثان، وحل به الضيق بعد السعة، والشقاء بعد السعادة، وعالج البؤس بعد الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء، واقتصر السخط بعد الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين قد منى الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من حربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما أنا لك وعارية في يدي منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه وعاقبته بجرمه وجريته على نفسه، فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحب إليّ من موافقتك، فتذكر يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيتي وهب لي رضاك عني، ولتمل إليّ بغفران ذنبي، فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري، وبراءة ساحتي ما لا يتعاضمك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٤٤٩.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥.

وقدمني للموت قبلك . . وكتب في أسفله قصيدة طويلة، قال في مطلعها:

قل للخليفة ذي الصنا	ثع والعطايا الفاشية
وابن الخلائف من قريـ	ش والملوك الهادية
ملك الملوك وخير من	ساس الأمور الماضية
إن البرامكة الذيـ	من رموا ليدك بدهية
عمتهم لك سخطة	لم تبق منهم باقية ^(١)

ولمّا دنت وفاته كتب - وهو في السجن - أبياتاً من الشعر وأوصى ابنه الفضل أن يُنفذها إلى الرشيد، جاء في هذه الأبيات:

ستعلم في الحساب إذا التقينا	غداً يوم القيام من المظلوم؟
وينقطع التلذذ عن أناس	من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا	تنبه للمنية يا نئوم
تروم الخلد في دار المنايا	وكم قد رام غيرك ما تروم
إلى ديان يوم الدين نمضي	وعند الله تجتمع الخصوم ^(٢)

وقد ذكر النديم اسم يحيى مع أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة^(٣).

وكذلك جعفر، فإنه كان من ذوي الفصاحة والمذكورين باللسن والبلاغة، ويقال إنه وقع ليلة بحضرة هارون الرشيد زيادة على ألف توقيع ونظر في جميعها فلم يخرج شيء منها عن موجب الفقه^(٤)، إذ كان من أبرع أسماء الموقعين من

(١) البيهقي: المحاسن والمساويء ص ٥٣٥ - ٥٣٧؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد

ج ٥ ص ٦٩؛ الأتليدي: أعلام الناس ص ١٤٩.

(٢) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥١.

(٣) النديم: الفهرست ص ٤١٩.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان

ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

الكتاب والوزراء، قال عنه الجهشيارى^(١): كان جعفر بليغاً كاتباً، وكان إذا وُقِع نُسخَت توقيعاته وتدورست بلاغاته، وكان يقول لكتّابه: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا^(٢).

وقال عنه ابن خلدون: «كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل أنها كانت تباع كل قصة منها بدينار^(٣)».

ومن أمثله توقيعاته توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه: «العدوان أوبقة والتوبة تطلقة»^(٤). وتوقيعه على كتاب لعلي بن عيسى بن همام، وقد كتب إليه رقعة معتذراً من أشياء بلغته عنه:

كأنا وقد كنا صديقاً مصافياً تباعد بينانا فدام إلى الحشر^(٥)
ووقع على كتاب آخر لعلي بن عيسى: «حبب إلينا الوفاء الذي أبغضته، وبعض الغدر الذي أحببته كما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غدراتها

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٤، وقد ذكر القلقشندي: أن جعفر بن يحيى كان فرداً في زمانه بحيث يُضرب به المثل في أمثاله في التوقيع: القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٧٥ - ٧٦؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٢ ص ٣٣٥، مع تغيير طفيف في النص وقد نسب الجهشيارى هذا القول إلى يحيى بن خالد، وقد ورد على الشكل التالي: إن استطعتم أن تكون كتبكم التوقيعات اختصاراً فافعلوا: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠١.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤٧.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥، وقد ورد هذا التوقيع في «العقد الفريد» على الشكل التالي: العدل يوبقه والتوبة تطلقه؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٩، ونسب ابن الأثير هذا التوقيع إلى يحيى بن خالد؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٨٠.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥.

ووقعاتها عياناً وأخباراً والسلام»^(١).

ووقع أيضاً في رقعة رجل متحرم به: «هذا فتى له حرمة الأمل فامتنعنه بالعمل، فإن كان كافياً فالسلطان له دوننا، وإن لم يكن كافياً فنحن له دون السلطان»^(٢).

وجاء في العقد الفريد^(٣) أن جعفر بن يحيى وقع في رقعة محبوس: «لكل أجل كتاب. وفي رقعة متنصح: بعض الصدق قبيح. وإلى بعض عماله: قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما عدلت وإما اعتزلت»^(٤).

وفي قصة رجل شكا بعض خدمه: أخذ بأذنه ورأسه فهو مالك وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاية: كن له كأبيه لو كان مكانك. وإلى عامل مصر في رجل من بطانته يوصيه: إنه رغب إلى شعبك فارغب في اصطناعه. وفي قصة متظلم من بعض عماله: إني ظلمتك دونه. وفي قصة محبوس: الجناية حبسته والتوبة تطلقه. وإلى قوم: عين الخليفة تكلؤكم، ونظره يعمكم. وفي رقعة صارورة استأذنه في الحج: من سافر إلى الله أنجح. وفي قصة رجل شكا عزوبه: الصوم لك وجاء. وفي رقعة رجل سأل ولاية: لا أولى بعض الظالمين بعضاً. وفي قصة رجل سأله أن ينقل ابنه فقد طالت غيبته عنه: غيبة يوسف — ﷺ — كانت أطول. وفي قصة رجل تكلم عن بعض عماله: إنا لمثله حتى ينصفك. وفي قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته: يرحل عنكم. وفي قصة مستمنح قد كان وصله مراراً: دع الضرع يدرّ لغيرك كما درّ لك. وإلى الفضل بن الربيع وجاءه منه كتاب غمه وأكربه: كثرة ملاحات الرجال ربما أراقت الدماء. وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه: لم نزرعك لنحصدك. وإلى بعض عماله: اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٥١.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩.

عندنا. وإلى بعض ندمائه: لا تبعد عمن ضمك. ووقع إلى متصل من ذنب: حكم الفلتات خلاف حكم الأحرار. (انتهى كلام ابن عبد ربه).

ودفع رجل إلى جعفر رقعة ذكر فيها قصده إياه بأمل طويل ورجاء فسيح، فوقَّع على ظهرها: «هذا يمت بحرمة الأمل، وهي أقرب الوسائل، وأثبت الوسائل، فليجعل له من ثمرة ذلك عشرون ألف درهم وليمتحن ببعض الكفاية، فإن وجدت عنده فقد ضم إلى حقه حقاً، وإلى حرمة حرمة، وإن قصر عن ذلك فعلينا معوله، وإلينا موثله، وفي أماننا سعة له»^(١). ورفع رجل إلى جعفر قصة يسأله الاستعانة به وكان يعرفه ويخبره. فوقَّع:

قد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نرضَ الخبر^(٢)
ووقع جعفر في رقعة رجل تنقل إليه من ذنب: «تقدمت لك طاعة وظهرت منك نصيحة، كانت بينهما نبوة، ولن تغلب سيئة حسنتين»^(٣).

وكان أبوه يحيى بن خالد قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي حتى علَّمه وفقَّهه^(٤). وقيل بأنه كان أبلغ أهل بيته^(٥)، وقد وصفه ابن الطقطقي^(٦) بأنه كان فصيحاً لبيباً وذكياً فطناً كريماً، ووصفه ثمامة بن أشرس، فقال: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتَّمَهُل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقه عن الإشارة لا يستغني جعفر عن الإشارة لما استغنى عن الإعادة^(٧). وقال ثمامة مرة: «ما رأيت أحداً كان لا يتحبَّس

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥.

(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩.

(٥) نفس المصدر ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩.

(٦) ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ٢٠٥.

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٧١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٤.

ولا يتلجلج ، ولا يتنحنج ولا يرتقٍ لفظاً قد استدعاه من بعد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى . وقال ثمامة أيضاً: «قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون يحيط بمسناك ويجلي عن مغزأك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة. والذي لا بد منه: أن يكون سليماً من التكلّف، بعيداً من الصنعة، بريئاً من التعقيد، غنياً عن التأويل^(١). ويمضي ثمامة، فيقول: «ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون»^(٢).

ولما ناظر أحمد بن يوسف الكاتب إبراهيم بن المهدي في دار المأمون في أمر بني هاشم تفوق إبراهيم عليه فصاحة وحجة، فقال أحدهم لإبراهيم: «قد رأيت هذا الذي لا يطاق منحطاً في يدك، فقال إبراهيم: والله لو رأيتني في يد جعفر بن يحيى لرأيت دون هذا في يدي، وما رأيت أكمل من جعفر قط»^(٣).

وحين اجتمع الكتاب عند أحمد بن إسرائيل وتذاكروا الماضين من الكتاب أجمعوا أن أذكى كتاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح^(٤).

وجاء في تاريخ اليعقوبي^(٥) أنه عندما استخلف الرشيد على الشامات والجزيرة جعفر بن يحيى بن خالد وظهرت العصبية بحمص فصعد جعفر بن يحيى منبرها فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد، وقال: يا أهل الشام! أحذركم عواقب البطر، ووبال ما لا يُشكر من النعم، وملّمة كل خطب يدفع إلى

(١) نفس المصدر السابق ج ١ ص ٧١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٨٠، مع تغيير في النص.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢.

(٣) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء في كتاب الصولي ص ٣٤.

(٤) الصولي: أشعار أولاد الخلفاء من كتاب الأوراق ص ٢٠٧.

(٥) اليعقوبي: تاريخ م ٢ ص ٤١٠.

ندم . . فإن السعيد من سعد بغيره، والشقي من شقي بنفسه واتعظ به غيره، والمغبون من غبن عقله، والمفتون من فتن في دينه، والمحزوم من حزم خطه من ربه، والخاسر من باع آخرته بدنياء وآجله بعاجله، وإنما يخشى الله من عباده العلماء ولم يعط الله من عباده إلا أولي البهاء . . . في كلام كثير.

وقد ذكر الجهشيارى لجعفر خطبة أخرى بعد أن أصلح أمور الشام في سنة ثمانين ومائة، جاء فيها: الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم، دعاهم من طاعته لما ينجيهم، وذادهم من معصيته عما يرديهم كلفهم من العمل دون طاقتهم وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حملوا مخفف عنهم، وفيما خولوا موسّع عليهم، وصلى الله على محمد نبي الرحمة والمبعوث إلى كافة الأمة وعلى أهل بيته الطاهرين وسلّم تسليمًا.

أما بعد، فإني أوصيكم بالألفة، وأحذركم الفرقة، وأمركم بالاجتماع، وأنهاكم عن الاختلاف، قال الله جل وعز: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، فأمر بالجماعة في أول الآية، ثم لم ينقص حتى نهى فيها الفرقة، توكيداً للحجة وقطعاً للمعذرة. إن الفرقة تنشئ بينكم إحناً يطلب بها بعضكم بعضاً، وإن الجماعة تمتد بينكم ذمماً يحمي بها بعضكم بعضاً، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم، فمتى يطمع عدو فيكم إذا كانت النائية تعمكم؟ إن غفل بعضكم حرسه بقيتكم، وإن غربت طائفة منكم صنعها تآلفكم. إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلا أقوا حتى يمتنعوا، ولم يفترق أقوياء قط إلا أضعفوا حتى يخضعوا، واجتماع الضعيفين قوة، وافتراق القويين مهانة، تمكن منهما غافل، والجماعة لا تضره غفلته، لكثرة من يحفظه، ومتيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه لكثرة من يطلبه، وصاحب الجماعة يدرك أرشه في الخدش والشجة، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة^(١).

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

وهكذا نجد أن خطب جعفر – ومعظم كتابات البرامكة – كانت مبنية على السجع الذي كان جعفر يؤثره في كتاباته المختلفة مبالغة منه في التأنق والتنميق، وهو تنميق كان يطلب في كل ما يتصل به حتى في ثيابه^(١).

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن البرامكة أشاعوا السجع في الكتابة الديوانية، وإن لم يطرّد في جميع رسائلهم وآثارهم، ولكن نحس ميلهم الواضح له هم وبعض كتابهم ومن كانوا يكتبون إليهم^(٢).

وأيام كان الرشيد حسن الرأي في جعفر بن يحيى كان يحلف بالله أن جعفرأ أفصح من قسّ بن ساعدة، وأشجع من عامر بن الطفيل، وأكتب من عبد الحميد بن يحيى، وأسيس من عمر بن الخطاب، وأحسن من مصعب بن الزبير^(٣).

وإسحاق الموصلي شهد أيضاً بذكاء جعفر وفطنته وفصاحته وأبدى إعجابه من سعة علمه بالألحان والأشعار. هذا ما رواه الحسين بن يحيى عندما قال: سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصلي يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، أنه ما رأى أذكى من جعفر بن يحيى قط، ولا أفطن ولا أعلم بكل شيء، ولا أنصح لساناً، ولا أبلغ مكاتبة! قال: ولقد كنا يوماً عند الرشيد فغنى أبي لحناً في شعر طريح بن إسماعيل، وهو:

قد طلب الناس ما بلغه فما نالوا ولا قاربوا وقد جهدوا
فاستحسن الرشيد اللحن والشعر واستعاده ووصل أبي عليه. فقال: جعفر بن يحيى: قد والله يا سيدي أحسن، ولكن اللحن مأخوذ من لحن الدلال الذي غناه في شعر أبي زبيد:

(١) نفس المصدر ص ٢١٥.

(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ج ٣ ص ٤٧٦.

(٣) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٧٤.

من ير العير لابن أروى على ظهر المروري حداتهن عجال

وأما الشعر فنقله طريح من قول زهير:

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم فلم يفعلوا ولم يلموا ولم يألوا

قال إسحق: فعجبت والله من علمه بالألحان والأشعار، وإذا اللحن يشبه لحن الدلال، قال: وكذلك الشعر: فاغتممت أني لم أكن فهمت اللحن، وكان ذلك أشهر عليّ من ذهاب أمر الشعر عليّ وأنا والله مع ذلك أغني الصوتين وأحفظ الشعرين^(١).

ومما ينسب إليه من الفطنة أنه بلغه أن الرشيد مغموم لأن منجماً يهودياً زعم أنه يموت في تلك السنة (يعني الرشيد) وأن اليهودي في يده، فركب جعفر إلى الرشيد، فرآه شديد الغم، فقال لليهودي: أنت تزعم أن أمير المؤمنين يموت إلى كذا وكذا يوماً؟ قال: نعم، قال: وأنت كم عصرك؟ قال: كذا وكذا أمداً طويلاً، فقال للرشيد: اقتله حتى تعلم أنه كذب في أمده، فقتله. وذهب ما كان بالرشيد من الغم وشكره على ذلك وأمر بصلب اليهودي، فقال أشجع السلمي في ذلك:

سل الراكب الموفى على الجذع هل رأى لراكبه نجماً بدا غير أعور
ولو كان نجم مخبراً عن منية لأخبره عن رأسه المتحير
يعرفنا موت الإمام كأنه يعرفنا أنباء كسرى وقيصر
أتخبر عن نحس لغيرك شؤمه ونجمك بادي الشر يا شر مخبر

ومضى دم المنجم هدرًا بحمقه^(٢).

وعندما تكلم جعفر بشيء قاله للفضل (الفضل بن الربيع)، فقال الفضل: إشهد عليه يا أمير المؤمنين، فقال جعفر: فض الله فاك يا جاهل إذا كان

(١) الأصبهاني: الأغاني ج ٤ ص ١٦٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩.

أمير المؤمنين الشاهد فمن الحاكم المشهود عنده؟ فضحك الرشيد وقال: يا فضل لا تمار جعفرًا، فإنك لا تقع منه موقعاً^(١).

ومن مليح كلامه قوله: الخط سمط الحكمة، به تفضل شذورها وينظم منشورها^(٢).

وقوله: الخراج عمود الملك، وما استعزز بمثل العدل، وما استنزر بمثل القلم^(٣).

وقوله أيضاً: «إذا أحببت إنساناً من غير سبب فأرج خير، وإذا أبغضت إنساناً من غير سبب فتوق شره»^(٤).

وقال إبراهيم الموصلي: «سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخر حاجة ضمنها له وهو يقول: احتج إليك بغالب القضاء، واعتذر إليك بصادق النية»^(٥).

وقد حدثنا أحدهم عن بصر الفضل بن يحيى بقول الشعر، فقال: كنا عند الفضل بن يحيى، فخضنا في الشعر، فإذا هو من أروى الناس له، وأجودهم صلباً فيه، فقلت له: أصلحك الله! لو قلت شيئاً من الشعر، فإنه يزيد في الذكر، وينبئه، فقال: هيهات شيطان الشعر أخبت من أن أسلطة على عقلي^(٦).

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة م ٤ ج ١٨ ص ٢٤٤ - ٢٤٥؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٦؛ ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٤ ص ٣٨، مع تغيير طفيف في النص.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٥؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٨٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى ج ٣ ص ٢.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ١٣؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٣١.

(٤) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٣.

(٥) نفس المصدر العقد الفريد ج ٢ ص ١٤١.

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٧.

وخير دليل على حسن بديهة الفضل بن يحيى في الشعر، وما حدثنا به عبد الله بن سلام، إذ قال: لَمَّا وُلِدَ العباس بن الفضل دخل الناس على الفضل بن يحيى يهنئون به وفيهم أبو النضير، فوقف بين يديه وهو يقول:

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
وتستنبط الآمال فيه لفضله

فارتجّ عليه، فوقف لا يمكنه أن يجيزه، فقال له الفضل: يا أبا النضير! تم. قال: أعزّ الله الأمير، قال: ويحك فقل:

ولا سيما إن كان من ولد الفضل

قال: هذا والله، أصلح الله الأمير، طلبته فلم أقدر عليه وتعلّلت بغيره^(١).

وللفضل بن يحيى شعر في نكبتهم قاله في محبسه:

إن العزاء على ما ناب صاحبه في راحة من عناء النفس والتعب
والصبر خير معين يستمعان به على الزمان ومن ذا فيه لم يصب
لولم تكن هذه الدنيا لها دول بين البرية بالآفات والعطب
إذا صفت لأناس قبلنا وبهم كانت تليق ذوي الأخطار والحسب
ولم تنلها وفيما قد ذكرت أسى فارضوا وإن أسخطكم نوبة العقب
نضواً لحوادث نضواً ليس ينفعه شيء سوى الصبر من كد ومن تعب
والله ما أسفي إلاً لواحدة ألا أكون تقدمت المنون أبي
فكان يؤجر في ثكلي وتبعني دعاؤه لي دعاء الوالد الحذب^(٢)
وله أيضاً:

إذا ملكت كفي منالاً ولم أنل فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٤١٦ - ٤١٧؛ الأصبهاني: الأغاني ج ١٠ ص ٢٠٤ -

٢٠٥، مع تغيير طفيف في النص.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٦٠.

على الله إخلاف الذي قد بذلته فلا مسعدي بخلي ولا متلفي بذلي
أروني بخيلاً نال مجداً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل^(١)

وجاء في «مروج الذهب»^(٢): أنه لما قتل جعفر وقبض على يحيى والفضل
وضيق عليهما المحابس واشتدَّ بهما الجهد وترادف عليهما البلاء، قال الفضل بن
يحيى يذكر ما هما فيه:

إلى الله فيما نابنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الأموات ولا الأحياء
إذا جاءنا السجن يوماً لحاجة حجنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وجاء في «الفهرست»^(٣): فممن عمل شعر أبي نواس على غير الحروف
يحيى بن الفضل راويته، وجعله عشرة أصناف. وذكر ابن النديم^(٤) اسم الفضل بن
يحيى مع أسماء البلغاء، ومن أقواله: عز الشريف أدبه^(٥).

وعن الخصال الحميدة التي كان يتمتع بها خالد بن برمك، قال
المسعودي^(٦) ما حرفيته: «لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده
ورأيه وبأسه وعلمه وجميع خلاله: لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل بن
يحيى في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لسانه، ولا محمد
في سروه وبعده همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه».

وكان خالد البرمكي أول من نظم دواوين الدولة العباسية في خلافة

(١) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ١٥٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٥.

(٣) النديم: الفهرست ص ١٨٢.

(٤) نفس المصدر ص ١٣٩.

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوي ص ٣٢٩.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٣.

أبو العباس السفاح^(١)، وقد وصف سهل بن هارون البرامكة، فقال: «والله إن كانوا سجعوا الخطب، وقرضوا القريض لعيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درأً، أو يحيله المنطق السري جوهراً، لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما. ولقد كان مع هذا عند كلام الرشيد في بديته وتوقيعاته في كتبه قدمين عيين، وجاهليين أميين، ولقد عمرت معهم وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وإنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثير أيام سواهم، من لدن آدم أبيهم إلى النفخ في الصور، وانبعاث أهل القبور، حاشى أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورونق سياقتهم، ومعسول مذاقتهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال الخير فيهم، في جنب محاسن الرشيد كالنقطة في البحر، والخردلة في المهمة الفقر^(٢).

وقد اتخذ البرامكة كتاباً بلغاء عملوا في دواوينهم، ومن أبرزهم إسماعيل بن صبيح، الذي قلّده الرشيد ديوان الخراج ثم ديوان الرسائل^(٣)، كما قلّده إبراهيم الحراني زمام الشام يليها بشفاعة يحيى بن خالد إليه، لأن إسماعيل كان كاتبه^(٤) وورد اسمه مع أسماء البلغاء^(٥).

ومن كتاب البرامكة أيضاً يوسف بن صبيح، الذي كان كاتباً للمنصور ثم قرّبه

(١) عبد الجبار الجومرد: داهية العرب أبو جعفر المنصور ص ٣٢٣.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥ ص ٥٨؛ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج ٢ ص ١٩٩.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٧.

(٤) نفس المصدر ص ١٦٨.

(٥) النديم: الفهرست ص ١٣٩.

البرامكة إليهم وعمل في دواوينهم . وذكر الجهشيارى بأن يحيى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد^(١) . وروى ابن المعتز أن الليث بن نصر بن سيار كان من أكتب الناس في زمانه، وكان بارع الأدب بصيراً بالنحو والشعر والغريب، وكان يكتب للبرامكة ويطير معهم في دولتهم بجناحين، وكانوا به معجبين^(٢) .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة والفقه في ذلك الوقت: محمد بن الليث، وفيه يقول النديم^(٣): «كتب ليحيى بن خالد . . .»، ومن بين كتبه كتاب إلى يحيى بن خالد في الأدب، ومن آثاره الهامة رسالة رائعة كتب بها إلى جعفر بن يحيى في الخط والقلم بعد أن كتب إليه (جعفر) يستوصفه الخط، وفيها يقول: «أما بعد، فليكن قلمك بحرياً لا سميناً ولا رقيقاً ما بين الرقة والغلظ، ضيق الشعب، فأبره برياً مستوياً كمنقار الحمامة واعطف قطنه ورقق شعرته، وليكن مدادك صافياً خفيفاً إذا استمددت منه فأنقصه ليلة ثم صفه في الدواة، وليكن قرطاسك رقيقاً مستوي النسيج، تخرج السحاة مستوية من أحد الطرفين إلى الآخر، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك وأقله في الوسط، ولا تمط في الطرف الآخر، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة، ولا تترك الأخرى بغير مط، فإنك إذا فرقت القليل كان قبيحاً وإذا أجمعت الكبير كان سمجاً . ثم ابتدء الألف برأس القلم كله واخططه بعرضه واختمه بأسفله . . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مرسل برأس القلم . . واكتب الجيم والحاء والخاء والذال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . . وامطط بعرض القلم . . والمط نصف الخط ولا يقوى عليه إلا العاقل . . ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٥ .

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٩٦ .

(٣) النديم: الفهرست ص ١٣٤ .

إلاً بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة، والسلام»^(١).

ومما لا شك فيه فإن هذه الرسالة تدلنا على اهتمام الكتاب الكبير باختيار الأقلام وبجودة الخط.

ومن كتاب البرامكة البلغاء أيضاً أنس بن أبي شيخ، قد سلكه النديم^(٢) في البلغاء العشرة الأولى في العصر، وفيه يقول الجاحظ: «كان أنس بن أبي شيخ يكتب لجعفر بن يحيى، وكان والياً مهماً نقي الألفاظ جيد المعاني حسن البلاغة، فقتل مع جعفر»^(٣).

ومما حفظ من كلام أنس: «إن الله جل ثناؤه جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ما يأخذ مما يعطي، ويبتلي ما يبتلي به ليجزي»^(٤).

وبالإضافة إلى هؤلاء الكتاب، فقد كتب في دواوين البرامكة عدد آخر من الكتاب الذين برزوا فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل، ومثل سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة وغيرهم.

ذو الرياستين^(٥) الفضل بن سهل وأخوه الحسن بن سهل كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس، وأسلما هما وأبوهما سهل في أيام هارون الرشيد واتصلوا بالبرامكة، وكان سهل يتقهرم ليحيى بن خالد بن برمك وضم يحيى الحسن والفضل ابني سهل إلى ابنيه الفضل وجعفر يكونان معهما فضم جعفر الفضل بن

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) النديم: الفهرست ص ١٤٠.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٩.

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٠.

(٥) سُمي ذا الرياستين لجمعه بين السيف والقلم: ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩٧؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٢١.

سهل إلى المأمون^(١) فأسلم على يديه^(٢).

كان الفضل بن سهل سخيّاً سرّياً نبيل النفس كثير الأفعال، يذهب مذاهب البرامكة في ذلك، وكان غليظ العقوبة إذا عاقب، مقدماً إذا أنكر، حسن الرجوع إذا استعطف، وكان حسن البلاغة ولا ينصرف أحد من عنده إلا وهو راضٍ^(٣).

وكان يقال له الوزير الأمير^(٤). وقد أثنى عليه يحيى بن خالد يوماً، فقال له: في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة وأنت عندي منهم^(٥).

وكان الحسن بن سهل من أسمح الناس وأكرمهم^(٦)، وجاءه يوماً رجل يستشفع به في حاجة فقضاها فأقبل الرجل يشكره، فقال له الحسن بن سهل: علام شكرنا ونحن نرى أن للجاه زكاة كما أن للمال زكاة؟ ثم أنشأ الحسن يقول:

فرضت على زكاة ما ملكت يدي زكاة جاهي أن أعين وأشفعاً
فإذا ملكت فُجْدُ وإن لم تستطع فاجهد بوسعك كله أن تنفعاً^(٧)

ولما مات الحسن بن سهل قال أحدهم: والله لئن أتعب المادحين لقد أطل بكاء الباكين، ولقد أصيبت به الأيام وخرست بموته الأقلام، ولقد كان بقية وفي الناس بقية، فكيف اليوم وقد بادت البرية^(٨)؟

وأما سهل بن هارون فقد وصفه الجاحظ فقال: «كان سهل سهلاً في نفسه

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٢٠.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣١، قيل أسلم الفضل بن سهل وأخوه الحسن على

يد يحيى بن خالد: ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ١٩٧.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٣٠٧.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الأداب السلطانية ص ٢٢١.

(٥) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٢.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٣٢٢٧.

(٧) نفس المصدر ج ٧ ص ٣٢٢.

(٨) نفس المصدر ج ٧ ص ٣٢٢.

عقب الوجه حسن الشارة بعيداً عن الغدامة، تقضي له بالحكمة قبل الخبرة وبرقة
الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبيل قبل التكشف»^(١).

وفيه يقول أيضاً: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب
والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسَّير الحسان المجلدة والأخبار
المدونة: سهل بن هارون بن راهبيوني، الكاتب صاحب كتاب «ثعلة وعفرة» في
معارضة كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «الإخوان»، وكتاب «المسائل»، وكتاب
«المخزومي والهزلية»، وغير ذلك من الكتب»^(٢).

واتخذ جعفر بن يحيى عمر بن مسعدة كاتباً للتوقيع بين يديه، وكان بليغاً
شاعراً مترسلاً، وله كتاب رسائل كبير^(٣).

وهكذا، وبعد أن لمسنا ما كان يتمتع به البرامكة من بيان وبلاغة وفصاحة،
وبعد أن رأينا ما اصطنعوه من كتاب وبلغاء مشهورين، لم يعد من المبالغة أن نقول
إنهم كانوا طليعة لنهضة أدبية طبعت عهد الرشيد ومن بعده بقليل بطابعها الخاص،
فقد كانت لهم مجالسهم الأدبية والعلمية التي يتجادل فيها كبار العلماء ويتحاورون
في مختلف المسائل التي تعترضهم، فقد روى المسعودي^(٤) عن جلساء يحيى بن
خالد وهم يتحدثون عن العشق وأسبابه، فقال: «كان يحيى بن خالد ذا علم
ومعرفة وبحث ونظر، وكان له مجلس يجتمع فيه كثير من أهل البحث والنظر من
متكلمي الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل، فقال لهم يحيى يوماً، وقد
اجتمعوا عنده: «قد أكثرتم الكلام في الكون والظهور والقدم والحدوث والنفي
والإثبات والحركة والسكون والحماسة والمباينة والموجود والمعدوم والجزء والطفرة
والأجسام والأعراض والتعديل والتجريح ونفي الصفات وإثباتها والاستطاعة

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٦٢.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٤٢.

(٣) النديم: الفهرست ص ١٣٦.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣٦ - ٢٤١.

والأفعال والجوهر والكمية وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع، فأشرعوا في الكلام في العشق على غير منازعة منكم، وليورد كل واحد منكم ما سنع له الوقت فيه وخطر إيراده بباله».

وقد ذكر المسعودي أطرافاً من هذه المناظرة بين اختلاف وجهات نظر العلماء في العشق وأسبابه.

ومن تلك المناظرات أيضاً المناظرة التي جرت بين سيبويه والكسائي في مجلس يحيى بن خالد، وكان ذلك عندما قدم سيبويه إلى العراق قاصداً يحيى بن خالد فجمع بينه وبين الكسائي والأخفش فناظراه وخطباه في مسائل وحاكماه إلى فصحاء العرب وكانوا قد وفدوا على السلطان وهم أبو فقحس وأبودثار وأبو الجراح وأبو ثروان، فكان الكسائي على الصواب وكلم الكسائي يحيى بن خالد فأجازه بعشرة آلاف درهم، فأخذها وعاد إلى البصرة، ومنها إلى فارس^(١).

وكان يحيى بن خالد يحضر الأدباء ويطرح عليهم الأسئلة المختلفة، فقد قال الفراء أنه رأى الكسائي يوماً كالباضي، فسأله عما يبيكه، فأجابه: هذا الملك يحيى بن خالد، يوجه إليّ فيحضرني فيسألني عن الشيء فإن أبطأت في الجواب لحقني منه عتب وإن بادرت لم آمن من الزلل^(٢).

وقيل إن جابر بن حيان كان في جملة البرامكة ومنقطعاً إليها ومتحققاً بجعفر بن يحيى^(٣) وألف للبرامكة كتاب أسطقس الأس الأول، وكتاب أسطقس الأس الثاني، وكتاب الكمال؛ كما ألف كتاب إعراض الصنعة إلى جعفر بن يحيى البرمكي^(٤).

(١) النديم: الفهرست ص ٥٧؛ القفطي: إنباء الرواة ج ٢ ص ٣٤٨، مع تغيير في النص.

(٢) القفطي: إنباء الرواة ج ٢ ص ٢٦٦.

(٣) النديم: الفهرست ص ٤٢٠.

(٤) نفس المصدر ص ٤٢١.

وألف أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن هبته) ليحيى بن خالد كتاب الجوامع، الذي يحتوي على أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به^(١)، كما عمل له الخياط (أبو علي يحيى بن غالب) كتاب المثنور^(٢). وكان الفرخان الطبري - العالم الحكيم - منقطعاً إليه^(٣).

* * *

(١) نفس المصدر ص ٢٥٧.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٥.

(٣) القفطي: إخبار العلماء ص .



الترجمة

وللبرامكة الفضل الكبير في تنشيط الترجمة، فقد بذلوا الجهود الكبيرة لتشجيع نقل العلوم القديمة (الرومية واليونانية والفارسية والهندية) إلى اللغة العربية، من ذلك طلب يحيى بن خالد إلى بطريق الإسكندرية أن يترجم في الزراعة كتاباً عن الرومية، وقد ترجمه برسمه^(١). وكان يحيى البرمكي أول من عني بتفسير كتاب المجسطي (هذا الكتاب ثلاث عشرة مقالة) وإخراجه إلى العربية، ففسّره جماعة فلم يتقنوه، ولم يرضَ ذلك فندب لتفسيره أبا حسان، وسلّم صاحب بيت الحكمة فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المٌجودين فاخبرا نقلهم وأخذوا بأفصححه وأصحّه^(٢).

وقد اعتنى البرامكة عناية واسعة بترجمة التراث الفارسي، ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والعصر الذي تلاهم بهذه الترجمة، نذكر من بينهم آل نوبخت^(٣) وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك^(٤) والفضل بن سهل الذي ترجم ليحيى البرمكي كتاباً من الفارسية إلى العربية

(١) عبد الرحمن البدوي: التراث اليوناني (مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد)، عن الدكتور شوقي ضيف (العصر العباسي الأول ص ١١٢).

(٢) النديم: الفهرست ص ٣٢٧.

(٣) النديم: الفهرست ص ٣٠٥.

(٤) نفس المصدر ص ٣٣٣.

فأعجب بفهمه وبجودة عبارته^(١).

ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حينئذ محمد بن الجهم البرمكي، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني، وبهرام بن مردان شاه، وموسى بن عيسى الكروي، وعمر بن الفرخان^(٢). وسلم صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون^(٣).

ولما استقدم يحيى بن خالد بعض أطباء الهند كان من بينهم «منكة»^(٤)، الذي كان ينقل من اللغة الهندية إلى العربية^(٥) فأمره يحيى بتفسير كتاب سرد وعشر مقالات في البيمارستان^(٦).

وكان أبان بن عبد الحميد اللاهقي نقل للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة»^(٧) فجعله شعراً ليسهل حفظه عليهم، وهو معروف، أوله:

هذا كتابُ أدبٍ ومحنة وهو الذي يُدعى كليلة ودمنة
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتابٌ وضعته الهند^(٨)

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار ولم يعطه جعفر شيئاً، وقال: ألا يكفيك أن أحفظه فأكونَ راويك^(٩).

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٣٠.

(٢) النديم: الفهرست ص ٣٠٥.

(٣) نفس المصدر ص ١٣٤.

(٤) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٦٤.

(٥) النديم: الفهرست ص ٣٠٥.

(٦) نفس المصدر ص ٣٦٠.

(٧) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٤٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١١؛ النديم:

الفهرست ص ١٣٢؛ الأصبهاني: الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٤.

(٨) الأصبهاني: الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩.

(٩) نفس المصدر ج ٢٠ ص ١٨٠؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٤ - ٤٥.

ويقال إن أبان قَلَبَ كتاب كليلة ودمنة في ثلاثة أشهر إلى الشعر، وهو أربعة عشر ألف بيت، وقد ألزمه يحيى بن خالد داراً لا يخرج منها حتى ينقل هذا الكتاب من الكلام إلى الشعر فنقله^(١). ويقال: إن كل كلام نقل إلى شعر فالكلام منه إلا كتاب كليلة ودمنة^(٢).

وقد فسّر أيوب وسمعان أزيج بطليموس لمحمد بن خالد بن يحيى بن برمك^(٣)، وكان سلام والأبرش من النقلة القدماء (من اللغات إلى اللسان العربي) في أيام البرامكة، ويوجد بنقلهما السماع الطبيعي^(٤).

وبعد انتصار الرشيد على سمالو^(٥) سألوه الأمان، فأجابهم إلى ذلك، فأنزلوا ببغداد في محلة الشماسية فسمي موضعهم سمالو، أودار الروم، وبنوا هناك كنيسة، كما نزل قسم من رهبانهم في دير خارج باب الشماسية سُمي بـ «دير سمالو». وإذا لاحظنا أنه في نفس الفترة نشطت حركة الترجمة على يد ابن البطريق فنطرح السؤال: هل كان ابن البطريق من روم سمالو الذين أسكنهم البرامكة في دار الروم أم لا؟ فإذا كان الردّ إيجابياً فباستطاعتنا القول أن البرامكة كانوا الأساس في قيام حركة الترجمة، وبالتالي كانوا النواة الأولى في إنشاء خزانة الحكمة التي دُعيت فيما بعد «بيت الحكمة». وبذلك يتبين لنا فضل البرامكة الكبير على الترجمة.

وقد ذكر «ابن خلدون» في مقدمته أن الفضل بن يحيى هو أول من أشار بصناعة الكاغد وصنعه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذته الناس من

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٤٤؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٢.

(٢) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٢.

(٣) النديم: الفهرست ص ٣٠٥.

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٣٤؛ الطبري: تاريخ ج ٨ ص ١٤٦ - ١٤٧؛ ابن الأثير: الكامل ج ٦ ص ٦٠ - ٦١؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٦.

بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية^(١). وكان خالد بن برمك أول من جعل الحساب في دفاتر، وكان قبل ذلك في أدراج من كاغد ورق^(٢).

ومما لا شك فيه أن هذه الأعمال التي قام بها البرامكة كانت من أهم الأسباب التي ساعدت على انتشار العلم وعلى ازدهار حركة الترجمة.

* * *

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٢) الفلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٢٣.



الطِّبُّ

كان للبرامكة رغبة في طب الهند وأطبائه، فأنشأوا مارستاناً باسمهم وولّوا عليه طبيباً هندياً اسمه ابن دهن، وهو ممن نقل إلى العربي من اللسان الهندي^(١).

واعتنى البرامكة في استقدام أطباء الهند إلى بغداد، فقد ذكر الجاحظ في «بيانه» أن يحيى بن خالد اجتلب أطباء الهند، مثل منكّة، وبازيكر، وقلبرقل، وسند باز وغيرهم^(٢).

وجاء في «الفهرست»^(٣): حكى بعض المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وأن يكتب له أديانهم، فكتب له هذا الكتاب، ويضيف صاحب «الفهرست» أن محمد بن إسحق قال: الذي عني بأمر الهند في دولة العرب، يحيى بن خالد وجماعة البرامكة (ويوشك أن تكون هذه الحكاية صحيحة إذا أضفناها إلى ما نعرف من أخبار البرامكة)، واهتمامهم بأمر الهند وإحضارهم العلماء من الأطباء والحكماء.

ولما مرض الرشيد في سنة إحدى وسبعين ومائة من صداع لحقه، طلب من يحيى بن خالد طبيباً ماهراً، لأن هؤلاء الأطباء ليس يحسنون شيئاً. فأشار عليه

(١) النديم: الفهرست ص ٣٠٥.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ٦٤.

(٣) النديم: الفهرست ص ٤٠٩.

يحيى ببختيشوع، فقال له الرشيد: إرسل بالبريد حتى يحملوه إن كان حياً^(١).

وبعد مرور أربع سنوات طلب يحيى البرمكي من ببختيشوع أن يختار له طبيباً ماهراً فأهداه على ابنه جبرائيل. هذا ما ذهب إليه فيثيون الترجمان، إذ قال: لمّا كان في سنة خمس وسبعون ومائة مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فتقدّم الرشيد إلى ببختيشوع أن يتولّى خدمته ومعالجته، ولمّا كان في بعض الأيام قال له جعفر: أريد أن تختار لي طبيباً ماهراً أكرمه وأحسن إليه، قال له ببختيشوع: «ابني جبرائيل أمهر مني وليس في الأطباء من يشاكله»، فقال له: أحضرنيه. ولمّا أحضره عالجه في مدة ثلاثة أيام وبرأ، فأحبه جعفر مثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب^(٢).

وهكذا أصبح جبرائيل (الذي نبغ في حياة أبيه) طبيباً لجعفر بن يحيى البرمكي، ثم ما لبث أن «قدّمه إلى الخليفة هارون الرشيد فصار طبيبه الخاص ونزل لديه منزلة ممتازة وجعله رئيساً للأطباء»^(٣).

وعندما اشترى جبريل بن ببختيشوع الطبيب ضيعة بسبع مائة ألف درهم وتعذّر عليه دفع كامل ثمنها، سكب عليه البرامكة العطايا الجزيلة التي فاقت كثيراً المبلغ المطلوب. وهذا ما أشار إليه جبرائيل نفسه، إذ قال: اشتريت ضيعة فنقدت بعض الثمن وتعذّر عليّ بعضه، فدخلت على يحيى وعنده ولده وأنا أفكر، فقال لي: مالي أراك مفكراً؟ فقلت: أنا في خدمتك وقد اشتريت ضيعة بسبع مائة ألف ونقدت بعض الثمن وتعذّر عليّ بعضه، فدعا بالدواة وكتب: يُعطي جبريل سبع مائة ألف درهم، ثم دفع الكتاب إلى ولده، فوَقَّع فيه كل واحد منهم بثلاثمائة ألف درهم، فقلت: جُعِلت فداك! قد أدّيت عامة الثمن وإنما بقي عليّ أقلّه. فقال: اصرف ذلك في بعض ما ينوبك. ثم صرت إلى الرشيد، فقال: «ما أبطأ

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) نفس المصدر ص ١٨٨.

(٣) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ١٨٨.

بك؟ قلت: يا أمير المؤمنين كنت عند أبيك وإخوتك فقولوا بي كذا وكذا. قال: فما حالي أنا؟ ثم دعا بدابته فركب إلى يحيى، فقال: يا أبت! خبرني جبريل بما كان فما حالي أنا؟ من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مُر له بما شئت يحمل إليه، فأمر بحمل مال إلى جبريل^(١).

وكان يصير إليه (جبرائيل بن بختيشوع) من البرامكة في كل سنة من الورق ألف ألف وأربعمائة ألف درهم. وتفصيل ذلك: يحيى بن خالد ستمائة ألف درهم، جعفر بن يحيى الوزير ألف ألف ومائتا ألف درهم، الفضل بن يحيى ستمائة ألف درهم. . يكون في مدة ثلاث عشرة سنة: أحد وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم. يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرشد وهي ثلاث وعشرون سنة، وخدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة، سوى الصلوات الجسام، فإنها لم تُذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين ألف درهم وثمانمائة ألف درهم^(٢).

وهكذا نرى أن البرامكة استقدموا الأطباء إلى بلادهم فأكرموا وفادتهم وجادوا عليهم بالأموال الهائلة حتى أثروا ثراءً فاحشاً، وأبلغ دليل على ذلك ما جاء على لسان الجهشياري^(٣): حيث يقول: إن جبريل بن بختيشوع كان صنعة البرامكة، وكان يقول للمأمون كثيراً: هذه النعمة لم أفدها منك ولا من أبيك، هذه أفدتها عن يحيى بن خالد وولده.

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٨١؛ ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء ص ١٩٢، مع تغيير طفيف في النص.

(٢) القفطي: أخبار العلماء ص ١٤٣؛ ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٢٠٠.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٢٦ - ٢٢٧.



التواضع وَالتَّقَرُّبُ إِلَى النَّاسِ

عامل البرامكة الناس معاملة حسنة اتَّسَمَتْ بالتواضع والعطف والعدل والإحسان، فأحبهم الجميع وتقاطروا إليهم من مختلف الجهات .

لقد وضع البرامكة نصب أعينهم كسب مرضاة الناس ومودَّتهم، فكان خالد أول من سمي المستمِحين، ومن يقصد من العمال لطلب البرِّ الزوار، وكانوا يُسمَّون قبل ذلك السُّؤال، فقال خالد: أنا أستقبح لهم هذا الأسم وفيهم الأحرار والأشراف^(١).

لقد استمال البرامكة النفوس إليهم وتجمَّع الناس أمام أبوابهم، فيُحكى أن أصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان على باب يحيى بن خالد وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم ولقيهم ببشر وطلاقة، وأنه خرج يوماً مبكراً فلم يرَ منهم أحداً، فأنشد متمثلاً:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من بيت على وجل^(٢)
وكان يحيى لا يقضي حاجة إلا بوعده، ويقول: «من لم يبت على سرور

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥٠؛ الأصبهاني: الأغاني ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩؛ ابن الطقطقي: الفخري في الأداب السلطانية ص ١٥٧.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٨.

الوعد لم يجد للضيعة طعاماً»^(١).

وكان يحيى وابناه، الفضل وجعفر، يجلسون للناس جلوساً عاماً في كل يوم إلى انتصاف النهار ينظرون في أمور الناس وحوائجهم، لا يُحجب أحد ولا يُلقى لهم ستر^(٢).

وقد روى الخطيب البغدادي أن يحيى البرمكي كان يقعد في بيت مجتمع صغير مكتوب عليه:

كفى بمتلمس التواضع رفعة وكفى بمتلمس العلو سفالاً^(٣)
ولم يكتفِ يحيى بذلك، بل نصح أبناءه بترك التكبر والتحلي بالتواضع.
هذا ما ذكره الواقدي، حيث قال: دخل الفضل بن يحيى بن خالد على أبيه يتبخر في مشيته وأنا عنده، فكرة ذلك منه، فقال لي يحيى: يا أبا عبد الله! أتدري ما بقى الحكيم في طرسه؟ قلت: لا. قال: بقى الحكيم في طرسه أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء، فيا لها حسنة غطت على عيبين عظيمين! ويا لها سيئة غطت على حستين كبيرتين^(٤).

وكان يحيى يقول: «لست ترى أحداً تكبر في إمارة إلا وقد دلَّ على أن الذي نال فوق قدره، ولست ترى أحد تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه»^(٥).

وقوله: «الشريف إذا نقر تواضع، والوضيع إذا نقر تكبر»^(٦).

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٢٤٧.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٢٩.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩٨.

(٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٦٨؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠١.

(٦) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٦٥، وقد ذكر الجهشيارى هذا القول على الشكل =

وقوله: «ذكر النعمة من المنعم تكدير ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير»^(١).
وقد قال له رجل: لا تنسى أيها الأمير حاجتي: فقال: «إذا قضيتها نسيته»^(٢).
وقال جحظة في أماليه: كلّم العتابي يحيى بن خالد في حاجة له كلمات قليلة، فقال يحيى: لقد نزر كلامك اليوم وقَلَّ، فقال له: وكيف لا يقلّ وقد تكنفني ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد؟ فقال له يحيى: لئن قلّ كلامك لقد كثرت فوائده^(٣).

وقال عبد الصمد بن علي: ما رأيت أكرم من يحيى نفساً ولا أحلم منه، جعل على نفسه أن لا يكافىء أحداً بسوء فوفّى^(٤).

لقد كان البرامكة لطفاء العشرة، يحرصون على عدم الإساءة إلى أحد، وأبلغ دليل على ذلك ما ذهب إليه البيهقي^(٥) في كتاب «المحاسن والمساوىء»، إذا قال: حدّث رجل من آل أسوار بن ميمون عن عمه عبد الله بن أسوار، قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي يوماً، قال: جلست وكنت أحد كتّابه، فقلت: ليست معي دواة، فقال: ويحك، أفي الأرض صاحب صناعة تفارقه آلهة؟ وأغلظ لي في حرف علمت أنه أراد به خطي وأراني بعض الثاقل في الكتاب ظهر لي به أنه أراد خطي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة فكتبت بين يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه ورأى مني بعض الضجر في ما أكتب، فتوهّم أن ذلك من أجل الكلمة

التالي: الكريم إذا تقرأ تواضع، واللثيم إذا تقرأ تكبر، والخسيس إذا أيسر تجبر:

الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٠٠.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٥.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء م ٩ ج ١٧ ص ٢٨.

(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٢٠٣.

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٨٠-١٨١؛ الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ١٩٨.

التي كلّمني بها، فأراد أن يمحو عن قلبي ما توهمه عليّ، فقال: عليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت ثلاثمائة ألف درهم. فوقّع بخطه إلى الفضل في الكتاب: «وكلكم قد نال شبعاً لبطنه - وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه»، ثم قال: إن عبد الله ذكر أن عليه ديناً يخرج منه ثلاثمائة ألف درهم، فإذا نظرت في كتابي هذا وقبل أن تضعه من يدك فأقسمت عليك لمّا حملت ذلك إلى منزله من أخصر مال قبلك. قال: فحملها الفضل إليّ وما أعلم لها سبباً إلاّ تلك الكلمة.

ولمّا رفع أحد الناس إلى يحيى بن خالد قصة يقول فيها: إنه قد توفي تاجر غريب وقد خلف جارية حسناء وولداً رضيعاً ومالاً كثيراً والوزير أحق بهذا فكتب يحيى على رأس القصة «أمّا الرجل فرحمه الله، وأمّا الجارية فصانها الله، وأمّا الطفل فرعاه الله، وأمّا المال فثمره الله وأمّا الساعي إلينا بذلك فلعنه الله»^(١).

نشر البرامكة أفضالهم على الفقراء والمحتاجين ابتغاء التماس الثواب فيهم. هذا ما ورد على لسان يحيى بن خالد عندما ذكر له وهو مجاور بمكة أن بجدة قوماً يصيدون السمك ويبيعونه ويشترون طعامهم به، فإن لم يجدوا صيداً مكثوا أياماً لا يأكلون يشد الرجل على بطنه حجراً ولا يسألون الناس شيئاً وربما مات أحدهم جوعاً، فقال: ولا أعجب قوم سمعت بهم ينبغي أن نلتمس الثواب فيهم، فسألهم عن عددهم وطريقة عيشهم، ثم سألهم عما يعنيهم؟ فقليل له: تحضر لنا بركة يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعز بالبلاد إلاّ على من كانت له مصنعة فيشرب منها ويبيع فضلها ويتنفع بثمره. ثم سألهم أيضاً بكم يكتفي أحدهم في الشهر؟ فقليل له: بأربعة دراهم لكل رجل وللمرأة ستة دراهم، فقال: إني قد أجريت لكل رجل عشرة دراهم ولكل امرأة ثمانية عشر درهماً وأخيراً سألهم عن مهور نسائهم؟ فقليل له: أربع مائة درهم، فقال: إني أمر بإعطائكم ما أجريت عليكم لسبع سنين ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم، وأشار إلى غلامه بدفع المال، وأمر باتخاذ

(١) ابن الطقطقي: الفخري ص ٦٤.

بركة لهم بلغت النفقة عليها عشرين ألف درهم^(١).

وفضّل البرامكة المروّة وبعد الهمة على العلم والأدب وعلى الأملاك والممتلكات، وعمدوا إلى غرس بذور الخير ومحبة الآخرين في نفوس أبنائهم. فما يُروى عن يحيى بن خالد أنه دعا ابنه إبراهيم يوماً، وكان يسمى دينار بني برمك لجماله وحسنه، ودعا بمؤدبه وبمن كان ضم إليه من كتابه ورجاله، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا وكذا ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألت. قالوا: قد اتخذنا له من الضياع كذا وغلته كذا. قال: ولا عن هذا سألت، إنما سألت عن بُعد همّته وهل اتخذتم له في أعناق الرجال منناً وحببتموه إلى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبئس العُشراء أنتم والأصحاب، هو والله إلى هذا أحوج منه إلى ما قلتم^(٢).

والمناصب لم تُبعد البرامكة عن الناس ولم تفسد أخلاقهم وتصرفاتهم مع الآخرين، بل على العكس كانت حافزاً دفعهم نحو التواضع والتفاني في سبيل خدمة الغير.

فأثناء سير موكب يحيى بن خالد عرض له رجل من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير! اختتم هذا الكتاب. فبادر إليه الشاكرية يزجرونه من حواشي موكبه، فقال لهم يحيى: دعوه قبل أن لا ننتفع به يعني خاتمه، واستدناه فختمه له. وتعجّب مسايروه من اغتنامه المعروف وعمله بأفعال الرجال^(٣).

وحين علم يحيى أن الكتاب لا يزاولون أعمالهم إلّا بعد قضاء حوائجهم وتناول طعام الغداء في منازلهم، وأن خدمه لا يدفعون الكتب المختومة إلى أصحابها إلّا بشيء يأخذونه، أمر بجعل غداء الكتاب في داره واستلم الختم حتى

(١) البيهقي: المعاسن والمساويء ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) البيهقي: المعاسن والمساويء ١٧٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٨٠.

(٣) البيهقي: المعاسن والمساويء ص ١٩٥.

«لا يلزم أحداً مؤنة»^(١). وليحيى يقول أبو القاسم بن يوسف:

رفع الله بالخليفة يحيى وب يحيى كسا الخلافة نورا
رجل ناصح أمين على الملك يجيد التمييز والتدبيرا
بسط الله بالعطايا يديه محبا معدماً وأغنى فقيرا
ليس يبقى على الزمان سوى الذك سرى فلا زلت بالندى مذكورا
نصح الله والخليفة يحيى وبرفق منه يمشي الأمورا

وكان ليحيى بن خالد حاجب قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة رأى كأنه
تثاقل عن حجابته، فقليل له: لو اتخذت حاجباً غيره. قال: كلا، هذا يصرف
إخواني القدماء، وقال الشاعر في مثله:

حسن إذا نزل الوفود ببابه سهل الحجاب مؤدب الخدام
وإذا رأيت شقيقه وصديقه لم تدر أيهما أخو الأرحام^(٢)

وبعد هذا نستطيع القول أن الحسن بن سهل كان على حق عندما قال: من
غيرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه، أخذنا ذلك عن صاحب ديوان
المكارم أبي علي يحيى بن خالد بن برمك^(٣).

وكذلك الفضل بن يحيى فإنه لم ينس من كان بجانبه في أيام الفقر والشقاء
فيروى عنه أنه وهب لغلامه الطباخ مائة ألف درهم، وعندما قال له والده يحيى في
ذلك قال الفضل: إن هذا غلام صبحني وأنا لا أملك شيئاً واجتهد في نصيحتي،
وقد قال الشاعر:

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يؤنسهم في المنزل الخشن^(٤)

(١) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٥٦.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٦٠؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٦.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٣٣٦.

ومن كلامه: ما سرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز^(١)، وقد وقف (أي الفضل) بخراسان موقفاً لم يقفه أحد قط: فقد جاء أنه خرج إلى الميدان ليضرب بالصوالج فأمر بدفاتر البقايا التي على الناس فأحضرت، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس وإعلامهم أنه قد وهبها لهم ثم أمر بها فضربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم^(٢).

وكذلك فعل خالد بن برمك عندما تولى مقاطعة فارس، فعامل سكانها معاملة حسنة وقسّط الخراج على أهلها، ورفع عنهم خراج الشجر، وكانوا يلزمون له خراجاً ثقيلاً وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس^(٣).

والبرامكة كبار النفوس نجدوا المستغيثين وقضوا حاجات الناس مهما كبرت وعظمت، دون أن يتغوا من ورائها جزاء ولا شكوراً، وسامحوا المخطئين بعد قدرتهم عليهم وكأنهم بذلك يطبقون المثل القائل: العفو عند المقدرة، فهاهو يحيى بن خالد يستعمل شتى الوسائل والأساليب لإنقاذ حياة منصور بن زياد ويعذره في النهاية على نكرانه هذا الجميل، فقد حدث صالح صاحب المصلّى أن الرشيد دعاه يوماً وقال له: إذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجثني برأسه وأنا نفي من المهدي لئن أنت دافعت عنه لأضربن عنقك، علم منصور بذاك وتأكد بأن الخليفة يريد المال أو رأسه، فهاله الأمر، وقال: ما أراد إلاّ قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبتني، فودّع وكأنه سيموت بعد ساعات، ثم استأذن في المصير إلى يحيى البرمكي ليوصيه بولده وأهله، فسمع له. وما أن علم يحيى بقصته حتى بدأ باستيفاء بعض ديونه وطلب من دنائير الجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين ومنع ابنه الفضل من ابتياع ضيعة نفيسة وأخذ منه مالها البالغ ألفا

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٠.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوي ص ٢٠٠.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥١.

ألف درهم، ووجّه إليه ابنه جعفر ألف ألف درهم، وبذلك تمّ جمع المبلغ المطلوب وسُلّم للشريد قبل المغرب. وعندما علم بالخبر، قال: قد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، وأمر برد المبلغ إلى يحيى بعد قبوله عن منصور.

وعلى الرغم من هذا الإحسان الذي لا يوصف، فقد أخبر صالح يحيى البرمكي أنه حين حمل المال تمثّل منصور بهذا البيت:

فما بقيا عليّ تركتmani ولكن خفتما صرد النبال

فأكب – يحيى – على الأرض ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت، قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه^(١).

وما أن مدح الشاعر أبو الهول الحميري الفضل بن يحيى معتذراً من شعر كان هجاه به في السابق حتى وصله الفضل ورضي عنه. فقد روي أن الفضل بن يحيى غضب على أبي الهول الحميري في شيء وجدّه عليه وكان عنده قبل ذلك في حالة ربيعة، وكان الفضل معجباً بشعره، وكان يصله بالصلوات السنية؛ فلما غضب عليه جفاه الناس وتنكّروا له، فلم يدرِ بمن يتحمل عليه ويستشفع حتى يرضى عنه، فلما ضاق به ذرعاً قال:

سما نحونا من غضبة الفضل عارض

له زجل فيه الصواعق والرعد

وما لي إلى الفضل بن يحيى بن خالد

من الجرم ما يخشى عليّ به الحقد

فجد بالرضى لا أبتغي منك غيرة

ورأيك فيما كنت عودتني بعد

فلما قرأ الفضل وقعته، وقّع فيها: رضاي عنك مقرون بإحساني إليك، فإن

(١) البيهقي: المحاسن والمساويء ص ٥١٠ – ٥١١؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

أردت أن أفرق بينهما لم أفعل ، وحمل إليه صلة واستغنى بالأبيات عن الشفيح^(١).

ولما خرج إبراهيم بن جبريل مكرهاً مع الفضل بن يحيى إلى خراسان دعاه الفضل يوماً فدخل عليه خائفاً ، فقال له : ليفرح روعك يا إبراهيم ، فإن قدرتي عليك تمنعني منك . . ثم عقد له على سجستان ووهبه خراجها وزاده خمسمائة ألف درهم ، فلما انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم ، فلما قدم بغداد وبنى داره في البغين استزار الفضل لبرية نعمته عليه وأعد له الهدايا والطرف وآنية الذهب والفضة وأمر بوضع الأربعة الآلاف ألف في ناحية الدار . فلما تغذى الفضل بن يحيى قدم إليه الهدايا والطرف ، فأبى أن يقبل منها شيئاً وقال له : لم آت لك لأسلبك ! فقال : إنها نعمتك أيها الأمير . قال : ولك عندنا مزيد . قال : فلم يأخذ من جميع ذلك إلا سوطاً سجزياً ، وقال : هذا من آلة الفرسان ، فقال له : هذا المال من مال الخراج ، فقال : هو لك . فأعاد عليه ، فقال : أما لك بيت يسعه ! فسوَّغه ذلك وانصرف^(٢).

وكان جعفر بن يحيى يكره الوعد ويقول : الوعد من العاجز ، وأما القادر فالنقد^(٣).

ولما اعتذر رجل إليه قال له : قد أغناك الله بالعدر منا عن الاعتذار إلينا ، وأغنانا بالمودة لك عن سوء الظن بك^(٤).

والمغفرة المتأصلة في نفس جعفر جعلته يعفو عن أحد الناس ، وكان قد زور

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٥٣ ؛ ابن الطقطقي : المحاسن والمساوي ص ١٨٢ .

(٢) الطبري : تاريخ ج ٨ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ، البيهقي : المحاسن والمساوي ص ١٨٢ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٢ .

(٣) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٦٢٩ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٩ .

عن لسانه كتاباً، إلى صاحب مصر، مضمونه: «إن حامل هذا الكتاب من أخص أصحابنا وقد أثر التفرج في الديار المصرية، فأريد أن تحسن الالتفات إليه وبالغ في الوصية». . فأكرمه صاحب مصر وأنزله في دار حسنة. وبما أنه كان بين جعفر وصاحب مصر عداوة ووحشة، فقد شكَّ صاحب مصر في الكتاب وأرسله إلى وكيله ببغداد ليتأكد من صحته، فلما اطلع جعفر عليه علم أنه مزور، فشرح القصة لجماعة من ندمائه ونوابه، فتأملوا الكتاب وأنكروه كلهم، وقالوا: هذا مزور على الوزير، فاستشارهم جعفر في كيفية معالجة الأمر: فمنهم من أشار بقتله، ومنهم من أشار بقطع يمينه، ومنهم من أشار بضربه، وأحسنهم محضراً أشار بإخبار صاحب مصر بحاله ليحرمه فيعود إلى بغداد خائباً.

فلما فرغوا من حديثهم قال جعفر: سبحان الله! أليس فيكم رجل رشيد؟ قد علمتم ما كان بيني وبين صاحب مصر من العداوة والمجانبة، وأن كل واحد منا كانت تمنعه عزة النفس أن يفتح باب الصلح فقد قيض الله لنا رجلاً فتح بيننا باب المصالحة والمكاتبة وأزال بيننا تلك العداوة، فكيف يكون جزاؤه ما ذكرتم من الإساءة؟ ثم أخذ القلم وكتب على ظاهر الكتاب إلى صاحب مصر: سبحان الله! كيف حصل لك الشك في خطي؟ هذا خط يدي والرجل من أعز أصحابي وأريد أن تحسن إليه وتعيده إليّ سريعاً، فإني مشتاق إليه محتاج إلى حضوره.

فلما وصل الكتاب وفي ظاهره خط الوزير إلى صاحب مصر كاد يطير من الفرح وأحسن إلى الرجل غاية الإحسان وواصله بمال كثير وتحف جميلة.

فلما رجع الرجل دخل على جعفر وسلم عليه ووقع يقبل الأرض ويبكي، فقال له جعفر: من أنت يا أخي؟ قال: يا مولانا أنا عبدك وصنيعتك المزور الكذاب المتجربى! فعرفه جعفر وبشَّ به وأجلسه بين يديه وسأله عن حاله وقال له: كم وصل إليك منه؟ فقال: مائة ألف دينار. فاستقلها جعفر وقال: لازمنا حتى نضاعفها لك. فلازمه مدة، فكسب معه مثلها^(١).

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

ولم يقف إحسان البرامكة عند حدود معيَّنة، بل تخطَّى الموالي والأنصار حتى بلغ الأعداء. هذا ما أشار إليه ثمامة، الذي كان يحدث بسؤدد يحيى بن خالد وابنه جعفر ويقول: إن الرشيد نكب علي بن عيسى بن همام وألزمه مائة ألف دينار أدّى منها خمسين ألفاً وبلغ بالباقي، فأقسم الرشيد إن لم يؤدِّ المال في بقية هذا اليوم وإلاّ قتله، وكان علي بن عيسى عدواً للبرامكة مكاشفاً، فلما علم أنه مقتول سأل أن يُمكن من السعي إلى الناس يستنجدهم، ففسح له في ذلك، فمضى ومعه وكيل الرشيد وأعوانه إلى باب يحيى وجعفر، فأسبلا عليه وصححا من صلب أموالهما خمسين ألف دينار في باقي نهار ذلك اليوم بديوان الرشيد باسم علي بن عيسى^(١).

نرى مما تقدم أن تقرّب البرامكة إلى الناس كان عاماً شاملاً، وكان في قلوبهم عاطفة حب تغمر الجميع، حتى أن الرشيد قال بعد نكبة البرامكة: «أريد أن أستعمل قوماً لم يعملوا معهم؟ فقيل له: لا تجد أحداً لم يخدمهم»^(٢).

* * *

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٦٤٥ - ٢٤٦.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٥٤.



دَوْرُهُمُ المَعْمَارِي

كان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية في الموضع المعروف بسويقة خالد، وهي إقطاع من المهدي، وبنى يحيى بن خالد قصراً يُعرف بقصر الطين، ثم بنى فيه الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى قصران كانا يُعرفان بهما^(١).

وقد روى عمر بن مسعدة أنه عندما مرَّ مع جعفر بإزاء قصره، نظر جعفر إلى البناء، وقال له: يا أبا الفضل! والله إني لأعلم أنه ليس من بناء مثلي ولكن قلت: إن بقي لي فهو قصر جعفر، وإن شره السلطان في وقت من الأوقات فهو قصر جعفر، وإن مضت عليه الأيام فهو قصر جعفر ويبقى اسمه وذكره، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده إحسان فيترحم علينا^(٢).

وإليك ما ذكره ياقوت في «معجمه» عن قصر جعفر بن يحيى في مادة التاج، قال: «كان أول ما وضع من الأبنية بهذا المكان [أي التاج وهو — حسب ياقوت — اسم لدار مشهورة جليلة المقدار، واسعة الأقطار ببغداد من دور الخلافة المعظمة] قصر جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، وكان السبب في ذلك أن جعفرًا كان شديد الشغف بالشرب والغناء والتهتك، فنهاه أبوه يحيى، فلم ينته، فقال: إن كنت لا تستطيع الاستتار، فاتخذ لنفسك قصراً بالجانب الشرقي وأجمع فيه ندمائك

(١) نفس المصدر ص ١٨٩.

(٢) نفس المصدر ص ٢١٦.

وقيانك وقضّ فيه معهم زمانك وابتعد عن عين من يكره ذلك منك، فعمد جعفر، فبنى بالجانب الشرقي قصراً موضع دار الخلافة المعظمة اليوم، وأتقن بناءه وأنفق عليه الأموال الجمة، فلما قارب فراغه سار إليه في أصحابه وفيهم مؤنس بن عمران، وكان عاقلاً، فطاف به واستحسنه، وقال كل من حضر في وصفه ومدحه وتقريظه ما أمكنه وتهياً له هذا ومؤنس ساكت، فقال له جعفر: مالك ساكت لا تتكلم وتدخل معنا في حديثنا؟ فقال: حسبي ما قالوا، فعلم أن تحت قول مؤنس شيئاً، فقال: وأنت إذا فنك، فقد أقسمت لتقولن، فقال: أما إذا أبيت إلا أن أقول فيصير علي الحق، قال: نعم، واختصر فقال: أسألك بالله إن مررت الساعة بدار بعض أصحابك وهي خير من دارك هذه ما كنت صانعاً؟ قال: حسبك فقد فهمت، فما الرأي؟ قال: إذا صرت إلى أمير المؤمنين وسألك عن تأخرك فقل: سرت إلى القصر الذي بنيته لمولاي المأمون. فأقام جعفر في القصر بقية ذلك اليوم، ثم دخل على الرشيد فقال له: من أين أقبلت وما الذي أخرك إلى الآن؟ فقال: كنت في القصر الذي بنيته لمولاي المأمون بالجانب الشرقي على دجلة، فقال له الرشيد: وللمأمون بنيته! قال: نعم يا أمير المؤمنين، لأنه في ليلة ولادته جعل في حجري قبل أن يجعل في حجرك واستخدمني أبي له، فدعاني ذلك إلى أن اتخذت له بالجانب الشرقي قصراً لما بلغني من صحة هوائه ليصح مزاجه ويقوي ذهنه ويصفو، وقد كتبت إلى النواحي باتخاذ فرش لهذا الموضع وقد بقي شيء لم يتهياً اتخاذه وقد عولنا على خزائن أمير المؤمنين، إما عارية أو هبة، قال: بل هبة وأسفر إليه بوجهه ووقع منه بموقع، وقال: أبى الله أن يقال عنك إلا ما هولك أو يطعن عليك إلا يرفعك، والله لا سكنه أحد سواك ولا تتم ما يعوزه من الفرش إلا من خزائننا وزال من نفس الرشيد ما كان خامره وظفر بالقصر بطمأنينة، فلم يزل جعفر يتردد إليه أيام فرجه ومنتزهاته إلى أن أوقع بهم الرشيد، وكان إلى ذلك الوقت يسمى القصر الجعفري ثم انتقل إلى المأمون، فكان من أحب المواضع إليه وأشهاها لديه. . . وابتنى مثله قريباً منه برسم خاصته وأصحابه سميت المأمونية. . . وكان قد أسكن فيه الفضل والحسن ابني سهل، ثم توجه

المأمون والياً بخراسان... فأنفذ الحسن بن سهل خليفة له على العراق فوردها في سنة ١٩٨هـ، ونزل في القصر المذكور، وكان يُعرف بالمأموني، وشفع ذلك أن تزوج المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل... وطلبه الحسن من المأمون، فوهبه له وكتبه باسمه وأضاف إليه ما حوله وغلب عليه اسم الحسن، فعُرف به مدة وكان يُقال له القصر الحسني. فلما طوت العصور... بتعويضها منه فاستمهلته ريثما تفرغ من شغلها وتنقل مالها وأهلها... ثم انتقلت إلى غيره وراست المعتمد باعتماد أمره، فأتاه فرأى ما أعجبه وأرضاه واستحسنه واشتهاه وصار من أحب البقاع إليه... ثم توفي المعتمد بالقصر الحسني سنة ٢٧٩هـ... ثم استولاه المعتضد بالله... فوسَّعه وكبَّره وأدار عليه سوراً... وابتنى على نحو ميلين منه الموضع المعروف بالثريا، ووصل بناء الثريا بالقصر الحسني... وما زال باقياً إلى الغرق الأول الذي صار ببغداد فعفا أثره»^(١).

وحُكي عن سبب بناء هذا القصر، إن متظلماً من أهل أصبهان تظلم إلى يحيى بن خالد من عامله بها، فقال له: ظلمني وأساء معاملتي وأخذ ما لا يجب مني وهدم شرفي، فقال يحيى: قد عرفت جميع ما تظلمت خلا قولك «هدم شرفي»، ففسَّر لي ذلك. فقال له المتظلم: أنا من بني رجل كان بنى القصر المهدوم، وكان يُنسب إليه وكان الرائي إذا رأى القصر وجلالته وعلم أني من ولد الباني له، عرف بذلك قديم نعمتي وجلالة أولي. فاستحسن ذلك يحيى منه وقال للفضل وجعفر: لا شيء أبقي ذكراً من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكراً، فاتخذ جعفر قصره، وكذلك الفضل، وأمر يحيى بإنفاذ مستحث مع المتظلم يطالب العامل بإعادة بناء قصره وإنصافه من ظلامته^(٢).

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر حين اختط داره لبينيها: هي قميصك، فإن

(١) ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٣ - ٤.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٦ - ٢١٧.

شئت فوسّعه وإن شئت فضيّقه^(١). وأتاه وهو يبيّن داره التي ببغداد بقرب الدور، وإذا هم يبيّضون حيطانها، فقال: أعلم أنك تغطي الذهب بالفضة. فقال جعفر: ليس في كل مكان يكون الذهب أنفع من الفضة ولكن هل ترى عيباً؟ قال: نعم، مخالطتها دور السوق^(٢).

وكانت قصور البرامكة في الجانب الشرقي من بغداد، وعاشوا في سعة ونعمة ورخاء، وكان القصر الجعفري في وسط تلك البقعة تحيط به طائفة من المساكن الفخمة. وقد أنشئت هذه القصور على شاطئ دجلة، وأنشئت خلفها البساتين الرحبة، وفيها كثير من الأبنية الصغيرة^(٣).

وقد شابعت قصور البرامكة قصور الرشيد، وأشرعت أنظاره، وكانت سبباً في إثارة الوشاة^(٤). وكان فيها ما في قصر الرشيد من آلة ترف وبذخ حتى ربما وجد فيها ما ليس في قصره^(٥).

ونظراً لآراء خالد بن يحيى السديدة، ولخبرته الواسعة في مضمار البناء، نجد أول من يشير على الخليفة المنصور في قصة تخطيط بغداد في عام ١٤٦ هـ. هذا ما رواه لنا الطبري^(٥) في حوادث سنة ست وأربعين ومائة، حيث يقول: لما

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٣ ص ٣١١؛ ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٦٤٢.

(٢) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ٣ ص ٣١١، وذكر الطبري أن جعفر بن داود أنفق عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وكانت من أسباب نكبتهم: الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٩١، راجع ص ٤٠ فيما تقدم.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب القسم الثالث ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٤) قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ص ١٩٥. عن الأموال الطائلة التي صرفها جعفر لبناء قصره، وعن سعاية الوشاة بالبرامكة عند الرشيد، بسبب ذلك راجع ص ٤٠ - ٤١.

(٥) عباس: البرامكة في التاريخ ص ١٠٣.

(٦) الطبري: تاريخ ج ٧ ص ٦٥٠ - ٦٥١؛ ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٥٧٣؛

أراد المنصور بناء مدينة بغداد، شاور أصحابه فيها، وكان ممن شاوره فيها خالد بن برمك، فأشار بها، فذكر عن علي بن عصمة أنّ خالد بن برمك خطّ مدينة أبي جعفر وأشار بها عليه، فلمّا احتاج إلى الانقاض، قال له: ما ترى في نقض بناء مدينة إيوان كسرى بالمدائن وحمل نقضه إلى مدينتي هذه؟ قال: لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين. قال: ولم؟ قال: لأنه علّم من أعلام الإسلام يستدلّ به الناظر إليه على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا، وإنما هو على أمر دين، ومع هذا يا أمير المؤمنين فإن فيه مصلى علي بن أبي طالب صلوات الله عليه. قال: هيهات يا خالد! أبيت إلا الميل إلى أصحابك العجم! وأمر أن ينقض القصر الأبيض، فنقضت ناحية منه، وحمل نقضه فنظر في مقدار ما يلزمهم للنقض والحمل، فوجدوا ذلك أكثر من ثمن الجديد لو عمل، فرفع ذلك إلى المنصور، فدعا بخالد بن برمك فأعلمه ما يلزمهم في نقضه وحمله وقال: ما ترى؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد كنت أرى قبل الآن تفصل، فأما إذا فصلت فإني أرى أن تهدم الآن حتى تلحق بقواعده لئلا يقال: أنك قد عجزت عن هدمه، فأعرض المنصور عن ذلك وأمر ألاّ يهدم.

وقد خلّف البرامكة الكثير من أعمال البناء الأخرى، فقد احتفر يحيى القاطول، واستخرج نهراً سمّاه أبا الحيل، وأنفق عليه عشرين ألف ألف درهم^(١)، وتعد سيحان^(٢) بالبصرة من أهم أعماله، ولمّا صار الفضل إلى خراسان بنى الحياض والمساجد والرباطات^(٣) وغيرها. ويقال إن الفضل هو أول من أدخل

ابن الطقطقي: الفخري ص ١٥٧؛ الحميري: الروض المعطار ص ٦٩ - ٧٠، وقد ذكر الجهشيارى أن الرشيد هو الذي أراد هدم إيوان كسرى: الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢٩.

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٧٧.

(٢) الطبري: تاريخ ج ٨ ص ٢٦٦.

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٩١.

استعمال المصباح في الجوامع في شهر رمضان^(١). كما أنه بنى مسجداً جامعاً في بخاري وحضر قناة جديدة في بلخ. (دائرة المعارف الإسلامية — مادة برامكة).

* * *

(١) فليب حتي: تاريخ العرب القسم الثالث ص ٣٦١.



الكَرَم

لقد اتُصف البرامكة بالكَرَم والسَخاء، ونشروا من العطاء في مواليتهم ومدائحهم وأتباعهم ما جعل المعدم منهم غنياً، ومدحوا بما لم يُمدح به خليفة، وضُربت بكرمهم الأمثال. فقليل: تَبرمك فلان^(١). ولا تزال إلى هذا اليوم لفظة برمكي في بعض البلدان العربية تؤدي معنى الكرم^(٢). وقد وصف الشاعر يوسف بن القاسم جود البرامكة، فقال:

لولاكم كان جود الناس مشتبهاً لكن برعتم فأضحى جودكم مثلاً^(٣)

وقد أشارت المصادر التاريخية والأدبية إلى كرمهم وروت عنهم الأخبار العديدة التي تشبه الأساطير. فالبيهقي ذكر في كتابه «المحاسن والمساوىء»، أنه كان للبرامكة في هذا الشأن (أي السخاء) ما لم يكن لأحد من الناس. . منها: أنهم كانوا يخرجون بالليل سرّاً ومعهم الأموال يتصدّقون بها وربما دقّوا على الناس أبوابهم فيدفعون إليهم الصرة فيها بين الثلاثة إلى الخمسة آلاف أو أكثر من ذلك؛ وربما طرحوا ما معهم في عتب الأبواب، فكان الناس لا اعتيادهم ذلك يغدون إلى العتب إذا أصبحوا يطلبون ما ألقى فيها^(٤).

(١) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

(٢) حتي: تاريخ العرب القسم الثالث ص ٣٦١.

(٣) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٥٧.

(٤) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٩٣.

وروى الجهشيارى^(١) في كتابه «الوزراء والكتاب» أن خالد بن برمك كان سخياً جليلاً سرياً نبيلاً كثير الإحسان. وأضاف بأنه لم يكن لجليلس خالد دار إلاً وخالد بناها له، ولا ضيعة إلاً وخالد ابتاعها له، ولا ولد إلاً وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة، أو أدى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلاً وخالد حملة عليها، إما من نتاجه أو من غير نتاجه. وكان ينافس في هذا البذل الواسع ابنه يحيى، الذي كان سيد بني برمك وأفضلهم جوداً ورأياً^(٢) يباري الريح كرمًا وجوداً^(٣)، وعلى ذلك نشأ ولدي يحيى: جعفر الذي كان جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه أشهر من أن يُذكر وأبين من أن يظهر^(٤). والفضل الذي كان من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره^(٥). وصفه ابن خالكان^(٦) بأنه كان من أكثرهم (أي أكثر البرامكة) كرمًا مع كرم البرامكة وسعة جودهم، وقال عنه القلقشندي أنه كان بحيث يُضرب به المثل في أمثاله في الجود^(٧).

واقتدى بهم جميع أفراد الأسرة البرمكية، فعينوا الرواتب لأصحاب الحاجات وغمروا الشعراء بهدايا سخية للغاية، حتى فاقوا الخلفاء في هذا المجال؛ إذ منحوا شاعرهم أبان اللاحقي^(٨) على قصيدة واحدة مبلغاً من المال يساوي ما أجاز الرشيد

-
- (١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ١٥٠.
(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء م ١٠ ج ٢٠ ص ٥.
(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ١٩٨.
(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩.
(٥) ابن الطقطقي: الفخري في الأدب السلطانية ص ٢٠١.
(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٧.
(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٤.
(٨) كان يحيى بن خالد البرمكي قد جعل أبان بن عبد الحميد على الشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فما رضىه أثبته وما لم يرضه أسقطه: الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٣٣.

للشاعر مروان بن أبي حفصة طيلة عمره^(١). ووصلوا الشاعر سلم الخاسر وحده لمدائحه فيهم عشرين ألف دينار^(٢)، وقد رووا في أخباره أنه لما أفاد من الخلفاء والبرامكة بشعره ما أفاد من الأموال الجلييلة، قال: أنا الرابع ولست بالخاسر^(٣).

وقيل بأنهم أعطوا إبراهيم الموصللي ستمائة ألف درهم وأقطعوه ضيعة بمائة ألف^(٤). وأعطى يحيى يوماً لإسحاق بن إبراهيم الموصللي مائة ألف درهم ليشتري بها داراً، وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف درهم لفرشها، وأعطاه ابنه الفضل ألف درهم لإصلاحها كما يريد، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة ليصرفها في سائر نفقته^(٥). وقيل أيضاً بأن يحيى كان مفرط العطاء إلى درجة أنه إذا ركب أعطي كل ما صادفه مائتي درهم^(٦)، وقد تعرض له ذات يوم أديب شاعر وأنشده:

يا سمي الحصور يحيى أتيت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مرّ في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلي قليل هي منكم للقاييس المجلان

قال له يحيى: صدقت، وأمر بحمله إلى داره. فلما رجع من دار الخلافة سأل عن حاله، فذكر أنه تزوج، وقد أخذ بواحدة من ثلاث: إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف، وإما أن يطلق، وإما أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهيا له نقلها. فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر، وبأربعة آلاف لثمن منزل، وبأربعة آلاف

(١) الأصبهاني: الأغاني ج ٢ ص ١٧٩؛ الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٦.

(٢) الأصبهاني: الأغاني ج ٢١ ص ١٧٩.

(٣) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٦٩.

(٤) الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ٢٦.

(٥) نفس المصدر ج ٥ ص ١٣٦.

(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٢٩ - ١٣٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٢٣؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠١.

لما يحتاج إليه المنزل، وبأربعة آلاف للبنية، وبأربعة آلاف يستظهر بها؛ فأخذ عشرين ألفاً وانصرف^(١).

وكان يحيى يجري على سفیان الثوري - رضي الله عنه - ألف درهم في كل شهر، فكان إذا صلى سفیان يقول في سجوده: اللهم إن يحيى كفاني أمر دنيائي فاكفه أمر آخرته. فلما مات يحيى رُئي في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بدعاء سفیان^(٢).

ويُروى بأن إبراهيم الموصلي غنى ليحيى بن خالد بيتاً من الشعر بعد أن صنع فيه لحناً، فوهبه ألف دينار ودابته التي كانت تحته يومئذ بسرجهما ولجامهما، ولما شكره الموصلي على ذلك أمر له بألف دينار أخرى^(٣).

وقال عبد الله بن أحمد بن يوسف: إن يحيى بن خالد استدعى يوماً والده المريض وقال له: «إني لأرى من علة حالك أكثر من علة جسمك، ثم انصرف فحمل إليه أربعمئة ألف درهم»^(٤).

نلاحظ مما تقدّم أن يحيى بن خالد قد تمسك بأهداب الكرم والسخاء حتى بلغ درجة الريادة وغدا اسمه مرادفاً للعطاء والإحسان، ونعي الرشيد - حين علم بوفاة يحيى - للجدود والكرم: «مات والله يحيى ومات الجدود والكرم والسخاء»^(٥).

وكان جعفر يجري على الشاعر أشجع السلمي في كل مائة دينار^(٦)، ويُروى أنه وصل الأصمعي يوماً بخمسمئة ألف^(٧)، وكان يعطي الرقاشي في كل سنة ألف

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٣.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء م ١٠ ج ٢٠ ص ٩.

(٣) الأصبهاني: الأغاني ج ٥ ص ١٣.

(٤) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٦٣.

(٥) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥١ - ١٥٢، هو خير دليل على ذلك.

(٦) نفس المصدر ج ١٧ ص ٦٦؛ الكتبي: فوات الوفيات م ١ ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٧) الففطي: إنباه الرواة ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٢.

دينار^(١).

وقد تكرر بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيراً في ولايته كلها من غير من ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض، ومن كرمه أنه تكرر في يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر ألف درهم، والدراهم ثلاثة أصناف فضة^(٢).

وقد أعطى يوماً مروان بن أبي حفصة عن مدح له ثلاثين ألف درهم، وأعطى أبا النضيد عشرين ألفاً وأشجع ثلاثة آلاف، كان أول ما اتصل به، فكتب أشجع إليه:

أعطيت مروان الثلاث	ثين التي حلت رعائته
وأبا النضير وإنما	أعطيتني معهم ثلاثة
ما خاني هوك العصي	د وما اتهمت سوى الحداثة

فأعطاه عشرين ألفاً^(٣).

وروى ابن المعتز^(٤) أن الفضل اشترى للشاعر نصيب الأصغر داراً تقارب داره بألف دينار، واشترى له صنعة تغلّ عليه غلة كثيرة، وكانوا (أي البرامكة) يجرون عليه ويعاشرونه، وكذا كانت عادة آل برمك فيمن يتصل بهم — رحمهم الله — فما خلّفوا بعدهم من شق غبارهم في الجود والكرم والبر والعطاء والإحسان.

ولم يقف الكرم البرمكي عند هذا الحد، بل حرّض الخلفاء على الجود والسخاء، هذا ما جرى ليحيى البرمكي يوماً مع الرشيد عندما كان يسايره فقام رجل، فقام رجل فقال: «يا أمير المؤمنين عطبت دابتي»، فقال الرشيد: «يُعطى خمسمائة درهم». فغمره يحيى، فلما نزلوا قال له الرشيد: «يا أبت، أومأت إليّ

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٥٨.

(٢) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

(٣) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ٨٧.

(٤) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٥٧.

بشيء ولم أعرفه»، فقال: إذا سُئلت مثل هذا كيف أقول؟. فقال: «تقول يُشترى له دابة»^(١).

فالوزراء البرامكة لم يرَ مثلهم سخاء وسروراً^(٢)، فقد روى الحافظ السيوطي في رسالته «مستهمى العقول في منتهى النقول»، أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة كاد أن لا يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلّا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء^(٣). حجّ الرشيد وحجّ معه ابنه محمد وعبد الله وحجّ معه يحيى والفضل وجعفر، فلما صار بالمدينة جلس معه يحيى فأعطى أهلها العطاء، ثم جلس محمد بعده ومعه الفضل بن يحيى فأعطاهم العطاء، ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر فأعطاهم العطاء. . فأعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية، فكان أهل المدينة يسمّون ذلك العام عام الثلاثة الأعطية، ولم يروا مثل ذلك عطاء إلّا في أيام البرامكة^(٤).

وعندما جاء يحيى ومعه ابنه جعفر إلى عبد الصمد بن علي، فسلم عليه وبسابه فتى من ولد عبد الله بن عليّ، فقام إلى جعفر فقبّل يده، فقال له: ائتني وارفع إليّ حوائجك وإلى أمير المؤمنين وقد أمرت لك بخمسة آلاف دينار، فقال يحيى: وقد أمرت لك بمثلها وأجريت عليك ثلاثة آلاف درهم في كل شهر، فأبعث بمن يقبض لك. فلما انصرف دعاه عبد الصمد، فقال: لِمَ فعلت ما فعلت؟ فقال: أنا ابن أخيك وإنما تصلني في السنة أربعة آلاف درهم، وقد أغناني هذا وأبوه في ساعة واحدة، فكيف تلومني على ذلك؟^(٥).

فالنفوس البرمكية جُبلت على الكرم والسخاء وعلى الجود والعطاء.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٢٧.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١.

(٣) الأتليدي: أعلام الناس ص ١٥٢.

(٤) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٢١ - ٢٢٢؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان

ج ٦ ص ٢٢٤؛ ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٥) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١٩٩.

والكرم البرمكي ينبوع إنساني دَفَاق رِقراق، نهل من مورده الفقراء
والمساكين، واستقى من معينه كل محتاج.

فلما علا محمد بن إبراهيم الإمام دين مبلغه ألف ألف درهم، قصد
الفضل بن يحيى ومعه حقة فيها جوهر وقال له: «قد لزمني دين أحوجني إلى
احتياج ألف ألف درهم وعلمت أن التجار لا يسمحون بإخراج مثلها وإن وثقنا
الرهن، ولك معاملون وتجار مطيعون ومعني رهن، فإن رأيت أن تأمر بقبضه وحمل
هذا المال إلينا فأنت أولى بذلك». ووضع الحقة بين يدي الفضل، فختمها بخاتم
محمد بن إبراهيم وقال له: «السمع والطاعة ولكن، نجح الحاجة أن تقيم في
منزلي الذي أنا فيه»، فأقام ونهض الفضل، فدعا وكيله وأمره أن يحمل ألف ألف
درهم مبدرة مع الحقة إلى منزل محمد، ففعل ذلك.

وانصرف محمد إلى داره مع المغرب فوجد الحقة ومعها ألف ألف درهم،
فسرَّ بذلك سروراً عظيماً، فغدا إلى الفضل ليشكره فوجده قد سبقه إلى دار
الرشيد، فلم يزل واقفاً ينتظره حتى خرج الفضل من باب آخر قاصداً منزله، فمضى
محمد إليه وشكره على فعله وانصرف عنه، فلما دخل منزله وجد فيه ألف ألف
درهم سوى الأولى أخذها الفضل من الرشيد وبعث بها إلى محمد بعد أن عرض
عليه حاله، فغدا محمد على الفضل وقال له: «لست أجد لك شكراً أقضي به
حقك، غير أنه عَلَيَّ ابن محمد بن علي وعليه من الأيمان المغلطة إن وقفت بباب
أحد سواك أبداً حتى ألقى الله جلَّ وعز، ولا أسأل أحداً حاجة ما بقيت سواك، فكان
لا يركب إلى أحد سوى الفضل ولا يقف بباب أحد غيره^(١).

ولمَّا عجز يحيى بن معاذ عن قضاء دين مبلغه ثلاثمائة ألف درهم توارى من
غرمائه وتجمَّد في بيت، فأخبر أحد الناس الفضل بن يحيى بهذه القصة وانصرف
إلى منزله، فكتب إليه الفضل: إنك دللتنا على مكرمة فشكرناك على ذلك وأمرنا

(١) البيهقي: المحاسن والمساويء ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب
ص ١٩٥ - ١٩٧؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٢ - ٢٠٤.

لك بمائة ألف درهم لدالتك، وبعثنا إليك بثلاثمائة ألف درهم لتوصلها إلى يحيى بن معاذ، فأوصلها إليه، ففضى دينه بها^(١).

وقال عبد الله بن أحمد بن يوسف: «نالت جدي إضاعة فكتب إلى الفضل بن يحيى:

أبا العباس دعوة مستميح لجودك فاز بالبيع الربيع
وأنت كلاك ربك من أناس بجودهم علت أيدي المديح
وقد قصدتك بي ثقة وود أحالاني على الأمل النجيج
فوجّه إليه بثلاثين ألف درهم، كل بيت عشرة آلاف درهم وكتب إليه:
«لوزدت في المقال لزدنا في المال»^(٢).

ولما أقبل الفضل بن يحيى يوماً على نهر المهدي استقبله فتى من الأبناء قد أملك ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه في السواد والسيوف، فترجل الفتى وقبل يده ورجله، فسأله الفضل عن شأنه فأخبره، فقال له: كم أصدقت أهلك؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدعا كهرمانة وقال: إحمل إليه الساعة أربعة آلاف درهم لصداق أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزل ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف للنفقة على الوليمة، وأربعة آلاف درهم لينصرف بها في مشيته^(٣).

وعندما سمع الفضل بن يحيى أحد الرجال يقول: لا والله إن في منزلي قليلاً ولا كثير، أمر غلمانه بإحضاره إلى القصر وأعطاه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب، ولما عاد الرجل إلى منزله تعجبت امرأته من هذه الأموال والأثواب التي ملكها بسرعة، فاتهمته بالسرقة وتناهى الخبر إلى السلطان، فحبسه. ولما علم الفضل بذلك أمر بإطلاقه ووصله بخمسة آلاف أخرى وب عشرة أثواب وقال: تعهد:

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٠، مع تغيير في النص.

(٢) الصولي: أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ص ١٥٩.

(٣) نفس المصدر ص ٢٠١.

بما ننفعلك، فلم يزل ينفعه حتى حدث من أمرهم ما حدث^(١).

وتحدّى البرامكة بجودهم القدر، الذي أزال النعم عن الناس، وجعلوا منهم أهل نعمة وقدر. فمن ذلك ما رواه البيهقي من حديث جرى بين المأمون والمنذر بن المغيرة بعد أن وجد الحرس الأخير في خرابات البرامكة يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن نهلك فربّ عزيمة كشفت ونعي قد وصلت بها نعي
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفر شماتته: أبشر لتأتيهم العقبي

مع أبيات أطالها. فلما انتهى من إنشادها قبض عليه الحرس وأخذه إلى المأمون الذي سأل عن سبب وروده خرابات البرامكة باكياً نادياً، فقال له: «يا أمير المؤمنين! للبرامكة عندي أيادٍ خضرة، أفتأذن لي أن أحدثك؟ فقال: سديداً. قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق كنت بها من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجت إلى بيع مسقط رأس ورؤوس آبائي، أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعني نيف وثلاثون امرأة وصبياً وصبية وليس معنا ما يُباع ولا ما يُرهن، ثم روى له أنه دخل بغداد ومضى في شوارعها حتى دخل دار يحيى بن خالد فحضر احتفال زواج ابنته عائشة حيث قدّم لكل شخص صينية فضة عليها ألف دينار شامية فصبّ الجميع الدنانير في أكمامهم وجعلوا الصواني تحت أباطهم إلّا هو، فغمزه الخادم حتى تجرّأ على أخذ الصينية وقام وهو يلتفت إلى الوراء، فلاحظ يحيى ذلك فرد إليه، فأمر فسلبت الدنانير والصينية وأخبره قصته، فدعا ابنه موسى وقال له: «يا بني هذا رجل غريب، فخذ به إليك إخلطه بنفسك ونعمتك». فقصف عليه يومين وليلتين (كذا)، ثم دعا بأخيه وقاصفه، فلما كان من غد تسلّمه أحمد وتداولته أيدي القوم

(١) نفس المصدر ص ٢٠١ - ٢٠٢.

عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر جاءه خادماً فقال: «قُمْ عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام». فقلت: واويلاه سلبت الدنانير والصينية. وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرُفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن يرفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورُفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والسند ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقلّبون في الحرير والديباج وأنا قد حصل إليّ ألف ألف درهم مبدرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبناقد، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أَمِنَ البرامكة أنا أم مِن بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة وألزميني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم^(١).

وعائلة أخرى زالت النعمة عنها فباتت الليالي الطويلة جائعة تواقّة إلى الخبز والطعام، إلى أن لقاها الكرم البرمكي وكأنه رحمة من السماء أرسلت إلى الأرض لإنقاذ النفوس البريئة. فقد روى البيهقي^(٢) أن رجلاً كان ينزل على نهر المهدي وكانت عليه نعمة فزالت، فلم يقدر على شيء، فمطر الناس ثلاثة أيام متتابة، فبقي في منزله لا يقدر على الخروج، فأضرّ به ذلك وأبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلما كان في آخر الليل جاء إلى البقال بقصعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتهره البقال وقال: ما أصنع بهذه القصعة؟ وأبى أن يعطيه عليها شيئاً، قال: فعاد إلى منزله مغموماً لا حيلة له، فرفع يده إلى السماء وقال: أَللّهم، سُقْ إليّ في هذه الليلة عبداً من عبادك تحبّه يفرج عني ما أمسيت فيه، فما شعرت إلّا والباب يدقّ عليّ، فإذا رجل على حمار قد حفّ به خدام، فقال لي: كم عيالك؟ قلت: كذا

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ١١٦ - ١١٩.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٢.

وكذا، فأعطاني كيساً قدرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلت: الحمد لله الذي استجاب دعائي وفرّج عني، فقال لي: وما كان قولك ودعاؤك؟ فخبّرتُه الخبر بصنيع البقال وما دعوت الله جلّ وعزّ به، فاستحلفني أنني دعوت بهذا الدعاء، فحلفت له، فأمر لي بمائة ألف درهم، فسألت بعض أولئك الخدم عنه لأعلم هل يقدر على ما أمر لي به أم لا، فقال: هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، فسكّت إلى ذلك وانصرفت إلى منزلي، ومضيت إلى قهرمانة لما أصبحت فقبضت منه المال.

ولما طعن المأمون على البرامكة ووضع منهم قال محمد بن عبد الله: «يا أمير المؤمنين! لقد صغرت من البرامكة غير مصغر، ووضعت منهم غير موضوع، وذهمت منهم غير مذموم، ولقد كانوا شفاء أسقام دهرهم، وغياث أجذاب عصرهم، كانوا مفزعاً للملهوفين، وملجأً للمظلومين، وإن أذن لي أمير المؤمنين حدّثته ببعض أخبارهم ليستدلّ بذلك على صدق قلبي فيهم، ويقف على جميل أخلاقهم ومحمود مذاهبهم في عصرهم، والأفعال الشريفة والأيدي النفيسة. فأذن له المأمون بالحديث، فقال: كنت منقطعاً إلى الفضل بن يحيى، فطلب مني بحضور أبيه وأخيه جعفر، أن أستضيفه يوماً في داري، فقلت له: جُعِلت فداك! شأني أصغر من ذلك، ومالي يعجز عنه، وباعني يقصر عن ذلك، وداري تضيق عنه، ومتّي لا تقوم له. فلم يقتنع باستعفائي وأصرّ على استضافتي، فطلبت تأجيل ذلك سنة حتى أتأهب، فوافق يحيى على إمهالي شهرين فقط، فمضيت وبدأت بإصلاح داري وشراء ما أتجمّل به من فرش وأثاث وغير ذلك. وفي الموعد المعيّن حضر الفضل باكراً ومعه أباه يحيى وأخاه جعفر وأولادهم وقتيانهم، فطاف الفضل في جميع أنحاء الدار ونظر إلى نعمتي، صغيرها وكبيرها، إلى أن دخل المطبخ فأكل ومن معه، ثم خرج ووقف في صحن الدار وطلب نجاراً وأمره بفتح باب في أحد حيطان الجيران، ففتح الباب وأدخلني أمامه إلى دار جار بصري، فيها من حسنها كلها لؤلؤ تغشي العيون، وفيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني كل جميل بديع، وقال: هذا المنزل وجميع ما فيه لك، وأخبرني بأنه لما سألني هذه

الدعوة اشترى الأملاك المجاورة لي وعمَّرها داراً حسنة، ونقل إليها كل ما أرى، وكنت أرى العمارة فأحسبها لبعض الجيران. . وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحدَّثهما بما جرى، فرأيت أخاه جعفرأ قد أمتعض من ذلك وتغيَّر وجهه تغيراً عرفته، ثم أقبل على أبيه يشكو الفضل ويقول: يتفرد بمثل هذه المكreme من دوني، فلو شاركني فيها لكانت يداً أشكرها منه، فقال: يا أخي، بقي لك منها قطبها، قال: وما هو؟ قال: إن مولانا هذا لا يتهياً له ضبط هذه الدار بما فيها إلاً بدخل جليل، فأعطه ذلك، فقال: فرَّجت عني يا أخ، فرَّج الله عنك! فدعا من وقته بصكاك لخمس قريات واحتمل عني خراجها، فخرج عني وأنا أيسر أهل زماني. فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم؟ فقال المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم. ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم^(١).

ويظهر أن البرامكة اعتبروا الإحسان واجباً إنسانياً ألقى على عاتقهم، فكانوا يسألون في مجالسهم العامة عن ذوي الحاجات لمدِّ يد العون إليهم. وفي هذا المجال يُروى عن الفضل بن يحيى أنه قال ذات ليلة: أتعرفون رجلاً كانت عليه نعمة فزالت عنه حتى أردّها إليه؟ فهدهاه الأشعري على رجل شريف من آل خالد بن عبد الله القسري بالكوفة وسمّاه له، فأمر بإحضاره فوراً، فلما حضر سأله عن حاله وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقيم بها مروءتك حتى أنظر في أمرك وأدبر لك ما يصلح حالك، ثم ولّاه كرمان فصار إليها وحسنت حاله. ولكن بعد مدة وجيزة بلغ الفضل وفاة الكوفي، فاغتم لذلك وقال: أردت بهذا الرجل الغنى فمات قبل ذلك، وأمر بحمل جميع ما خلفه إلى أهله، فحُمِل إليهم^(٢).

وجاء البرامكة وتكرّموا حتى بالثياب التي كانوا يلبسونها، ففيما يُروى في هذا الصدد أن يحيى كسا يوماً كل ثوب كان له حتى لم يبقَ عليه من كسوته إلاً طيلسان

(١) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٤؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية

ص ١٩٩ - ٢٠٠، مع تغيير في النص.

(٢) البيهقي: المحاسن والمساوىء ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

خلق، فعلمت امرأته بحاله، فبعثت إليه طيلساناً رائعاً، ولكن خالد لم يلبس هذا الطيلسان بل أمر أحد الناس بأن يقوم الساعة على شريف من أشرف الناس أو حرّ من أحرارهم فتتحفه به فيقوم فيلبسه كل يوم عيد أو يخرج إذا خرج نحو أهله فيلبسه عند قدومه إليهم فيقول: هذا كسوة خالد، هذا والله أفضل وأشرف من لبسي إياه^(١).

ولما دخل أبو قابوس النصراني الحيري وكان منقطعاً إلى البرامكة على جعفر بن يحيى في يوم بارد، وتبين على جعفر أثر البرد ألقى إليه مطرف خز، وكان شراه جملة كبيرة، وانصرف أبو قابوس فحضره عيد لهم، فالتمس في ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف، فلم يجده، فقالت له ابنته: لو كتبت إلى جعفر فعرفته حالك لوجّه إليك ما تلبسه مع هذا، فكتب إليه:

أبا الفصل لو أبصرتنا يوم عيدنا	رأيت مباحاة لنا في الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخز جبة	لباهيت أصحابي به في المجالس
فلا بدّ لي من جبة من جبابكم	ومن طيلسان من جباد الطيالس
ومن ثوب قوهي وثوب غلالة	ولا بأس لو اتبعت ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب في العيد خمسة	كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سألته	ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس
وذاك لأن الشعر يزداد جدة	إذا ما البلى أبلى جديد الملابس

فوجّه إلى أبي قابوس من كل صنف ذكره عشر قطع^(٢).

وكان الكرم صديقاً حميماً للبرامكة، وافقهم في فقرهم وقهرهم كما في غناهم وعزهم، وحين دخلوا السجن دخل معهم. والدليل على ذلك أنه عندما زار الشاعر سعيد بن وهب البرامكة في سجنهم وأنشدتهم بيتين من الشعر، وهبه الفضل بن يحيى دواجاً سموراً كان مسروراً قد ألقاه عليه - بأمر من الرشيد - قبل

(١) البيهقي: المعاسن والمساوىء ص ١٩٤.

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢١٠.

الزيارة بيوم واحد. ولما قال سعيد: «والله لا آخذ به على هذه الحالة»، قال له الفضل: «والله لتأخذنه، فإن وقع الرضا كان عندنا مثله كثير وإن لم يكن إلا ما نحن فيه أنت أحق بذلك هذا ليس مما تتغير به حال^(١).

ونما الكرم البرمكي وكبر حتى بلغ مرحلة الثواب عن الأموات. ومما يُروى في هذا الصدد أن الشاعر مروان بن أبي حفصة دخل على جعفر بن يحيى البرمكي، وقد امتدحه بهذه القصيدة، فوقف ينشد:

أبرّ فما يرجو جواد لحاقه أبو الفضل سباق اللهاميم جعفر
وزير إذا ناب الخليفة حادث أشار بما عند الخليفة يصدر

فقال: ويحك! أنشدتني مرثيتك في معن: وكان الناس كلهم لمعن إلى أن زار حفرتة عيلاً فأنشده إياها حتى فرغ من القصيدة وجعفر يرسل دموعه، فلما سكن قال: أثابك أحد من ولده وأهله على هذه شيئاً؟ قال: لا. قال جعفر: فلو كان معن حياً ثم سمعها منك كم كان يشيك عليها؟ قال: أربعمائة دينار. قال جعفر: لكنني أظن أنه كان لا يرضى لك بذاك وقد أمرنا لك عن معن بضعف ما قلت، وزدنا نحن مثل ذلك فاقبض من الخازن ألفاً وستمائة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك. فقال مروان: يذكر ذلك ويمدح جعفرأ وزادها في مرثيته لمعن:

نفحت مكارماً عن قبر معن لنا مما تجود به سجالا
فعجلت العطاية يا ابن يحيى بتأدية ولم ترد المطالا
فكافي عن هدى معن جواد يا جود راحة بذلت نُوالا
بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن يُنالا
كأن البرمكي بكل مال تجود به يداه ويجود مالا^(٢)

(١) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٢٥٦ وما بعدها؛ الجهشيارى: الوزراء والكتاب

ص ٢٤٦ - ٢٤٨، مع تغيير في النص.

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ٤٥ - ٤٦.

موضوعيته، ترجيحاً غير معصوم عن الخطأ. فكرم البرامكة مثلاً نستطيع أن نطلق الشكوك عليه بمجرد قولنا إنه اغتراف من جيوب الغير وما أسهله كرمّاً يتكوّن من جيوب الآخرين، خصوصاً إذا كان الآخرون عظاماً، بل ومن أعظم خلفاء الإسلام الذين امتدت همم العرب أيامهم إلى النائي من بقاع الأرض. وأحضانهم الحنونة في رعاية العلوم والفنون والشعر والشعراء بخاصة لا يمكن أن تظل منزّهة عن الأخذ بمقولة: «خاطب الناس بعقولهم، وعاملهم بمفاهيمهم، وتودّد إليهم بالتودّد إلى القيم التي يراعونها ويغارون عليها».

ونستطيع بهذا المقتضى أن نجري شوطاً بعيداً في تهوين ما سبق استعظامه ونقض ما جهدنا في بنيانه. ولكن الأمر لا يعدو كونه — كما أسلفنا — مجرد ترجيح تعوزه الوقائع التاريخية. فمن أين لنا، ولسوانا، أن نعرف ماذا كان البرامكة سيكونون لو لم يضربهم الرشيد ضربته القاضية؟ نحن نعلم أنهم شجّعوا الآداب والفنون، وجادوا على العلماء والمتعلمين، وأغدقوا بدون حساب على كل أرباب الإيجاب في المجتمع، وفجأة ضُربوا بدون أن يُترك لنا معرفة ما إذا كان كل ذلك منهم طبعاً حقيقياً أم مجرد طعم في فخ قُصصوا قبل أن يقنص، وصيدوا قبل أن يصاد.

أمر وحيد نستطيع حياله أكثر من مجرد الترجيح، ونظرتنا إلى هذا الأمر قد تغرينا بسحبها على كل أمورهم، ذلك هو تشيعهم، فإن ما جاء في بعض المصادر كمقاتل الطالبين^(١) مثلاً، يميل بنا إلى تصنيفهم في عداد الديماغوجيين، حسب التعبير المعاصر.

ولكننا نعود فنقول: إن البرامكة لم يُتركوا ليكشفوا عن كامل وجههم الحقيقي، إذا كان لهم من وجه غير الذي تفتّنت المراجع التاريخية في إظهار براءته ونبله.

(١) الأصبهاني: مقاتل الطالبين ص ٤٩٣ وص ٥٠٢ — ٥٠٣.

إن باب التاريخ لأضيق من أن تقتحمه الميول والأهواء، وحتى الترجيحات
الحصيفة والبريئة، ولذلك فمن المتعذر أن نستنبط أكثر مما فعلنا.

فلعل المستقبل يفصح عن مصادر تتيح لغيرنا أحكاماً أكثر دقة وموضوعية
في هذا المضممار. وسواء شئنا أم أبينا وشاء البرامكة أم أبوا، فإنهم فعلاً ذلك
المدماك الراسخ في صرح بنياننا الحضاري، ما دامت الأمور تؤخذ بعواقبها.

مُلْحَق

ذكر ابن خلكان^(١) أن أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك، المعروف بجعفر البرمكي النديم، كان فاضلاً صاحب فنون وأخبار ونجوم ونوادر ومنادمة، وقد جمع أبو نصر ابن المرزبان أخباره وأشعاره، وكان من ظرفاء عصره، وهو من ذرية البرامكة وله الأشعار الرائعة، فمن شعره قوله

أنا ابن أناس مؤل الناس جودهم	فأضحوا حديثاً للنوال المشهر
فلم يخل من إحسانهم لفظ مخبر	ولم يخل من تقريضهم بطن دفتر
وله أيضاً:	

فقلت لها بخلت عليّ يقظي	فجودي في المنام لمستهم
فقلت لي وصرت تنام أيضاً	وتطمع أن أزورك في المنام
وله أيضاً:	

أصبحت بين معاشر هجروا الندى	ونقلوا الأخلاق من أسلافهم
قوم أحاول نيلهم فإنما	حاولت نتف الشعر في آنافهم
هات اسقنيها بالكبير وغني	ذهب الذين يُعاش في أكنافهم
وله أيضاً:	

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٤.

يا أيها الـركب الـذي
يـوصيكم الـصب الـمقيـم
نـ فراقهم أجـدى البـلية
م بـقلبه خـير الـوصية
ولـه أيضاً:

وقائـله لي كيف حالـك بعـدنا
فقلت لها لا تسأليني فإنني
أفي ثوب مثير أنت أم ثوب مغتر
أروح وأغدو في حرام مقتـر
ولـه ديوان شعر أكثره جيد وقضاياـه مشهورة، ومن أبياته السائرة قوله:

ورق الجـو حتـى قيل هـذا
ولابن الرومي فيه، وكان مشوه الخلق:

نبئت جـحظة يستعير جـحوظه
وارحمتا لمنادميه تحمّلوا
من فيل مشـطرنج ومن سرطان
ألم العيون للذة الأذان

* * *

الخاتمة

والآن، وبعد جولتنا مع البرامكة، من أصلهم إلى نكبتهم، ومن ذروة مجدهم إلى حضيض تحريم ذكرهم، عبوراً بغيض من فيض مما قيل فيهم شعراً ونثراً ويسير من كثير من فضلهم على النهضة الأدبية والفكرية في تاريخ الأمة العربية، نجدنا بحاجة إلى وقفة ناخلة مغربة تضعنا مباشرة أمام النتائج عارية خالصة.

فعلى ضوء ما مضى أصبح بإمكاننا أن نقول:

- ١ — انضم الفرس إلى الإسلام يرافقهم الشعور بأنهم لا يستحقون رضوخهم لقوم دونهم في الحضارة.
- ٢ — بدأوا يتعصبون لماضيهم بقدر ما كان العرب يفخرون عليهم ويعاملونهم معاملة الرفيع للوضيع، وذلك ما اصطلاح على تسميته بالشعوبية.
- ٣ — في العصر الأموي وصل العرب بفخرهم إلى الجهر بعروبة الإسلام وبأنه فضل عربي على الآخرين، مما حرّك الفرس باعتبارهم آخرين وذوي حضارة سابقة إلى التعاطف مع مللهم القديمة، بالإضافة إلى الإسلام، مما حول الشعوبية إلى زندقة.
- ٤ — بعد أن اتخذ العباسيون من أبناء عمهم العلويين عدواً جديداً، يضاف إلى الأمويين، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اتخاذ حليف يكره أعداءهم والعرب عن جدارة فلم يجدوا أجدر من الفرس.

٥ - لم ينسَ العباسيون أنهم في آخر الأمر عرب، وكذلك لم ينسَ الفرس ذلك، فكان حلف الفريقين برأي كل منهما مرهوناً ببقاء المصلحة منه .

٦ - كانت ثمة سوابق عباسية قبل البرامكة لضرب رأس الحليف إذا ارتفع أكثر من اللزوم، فقد قتلوا أبوسلمة الخلال، وأبا مسلم الخرساني، وأبا أيوب المورياني، ويعقوب بن داود قبل الرشيد؛ كما قتلوا الفضل بن سهل، والأفشين، وبابك، من بعده، وكان لبعض هؤلاء أتباع يصفون عليهم صفات مقدسة كالراوندية بالنسبة لأبي مسلم، والخرمية بالنسبة لبابك .

٧ - عرف العباسيون للزندقة خطرهما السياسي كأسلوب فارسي ينخر الإسلام لدك دولتهم، حتى كان للمهدي جهاز خاص يتبع الزنادقة بالقتل .

٨ - كان البرامكة من البيوتات الفارسية ذات العلاقة بالكهانة للنيران .

٩ - ولما كان العباسيون بحاجة للفرس على العموم، كان الرشيد بحاجة للبرامكة على الخصوص، أي إنها علاقة تنتهي بانتهاء الغرض منها، فكيف إذا انتهت المنفعة وبدأ الخطر .

ومن هذه النقاط التسع يتبين لنا أن نكبة البرامكة كانت حلقة من سلسلة، وأن العباسيين في عهد خلفائهم المؤسسين جروا على سنة قوامها أن سوء الظن من حسن الفطن، وأن الحذر هو الحزم . ولا ننسى وصية إبراهيم الإمام لقواده بالقتل على الشبهة . وما اختلاف نكبة البرامكة عن غيرها من نكبات الفرس على أيدي بني العباس سوى اختلاف بالكم، يؤيد ما ذهبنا إليه ما ورد على لسان الرشيد من إصراره على ترك سر انقلابه على أعوان الأمس مكتوماً، ولا يدحض ذلك ما قيل عن ندمه، فقد عاش مع الفضل وجعفر في ظل أبوة حانية من يحيى . . وهذا يهز الرشيد الإنسان، وأما الرشيد رجل الدولة فقد ضرب ضربته وهو مستعد لمثلها تجاه أي مركز جديد من مراكز القوى .

وإذن فليس ضرورياً أن يكون للبرامكة سيئات تبرر قتلهم، بل إن العكس هنا

هو الصحيح ، فالرشيد - وهو ذلك المؤتمن من قبل آبائه على دولة صاعدة فتية - يرى حسنات البرامكة هي السيئات التي تبرّر ضربهم ، وما أدرانا لو لم يُنكبوا ماذا كانوا سيفعلون ، وهذه أطماع أبي مسلم ليست بالبعيدة عن الأذهان . . وإذا لم نأخذ خوف الرشيد من البرامكة على دولته بعين الاعتبار واكتفينا بمحاكمته على ضوء ما يقوله المؤرخون عن أسباب النكبة ، فسنجد أنفسنا نجرم الرشيد وندينه بالطغيان كما فعل به بعض المستشرقين ، أمثال (أسبورن) و (مويير) .

وثمة كلمة أخيرة نقولها للمتطرفين في نقد البرامكة والتهجم عليهم من كتاب العرب المُحدثين : إنه لا خوف على العروبة من أي تيار حضاري يُضيف ولا يُلغي ، يُتم ولا يهدم . . وتيار البرامكة والفرس على العموم كان في النتيجة ، ولوبغير إرادتهم ، رافداً عظيماً أطرى العروبة ولوّنها وأضفى عليها ذلك الرونق الحضاري الذي لا نزال نباهي به حتى اليوم .

وهكذا نرى أن البرامكة كانوا ضروريين لنشأة الدولة العباسية ، ضرورة الفرس على العموم للعرب البداة في إنشاء الدولة الراشدة ، وأكبر دليل على ما نقول أنه بعد نكبتهم وشغور الدولة منهم سرعان ما كان فراغ اعتُمد لصدّه على الترك الذين أفرغوا الدولة العباسية من كل شيء إلا الاسم .

* * *

المصادر

- ابن أبي الحديد (عز الدين أبي حامد عبد الحميد) ت ٦٥٦هـ: شرح نهج البلاغة. (٥ مجلدات)، تحقيق: حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين) ت ٦٦٨هـ: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) ت ٦٣٠هـ: الكامل في التاريخ. (١٣ مجلدات)، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن حزم (علي بن أحمد) ت ٤٥٦هـ: جمهرة أنساب العرب. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م.
- ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) ت ٨٠٨هـ:
 - * تاريخ. (٧ مجلدات)، دار البيان. بدون تاريخ.
 - * المقدمة. الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت. بدون تاريخ
- ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد) ت ٦٨١هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. (٨ مجلدات)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٧م.
- ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) ت ٧٠١هـ: الفخري في الآداب السلطانية. دار صادر، بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد بن محمد) ت ٣٤٩هـ: العقد الفريد. (٧ مجلدات)، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٩ - ١٩٦٥م.
- ابن الفقيه (أحمد بن محمد الهمداني) ت ٣٦٦هـ: مختصر كتاب البلدان. (طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، ١٣٠٢هـ).

- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) ت ٢٧٦هـ:
- * المعارف. تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة الثانية، منقحة، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م.
- * عيون الأخبار. (٤ مجلدات)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٣هـ — ١٩٦٣م.
- * الإمامة والسياسة، المعروف بتاريخ الخلفاء. (جزءان)، الطبعة الثالثة، مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠١هـ — ١٩٨١م.
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء) ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية. (١٤ جزءاً)، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، ١٩٧٧م.
- (عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد).
- ابن المعتز (عبد الله بن المعتصم بن هارون الرشيد) ت ٢٩٦هـ: طبقات الشعراء. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م.
- ابن المقفع (عبد الله) ت ١٤٢هـ: كلیلة ودمنة. طبعة جديدة مدرسية، عني بتنقيحها ونشرها الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية — بيروت ١٩٥٧م.
- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن علي) ت ٧٣٢هـ: المختصر في أخبار البشر. (مجلدان)، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٠م.
- الأتليدي (محمد دياب) ت ١١٠٠هـ: أعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس. الطبعة الثالثة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٧٤هـ — ١٩٥٥م.
- الأصبهاني (علي بن الحسين) ت ٣٥٦هـ:
- * الأغاني. (٢١ مجلداً)، أشرف على طبعه وتصحيحه لجنة من الأدباء والمدرّسين، الطبعة الثانية، دار الفكر، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٥ — ١٩٥٧م.
- * أدب الغرباء. نشرة صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٢م.

- * مقاتل الطالبين. تحقيق، أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت.
- البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن محمد) ت ٤٢٩هـ: الفرق بين الفرق. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ.
- الخطيب البغدادي (أحمد بن علي) ت ٤٦٣هـ: تاريخ بغداد. (١٤ مجلدًا)، تحقيق وطبع: أوفست، كونرو غرافير، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧م.
- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) ت ٢٧٩هـ:
- * فتوح البلدان. (٥ أقسام)، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٣٧٧هـ — ١٩٥٧م.
- * أنساب الأشراف. (٣ أجزاء)، تحقيق: عبد العزيز الدوري وغيره، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م.
- البيروني (محمد بن أحمد) ت ٤٤٠هـ: الآثار الباقية من القرون الخالية. تحقيق: إدوار سخاو، بغداد، مكتبة المثنى، كتاب نسخة مصورة عن طبعة ليبزج ١٩٢٣م.
- البيهقي (إبراهيم بن محمد) ت ٣٢٠هـ: المحاسن والمساوي. دار صادر، بيروت ١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م.
- التنوخي (الحسن بن علي) ت ٣٨٤هـ: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. (٧ أجزاء)، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧١ — ١٩٧٣م.
- الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب) ت ٢٥٥هـ:
- * البيان والتبيين. (٣ أجزاء)، تحقيق: فوزي عطوي، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٨م.
- * التاج في أخلاق الملوك. (المنسوب للجاحظ)، تحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت ١٩٧٠م.
- * الحيوان. (٧ أجزاء)، تحقيق عبد السلام محمد بن هارون، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٨هـ — ١٩٦٩م.
- * رسالة الجاحظ في بني أمية. القاهرة ١٣٤٢هـ — ١٩٣٣م.

- الجهشياري (محمد بن عبدوس) ت ٣٣١هـ: الوزراء والكتاب. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر ١٣٥٧هـ — ١٩٣٨م.
- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت ٦٢٦هـ:
 * معجم الأدباء. (٢٠ جزءاً)، وزارة المعارف العمومية، القاهرة ١٩٣٨م.
 * معجم البلدان. (٥ مجلدات)، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م.
- الحميري (محمد بن عبد المنعم) ت ٩٠٠هـ: كتاب السروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس، دار السراج، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.
- الدميري (كمال الدين) ت ٨٠٨هـ: حياة الحيوان. (جزءان)، دار القاموس الحديث، القاهرة ١٩٦٣م.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ت ٩١١هـ: تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، مصر ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م.
- الشابشتي (علي بن محمد) ت ٣٨٨هـ: الديارات. تحقيق: كوركيس عواد، الطبعة الثانية، مطبعة المعارف، بغداد ١٣٨٦هـ — ١٩٦٦م.
- الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) ت ٣٣٥هـ:
 * أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق. عني بنشره ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، طبعة ثانية منقحة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.
 * أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق. عني بنشره ج. هيورث. دن، دار المسيرة، بيروت، طبعة ثانية منقحة ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م.
- الطبري (محمد بن جريس) ت ٣١٠هـ: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١ — ١٩٦٨م.
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود) ت ٦٨٢هـ: آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر، دار بيروت، بيروت ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م.

- القفطي (جمال الدين أبي الحصن) ت ٦٤٦هـ:
- * إنباه الرواة على أنباه النحاة. (٣ أجزاء)، تحقيق: محمد أبو الفضل: إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧١هـ — ١٩٥٢م.
- * تأريخ الحكماء من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء. مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر، بدون تاريخ.
- القلشندي (أحمد بن علي) ت ٨٢١هـ: صبح الأعشى في صناعة الإنشا. (١٤ جزءاً)، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، ١٣٨٣هـ — ١٩٦٣م.
- الكتبي (محمد شاكر) ت ٧٦٤هـ: فوات الوفيات. (٥ مجلدات)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣ — ١٩٧٤م.
- المسعودي (علي بن الحسين) ت ٣٤٦هـ:
- * مروج الذهب ومعادن الجوهر. (٧ أجزاء)، تحقيق: شارل بلا، طبعة برييه دي مينار وباقييه دي كرتاي، بيروت ١٩٦٦ — ١٩٧٩م.
- * التنبيه والإشراف. دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م.
- المقدسي (أحمد بن سهل البلخي) ت ٣٢٢هـ: البدء والتاريخ. (٦ أجزاء)، مؤسسة الخانجي ومكتبة المثنى، القاهرة وبغداد ١٨٩٩م.
- المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ: النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم. مصر ١٩٣٩م.
- النديم (محمد بن أبي يعقوب) ت ٣٨٠هـ: الفهرست. تحقيق: رضا — تجدد، طهران ١٣٩١هـ — ١٩٧١م.
- الوطواط (برهان الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى) ت ٥٩٣هـ: غرر الخصائص الواضحة. مصر ١٢٨٤هـ.
- اليافعي (عفيف الدين) ت ٧٦٨هـ: مرآة الجنان وعبرة اليقظان. (٤ أجزاء)، حيدر آباد، دائرة المعارف، ١٣٣٧ — ١٣٣٩هـ، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ت ٢٨٠هـ: تاريخ اليعقوبي. (مجلدان)، دار صادر، دار بيروت ١٣٧٩هـ — ١٩٦٠م.

المراجع

المراجع العربية

- ١ — بدوي، عبد الرحمن: الإلحاد في الإسلام. مصر سنة ١٩٤٥ م.
- ٢ — الجومرد، عبد الجبار: داهية العرب أبوجعفر المتصور. الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٣ م.
- ٣ — حتي، فيليب، إدوار وجرجي، جبرائيل جبور: تاريخ العرب. (٦ أقسام)، طبعة جديدة منقّحة، دار غندور، بيروت ١٩٤٩ — ١٩٧٤ م.
- ٤ — ضيف، شوقي: تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول. دار المعارف، مصر، الطبعة السادسة ١٩٦٦ م.
- ٥ — عباس، عبد الحليم: البرامكة في التاريخ. منشورات وزارة الثقافة والشباب، دائرة الثقافة والفنون، عمان — الأردن ١٩٨٢ م.
- ٦ — فروخ، عمر: تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه. الطبعة الأولى، دار الباحث، بيروت ١٤٠١ هـ — ١٩٨٠ م.
- ٧ — قدورة، زاهية: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي. دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٢ م.

المراجع الأجنبية

- 1 — Huir, William: *the Caliphate*. Edinburg, 1924.
- 2 — Osborne, Robert: *Islam under the Khalifs of Baghdad*. London, 1977.
- 3 — Sourdel, Dominique: *Le vizirat Abbaside de 749 à 936*. 3 vol, Damas 1959.

* * *

فهرست

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٧
مقدمة - أصل البرامكة	٩
الفصل الأول - البرامكة في إطارهم السياسي:	١٧
١ - خالد بن برمك	١٩
٢ - يحيى بن خالد	٢٤
٣ - أبناء يحيى	٣٤
الفصل الثاني - الاتهامات:	٤٧
١ - اتهام البرامكة بالميل إلى الفرس	٤٨
٢ - اتهام البرامكة بالشعوية والزندقة والمجوسية	٥٤
٣ - اتهام البرامكة بالميل إلى العلويين	٥٩
٤ - الغنى المفرط	٦٤
الفصل الثالث - نكبة البرامكة:	٧١
١ - أسباب النكبة	٧٢
٢ - مقتل جعفر	١٠٠
الفصل الرابع - مما قيل في البرامكة:	١١٣
١ - في مدح البرامكة	١١٤
٢ - في رثاء البرامكة	١٣٥
٣ - في هجاء البرامكة	١٤٢
الفصل الخامس - مآثر البرامكة:	١٤٥
١ - العلم والأدب	١٤٨
٢ - الترجمة	١٧٥
٣ - الطب	١٧٩
	٢٢٩

الموضوع	الصفحة
٤ - التواضع والتقرب إلى الناس	١٨٢
٥ - دورهم المعماري	١٩٣
٦ - الكرم	١٩٩
ملحق	٢١٧
الخاتمة	٢١٩
المصادر	٢٢٣
المراجع	٢٨٨

* * *

سازمان اسناد و کتابخانه ملی
تهران - مابین ۸۳۷۶۶۷ - ۸۳۷۶۶۸ - ۸۳۷۶۶۹ - ۸۳۷۶۷۰

البركة

سبيلنا وإحيانا